نظرات واختيارات

في

مناسبة خواتيم الآيات

مع

فوائد بديعات

تأليف

الشيخ / فكري بن محمود بن رجب سلامة
(الجزار)

مكتبة أبو بكر الصديق للنشر و التوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

نظرات واختيارات

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

رقم الإيداع
٢٠١١/١٠٥٥٨

توزيع
مكتبة أبو بكر الصديق للنشر و التوزيع
٢٠ درب الأتراك - خلف جامع الأزهر

«لو كان لا يؤلِّفُ كتابًا إلَّا مَن حَوَى جميعَ العلومِ إذًا ما ألَّفَ أحدٌ كتابًا، ولا تَأَتَّى له تصنيفٌ؛ لأنَّ اللَّهَ عز وجَلَّ يقول: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾».

المسعودي

«مُروجُ الذهب» (4/ 409)

يا مَن غدَا ناظِرًا فيما كَتَبْتُ ومَن
أَضْحَى يُرَدِّدُ فِيمَا قُلْتُهُ النَّظَرَا
سَأَلْتُكَ اللَّهَ إنْ عَايَنْتَ لِي خَطَأً
فَاكْتُبْ إليَّ فَخَيْرُ النَّاسِ مَن نَصَحَا[1]

(1) الأشموني في «منار الهدى في الوقف والابتدا» [المقدمة]، وشطره الأخير هكذا:
«فاسْتُر عليَّ فخيرُ الناسِ مَن سترا»

الواجبُ أنْ يُطالِعَ القارئُ مقدمةَ الكتابِ لِيَكْشِفَ منها ترتيبَه وغرضَ مصنِّفِه؛ أمَّا أنْ يَهْجُمَ على ما بداخلِ الكتابِ فلا بدَّ أنَّه واجدٌ ما لا يُرْضِيه، أو ما لا يَفهَمُه، فإنَّ المقدمةَ للكتابِ كالبابِ للدارِ».

فكري

«لَمَّا كانَ المُتَكَلِّمُ أحْكَمَ
الحاكِمين فلا بدَّ لِهَذِه
التغييراتِ مِن حِكَمٍ وفوائدَ»

«الرازي» (2/ 137)

مُقَدِّمَة

إنَّ الحَمْدَ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرورِ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70-71].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صلى اللَّه عليه وسلم، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ.

أيها القارئُ الكريمُ. . هذا كتابٌ في مسألةٍ من مسائلِ «علم المناسبةِ» أو: «علمِ مناسبات القرآن».

«واعْلَمْ أنَّ المناسبةَ عِلْمٌ شريفٌ، تُحْزَرُ(1) بِهِ العقولُ، ويُعْرَفُ به قَدْرُ

(1) تُقدَّرُ.

القائلِ فيما يَقولُ»[1].

ونَقَلَ الزَّرْكَشِيُّ[2] عن أبي بكرِ بنِ العربيِّ: «ارتباطُ آيِ القرآنِ بعضِها ببعضٍ حتى تكون[3] كالكلمةِ الواحدةِ، متَّسِقَةَ المعاني، منتَظِمةَ المباني علمٌ عظيمٌ».

وإنَّما قلتُ: «في مسألةٍ من مسائلِ علمِ المناسبةِ» - كذا مُقَيَّدًا - لأنَّ «عِلْمُ المناسبةِ» إنما يَتَناوَلُ أمورًا عدةً، منها: «لِمَ جُعِلَتْ هذه الآيةُ إلى جَنْبِ هذه؟ وما الحكمةُ في جَعْلِ هذه السورة إلى جَنْبِ هذه السورَةِ»[4]، ومنها: «المناسبةُ في فواتِحِ الآيِ وخواتِمِها»[5].

«وهكذا السُّوَرُ؛ يُطْلَبُ وَجْهُ اتصالِها بما قبلَها وما سِيقَتْ له»[6].

هذا بعضُ موضوعِ «عِلْمُ المُناسَبةِ».

وأنا في هذا الكتابِ إنما أَتَناوَلُ - بالأساسِ - مناسبةَ خاتمةِ الآيةِ للآيةِ نفسِها، وقد أَزِيدُ فأتناوَلُ مناسبةَ هذه الخاتِمَةِ لسياقِ الآيةِ.

وهذا جُزءٌ واحدٌ ممَّا ذكرتُ في بعضِ موضوعِ «عِلْمُ المناسَبَةِ».

لذا قلتُ: «في مسألةٍ من مسائلِ عِلْمِ المناسبةِ».

ثم، لِيَعْلَمِ القارئُ أني - في كتابي هذا - لم أتناوَلْ آيَ القرآنِ كلَّها، إنَّما

(1) «البرهان في علوم القرآن» (1/35).
(2) «البرهان في علوم القرآن» (1/36).
(3) الآياتُ.
(4) «البرهان في علوم القرآن» (1/36).
(5) «البرهان في علوم القرآن» (1/36).
(6) «البرهان في علوم القرآن» (1/37).

هي آياتٌ قليلةٌ، بَلَغَ عَدَدُها (70) سبعين آيةً، تقريبًا[1]؛ فإنَّ جُهْدِي لا يَقُومُ بتناوُلِ كلِّ آياتِ القرآنِ.

هذا سببٌ لِقِلَّةِ عددِ الآيِ المذكورِ هنا.

وثَمَّةَ سببٌ آخرُ لِقِلَّةِ عددِ الآيِ، أَلَا وهو أنَّ الإحصاءَ والتَّتَبُّعَ لم يكنْ من قَصْدِي؛ لأنَّ الكتابةَ والتأليفَ لم تكن خَطَرَتْ لي على بالٍ.

إنما هو «صَيْدُ خاطِرٍ».

نعم، «صَيدُ خاطِرٍ» كان أصلَ هذه الأوراقِ، وسببَ كتابتِها، بِكُلِّ ما تَعْنِي كلمةُ «صيدُ خاطِرٍ» من مَعَانٍ.

صيدُ خاطِرٍ:

كلمةٌ، أو عبارةٌ تَعْنِي أولَ ما تَعْنِي: خاطرٌ مَرَّ على الذِّهْنِ دونَ قَصْدٍ من صاحبِهِ. بلْ، قد يكونُ دونَ سبَبٍ منه.

فما كان من هذا الصَّاحبِ المَطْرُوقِ بهذا الخاطِرِ إلَّا أنِ اصطادَه بِسِنِّ قَلَمِه، وقَيَّدَه في ورقةٍ، أو أوراقٍ.

هذا جُلُّ - أو كُلُّ - فِعْلِ هذا الصاحِبِ فيما طَرَقَه من خاطِرٍ.

ويا لَهُ مِنْ فِعْلٍ عَظِيمٍ.

نَعَم، كم هو عظيمٌ؛ إذ يَكفيه عَظَمَةً أنَّه:

1 - تقييدُ أمرٍ قد يَضيعُ، بينما قد يُحتاجُ إليه في وقتٍ ما.

---

(1) من إجمالي (97).

2 - قد يكون هذا «الخاطرُ» سببًا في حَلّ إشكالٍ لصاحبِهِ.

3 - قد يكونُ سببًا في إيضاحِ معنًى انْبَهَمَ على صاحِبِهِ.

4 - قد يكون سببًا في اختراعِ جديدٍ[1].

5 - وقد يكون - بل، وقد كان - سببًا في إنشاءِ عِلْمٍ جديدٍ.

هذا، ولَعَلَّ كثيرًا منَّا يَذْكُرُ كتاب «صيدُ الخاطرِ» للإمامِ/ ابنِ الجَوْزِيِّ - رحِمَه اللّهُ تعالى - ولا يَخْفَى ما فيه من علمٍ جَمٍّ.

ثم، إنَّ الكاتبَ قد يَتَوقَّفُ عن مجرَّدِ تقييدِ صيدِ الخاطرِ، ولا يزيدُ. هذا هو الأصلُ في صيدِ خاطرٍ.

ثم، يَعُودُ إليه ثانيةً، أو لا يَعُودُ.

فإذا عاد فإنما لِيُعاوِدَ النَّظَرَ فيما قَيَّدَهُ فَيُبْقِي عليه كما هو، أو يَزِيدُ فيه، أو يُصْلِحُ شيئًا منه، ويُهَذِّبُه، أو قد لا يرضَى عنه، أوْ يَرَى أنه قد فاتَ وقْتُه، أو سَبَقَه به غيرُه فَيَحْذِفَه.

وكلُّ هذا قد وَقَع في مسائلِ كتابِي.

التأليفُ في الزَّمَنِ الصَّعْبِ[2]:

ثم، إنه قد وَقَع لي تَقْييدُ هذه المسائلِ كُلِّها هناك، خَلْفَ أسوارِ

---

(1) آلةٌ - مثلاً - أو قاعدةٌ وقانونٌ.

(2) اقتبسته من عنوان افتتاحية العدد (20) من مجلة «الأحمدية».
وهي مجلةٌ بحثِيَّةٌ هامَّةٌ، والعنوان هناك: «التأليفُ في ظروفٍ صعبةٍ» وهو مقالٌ هامٌّ جدًا.

المُعْتَقَلاتِ[1] على مَدارِ عدَّةِ سنواتٍ، كما قد وَقَعَ لِعَدَدٍ غيرِ قليلٍ من أهلِ العلمِ منذ قديمٍ.

لذلك، وبالإضافةِ إلى كونِ مسائلِ هذا الكتابِ كانت «صيدُ خاطرٍ»، لكلّ ذلك جاء كثيرٌ منها غيرُ مُوَثَّقٍ، أو قد يكونُ غيرَ مُهَذَّبٍ، رغمَ أني عاودتُ النَّظَرَ في غيرِ قليلٍ منَ المسائلِ، سواءَ هناك - خلفَ الأسوارِ - أو عند تجميعِ الأوراقِ وضَمِّها إلى بعضِها للنظرِ في أمرِ نشرِها كتابًا.

فجاء ما تَبَقَّى منَ المسائلِ بعدَ الحذفِ مختلِفًا من حيثُ:

1 - طولُ النَّفَسِ في استِقصاءِ الموضِعِ والكلامِ عليه.

2 - تحقيقُ المسألةِ إنْ كان قد سبق فيها، أو في شيءٍ منها خِلافٌ.

3 - التوثيقُ.

وبَقِيَ بعد ذلك مسائلُ كثيرةٌ لم تُضَمَّ للكتابِ.

ولذلك، أقولُ، إنه:

كتابٌ مفتوحٌ:

نعم، هو بهذا الوصفِ حقيقٌ لأسبابٍ عدَّةٍ:

1 - أنَّه «صيدُ خاطرٍ»، وصيدُ الخاطِرِ يَصْعُبُ حَصْرُه، كما قد يستحيلُ الحَجْرُ عليه، والتَّحَكُّمُ فيه؛ لأنَّه فضلٌ منَ اللَّهِ، يؤتيه مَن يشاءُ، وقتما شاء، وكيفما شاء.

---

(1) وهي عديدة، وفي مِصرِنا كثيرةٌ، وكانوا ينقُلُوننا بينها.

2 - أنَّ لديَّ مسائلَ لم أُضِفْها؛ لِقِلَّةِ جُهْدِي، ولِعَدَمِ وُجُودِ مَن يُساعِدُنِي[1].

3 - أنَّه قد مَنَّ اللَّهُ تعالى عليَّ من فضلِهِ بمَسَائلَ كثيرةٍ، غيرَ ما في الكتابِ، وغيرَ ما لم أُضِفْه.

لكلِّ ذلك وَصَفْتُ الكتابَ بأنَّه «كتابٌ مفتوحٌ»؛ ويكفيه أنَّه «صيدُ خاطرٍ» ليَقْبَلَ الزيادةَ ما بَقِيَ لي نَفَسٌ في الحياةِ، إلَّا أنْ يشاءَ اللَّهُ تعالى أمرًا آخرَ.

علاقةُ كتابي بكُتُبِ «عِلْمِ المُناسَبةِ»:

لما كان قد ألَّف أهلُ العِلْمِ، وكتبوا كُتُبًا في «عِلْمِ المُناسَبة»، كان ضَرُوريًّا أنْ أُوَضِّحَ علاقةَ كتابي هذا بها؛ لتَظْهَرَ للقارئِ صورةُ الكتابِ، ومكانُه.

ولنأخذْ مثالاً كتابَ «نظمُ الدُرَرِ في تناسُبِ الآياتِ والسُّوَرِ»:

1 - «نَظْمُ الدُّرَرِ» نَظَمَه عالمٌ جليلٌ، وإمامٌ ذو باعٍ ومكانٍ في العِلْمِ.

وأنا، مَن لا ذِكْرَ له.

2 - «نَظْمُ الدُّرَرِ» صورةٌ لِعُلُوِّ هِمَّةِ صاحِبِه؛ إذْ تَتَبَّعَ فيها الآياتِ بترتيبِها.

كتابي، حوالي (97) سبعةٍ وتسعينَ آيةً تَفَرَّقت بينَ المُناسَبةِ والفائِدةِ.

3 - لكني، لم أكنْ قد نَظَرْتُ في «نَظْمُ الدُّرَرِ» - أو غيرِه من كُتُبِ هذا

---

(1) كما قد ذكرتُ ذلك في مقدمةِ كتابي «التنبيهاتُ في التصحيفاتِ والتحريفاتِ».

العِلْمِ- قبلَ صَيدِ هذه الخواطِرِ.

وليس هذا مَنْقَصَةً على إطلاقِهِ، وإنْ كان لا يخلو من نَقْصٍ.

لكنَّ فيه فضلًا.

4 - نَعَمْ، إنَّ فيه فَضْلًا، أَلَا وهو:

أ - إعمالُ الفِكرِ، وبذلُ الجُهدِ.

ب - استقلالُ العَمَلِ، سواءَ وافَقَ غيرَه، أَمْ خالفَ، أم جاءَ بما لم يُسْبَقْ بِهِ.

5 - أني أَلْحَقتُ به «فوائدُ بَديعاتٌ»، وتنبيهاتٌ، واستدراكاتٌ، لَعَلَّ اللَّهَ أنْ يَجْعَلَ فِيها نَفْعًا جَمًّا.

علاقةُ موضوعِ الكتابِ بالتفسيرِ:

هو باختصارٍ جُزءٌ مِنَ التفسير، أو مُكَمِّلٌ للتفسيرِ، مساعِدٌ على فَهْمِهِ، واستنباطِ الأحكامِ منه.

بلْ، أراه جمالَ، وزينةَ التَّفسيرِ؛ إذ به يَتِمُّ المعنى، ويَتَّضِحُ المرادُ.

لذلك، اخترتُ، أو رجَّحْتُ أنَّه «مُكَمِّلٌ للتفسيرِ».

وبعدُ..

فهذا بعضُ ما أردتُ بيانَه في هذه «المقدِّمة»؛ تعريفًا بالكتابِ.

وقد سَمَّيْتُه:

«نظراتٌ واختياراتٌ

في

مناسبةِ خواتِيم الآياتِ

مع

فوائدَ بَدِيعاتٍ»

واللَّهَ أسألُ القَبولَ، والنَّفعَ، لي، وللمسلمين.

وكَتَب

الشيخ/ فكري (الجزار)

القاهرة - حدائق القبة

الساعة 6.00 قبلَ عشاء

السبت 5 من المحرم 1432

2010/12/11

تنبيهـــاتٌ
بين
يَدَي الكتابِ

التنبيـهُ الأولُ:

ليس كلُّ الكتابِ في «المناسَبَة»؛ إنما معها «فوائدُ في أمورٍ أُخَرَ. لذلك أَضَفْتُ إلى اسمِ الكتابِ «مع فوائدَ بديعاتٍ». ولَعَلَّها تكونُ كذلك.

وعددُ هذه المواطنِ (27).

التنبيـهُ الثاني:

قد جاءتْ فائدتانِ في آيةٍ واحدةٍ [النساء/ 12] - مَثَلًا - وما ذلك إلَّا لأنهما خاطِرَانِ، وَقَعَا في وقتين متباعِدَين، فسجَّلْتُ كلَّ واحدٍ منهما في حِينِه، ولم أحاوِلِ الجَمْعَ بينهما.

التنبيـهُ الثالثُ:

قد فاتني بيانُ بعضِ شيءٍ من مواطنَ تَعرَّضتُ لبيانِها، ولم أَنْتَبِهْ لذلك إلَّا أثناءَ تجهيزِ الكتابِ للطبعِ، ولم أستطِعْ تَدارُكَ ما فاتَنِي.

من ذلك ما فاتَني من بيانِ مناسبةِ ﴿عَفَوْاْ﴾ [النساء/ 43].

التنبيـهُ الرَّابعُ:

يُلاحظُ أني قد سجَّلتُ مع كلِّ فائدةٍ تاريخَ كتابتِها. وأحيانًا تجِدُ أَسْطُرًا

جاءَتْ بعد موطنِ تسجيلِ تاريخِ الكتابةِ، فهذهِ زيادةٌ سَجَّلْتُهَا؛ لزيادةَ البيانِ.

لكنْ، قد وقعَ في ذلك التسجيلِ الإضافيِّ اختلافٌ، أو عدمُ اتِّساقٍ؛ فإنك واجِدٌ بعضَه ومعه تاريخُ تسجيلِه، والبعضُ الآخرُ ليس كذلك. وما ذلك إلَّا لعدمِ ترتيبٍ، أو سَهْوٍ.

التنبيهُ الخامسُ:

قد أَلْحَقْتُ بما ذكرتُ من فوائدَ مسائلَ أُخَر؛ في أثنائِها أو بعدَ انتهاءِ الكلامِ عنِ الفائدةِ بخُصوصِها.

وجاءت هذه الإلحاقات باسْمِ: «تذييلٌ، استدراكٌ، تنبيهٌ أو: تنبيهاتٌ».

وما ذلك إلَّا:

1 - لعدمِ تَكْرارِ كلمةِ «فائدةٌ» في نفسِ الموطنِ.

2 - لزيادةِ الاهتمامِ بالمسألةِ المعروضةِ تحت أيِّ عُنوانٍ من هذه العناوين.

3 - تمييزًا لها؛ حتى يُمْكِنَني حَصْرُها - إنْ يَسَّرَ اللَّهُ تعالى هذا الحصرَ - لأنَّها داخلةٌ في كُتُبٍ أُخرى لي، ككتاب: «تصحيفاتُ كُتُبِ التفسيرِ»، أسألُ اللَّهَ تعالى التَّيسيرَ.

التنبيهُ السادسُ: (عن الأحاديث):

1 - حاولتُ ألَّا أذْكُر في كتابي منَ الأحاديثِ إلَّا الصحيحَ أوِ الحَسَنَ (ولو بطُرقِه)، بحَسَبِ ما ظَهَرَ لي بعدَ تتبُّع طُرقِ الحديثِ، وكلام أهل العِلْمِ فيه.

2 - إذا كان الحديثُ عندَ البخاريِّ ومسلمٍ أو أحدِهما، فإنِّي أكتفي بذِكرِه

مع ذِكْر اسمِ الصحابي. ولكنْ قد سقط اسمُ الصحابيِّ من مواطنَ قليلةٍ.

3 - لا أذكرُ أكثرَ مِن موطنٍ لتخريجِ الحديثِ إلَّا إذا كان هناك ما يَدعو إلى ذلك؛ كألَّا أكونَ قد أتْمَمْتُ بحثَ الحديثِ.

التنبيهُ السابعُ: (عنِ التَّراجمِ):

لم أُتَرْجِمْ لأحدٍ منَ الأعلامِ المذكورينَ في الكتابِ، بخلافِ ما كان في الكتابَيْنِ السابقينِ: «التَّنبيهاتُ في التصحيفاتِ والتحريفاتِ»، و«مختصرُ النِّبراسِ في المخالفِ للشريعةِ من كلامِ الناسِ».

وما ذلك إلَّا لأمْرَيْنِ معًا:

الأوَّلُ: التأليفُ في الزمنِ الصَّعْبِ؛ حيثُ لم يكنْ بالإمكانِ توفيرُ ما يَلْزَمُ من مراجعَ.

الثاني: عدمُ استطاعتي ذلك حينَ النَّظَرِ في الكتابِ لإعدادِهِ للطَّبْعِ.

التنبيهُ الثامنُ: (عن المراجعِ):

1 - قد يَرَى البعضُ كَثرةَ المراجِعِ بالنسبةِ إلى حجمِ الكتابِ، ولكنِّي ما ذكرتُ مرجعًا إلَّا وقَدْ رجعتُ إليه بالفِعْلِ.

2 - ولْيَعْلَمِ القارئُ الكريمُ أنْ ليْسَ كلُّ ما يُرجَعُ إليه له قيمةٌ في ميزانِ الشَّرْعِ، إنما هي الحِكمةُ يأخُذُها المسلِمُ ولو مِن كافرٍ(1).

3 - لم أتقيَّدْ بالترتيبِ الزَّمني للمراجعِ - في مواطنِ ذِكْرِها - وإنْ كان هذا

---

(1) انظر: «جامع بيان العلم وفضله» (1/ 101).

خلافَ الصَّوابِ، ولكنّي لم أتعمَّدْه، بل فاتَني ولم أستطعِ الرجوعَ إليه.

التنبيهُ التاسعُ: (عن اختصارات في أسماء المراجع):

1 - كتب التفسير: حَذَفْتُ كلمة: «تفسير» فمثلاً: «الرازي» معناها: «تفسير الرازي»، لشُهرةِ ما اشتَهَرَ منها باسم صاحبِه.

2 - «البخاري - فتح» معناها: «فتح الباري شرح صحيح البخاري».

3 - «مسلم - نووي»معناها: «شرح صحيح مسلم للنووي».

4 - جاءت مواطن في أثناء الكتاب لم أذكر فيها مكان الموطنِ في المرجِعِ، وذلك لأني راجعتُه في «المكتبة الشاملة» لا في أصلِ الكتاب.

5 - ولذلك أذكر في «الفهارس» كلمةَ «الشاملة» بدلاً من بيانات الكتاب.

التنبيهُ العاشرُ: (عن الفهارس):

1 - قد رتبتُ كلَّ الفهارسِ ترتيبًا هِجائيًا - مَا عَدَا فهرس الآياتِ - مع اعتبار الألف واللام (ال) مِن أصلِ الكلمة، فتأتي كلُّ الكلمات المبدوءة بـ (ال) في حرفِ الألفِ، على أنَّ اللام هي الحرف الثاني بعد الألفِ.

2 - لم أفصِلْ بين «ابن»، «أبو»، أو الكُنَى والألقاب، فجاءتْ كلُّها في الأسماءِ حسبَ ترتيبِها الهِجائيِّ.

3 - لم أعتبِرِ اللامَ ألف (لا) حرفًا مستقلًا، فجاءتْ في أوَّلِ حرفِ اللامِ؛ لأنَّ بعدها ألِفًا.

التنبيهُ الحادي عشرَ: (عن مواضِعِ التنبيهِ):

يُلاحَظُ أني قدْ وضعتُ الخطَّ فوقَ المواضِعِ المرادُ التنبيهُ عليها، وهذه طريقةُ العربِ، فيما أعلَمُه.

التنبيهُ الثاني عشرَ:

وقع في الكتابِ ما قد يُظنُّ خطأُ إعرابِه، وليس كذلك؛ وإنما لأنَّها وقعتْ بينَ علامتينِ ممَّا أختارُ أنا منعَهَا للإعرابِ:

1 - الأقواس بمختلفِ أشكالِها.

2 - علاماتُ التَّقسيم: (:) و(-).

3 - علامة الاعتراض.

فلْيُعْلَم.

التنبيهُ الثالثَ عشرَ: (عن التوقيتِ والتاريخِ):

1 - بخصوص التوقيت:

أكتب أحيانًا «توقيتٌ عاديٌّ» وهذا لأنَّهم في مِصر يُقدِّمون التوقيتَ ساعةً عنِ التَّوقيتِ المعتادِ فِي أَشْهُرِ الصَّيْفِ، وأنَا لا آخذُ بهذا.

2- بخصوصِ التاريخ:

يلاحظُ أنِّي لا أكتبُ «هـ» بعد أو مع التَّاريخِ الهجريِّ؛ لأنَّه الأصلُ؛ فلا يَحْتاجُ إلى تمييزٍ أو بيانٍ.

3 - أمَّا إذا كتبتُ السنتينِ - الهجرية والميلادية - بدون ذكرِ الشهر واليوم فإنِّي أكتب «هـ» مع الهجريةِ؛ حتَّى لا يُظَنُّ أنَّ المراد من سنة كذا إلى سنة كذا.

* * * * *

سورة البقرة

1 - فــائدة

في

قــولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[1]

لمَّا دعا إبراهيمُ - عليه السلام - : ربَّهُ طالبًا صُورًا مِنَ الخيرِ لذرِّيَّتِهِ، ولمَّا كان الطلبُ قد يُفهَمُ منه بعضُ التَّعدِّي؛ لأنَّ الإنسانَ قد يطلبُ ما لم يُقَدِّره اللَّه - جلَّ في عُلاه - لمَّا كان ذلك كان مِنَ المناسبِ قولُ إبراهيم - عليه السلام -: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يُعجزه شيءٌ؛ لأنَّه خالِقُ كلِّ شيءٍ، فله ﴿مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ﴾ [المائدة: 120].

ثم قال إبراهيمُ - عليه الصلاةُ والسلام -: ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ لأنَّه - وهو خليلُ الرحمنِ - يَستشعرُ أنَّ اللَّهَ العَلِيَّ القديرَ له الكمالُ المطلقُ، وهو مُنَزَّهٌ عن كلِّ نقصٍ، فهو - سبحانه - مع مِلكِهِ لكلِّ شيءٍ، وأنَّهُ لا يُعْجزهُ شيءٌ، هو حكيمٌ في قضائِهِ وقَدَرِهِ؛ فلا يكون شيءٌ في ملكوتِه إلَّا بحكمةٍ، ولحكمةٍ، وإنْ جَهِلَها بعضُ الناسِ في بعضِ الأزمانِ، أو جَهِلَها كلُّ الناسِ في زمانٍ ما، أو جهلِها الناسُ أجمعون على مَرِّ الأزمانِ، حتى تنكشفَ لهم يومَ الدين، فإنَّما يكونُ خفاءُ الحكمةِ في أمرٍ ما، أو لزمانٍ

---

(1) [البقرة: 129].

ما لحكمةٍ - أيضًا - أرادَها الحكيمُ[1].

قال الرازي: «ولولا كونُهُ كذلك[2] لما صحَّ[3] منه إجابةُ الدعاءِ، ولا بِعثةُ الرسلِ، ولا إنزالُ الكتب» اهـ.

تذييـــلٌ

قولُهُ تعالى: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 260].

هو من البابِ نفسِه، وفيه المناسبةُ نفسُها[4].

وكذلك دعاءُ الملائكة ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: 7 - 9]، فهو من الباب نفسِه[5].

* * * * *

(1) الساعة 7.30 صباح الخميس 28/ 12/ 1424هـ، 19/ 2/ 2004م.

(2) عزيزًا حكيمًا.

(3) لا أراه صوابًا، إنما الصواب: «لما أمكنه»؛ لأنه لو لم يكن «عزيزًا» أمكن منعه، ولو لم يكن «حكيمًا» ما كان فعله صوابًا في كلِّ حالٍ.

(4) الساعة 10.13، ليلة الخميس 29 من الحجة 1427، 8/ 1/ 2007.

(5) الساعة 6.45، قبل العشاء، الإثنين 15 من المحرم 1428هـ، 29/ 1/ 2007م.

2 - فـــائدة

في

قـولِه تعالى: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾(1)

كيف قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بينما الكفاية - في نَظَرِنا نحن البشرِ - تحتاجُ العزةَ، والقوةَ؟

والجـوابُ:

لمَّا قال سبحانه: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ عُلِمَ أنَّ الكفايةَ حاصلةٌ على أحسنِ الـوجـوهِ؛ لأنَّ اللَّهَ هـو: ﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: 58] ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [فاطر: 44]، فـهـو سـبـحـانـه ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129]؛ هذا لازِمُ كونِه ﴿ٱللَّهُ﴾.

ثم، إنَّ ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ حاصلةٌ بأحدِ **ثلاث** طُرُقٍ:

1 - إمَّا أن يَصرفَ اللَّهُ أذاهم عن نبيِّه صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم، ومَنِ اتَّبَعَه.

2 - وإما أن ينصُرَ نبيَّهُ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم، ومَنِ اتَّبَعَه

3 - وإمَّا أن يُنزِلَ عليهم عَذابَهُ، بدونِ قتالٍ، فيَرُدَّ كَيْدَهم في نُحُورِهِم.

---

(1) [البقرة: 137].

فالكفايةُ حاصلةٌ بأيٍّ واحدٍ من هذه المذكورات.

لكنَّه - سبحانه - ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لِدُعاءِ أهلِ الإيمانِ، بطلبِ الكفايةِ، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحاجاتِهم، وتذلُّلِهم إليه سبحانه، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بمكائدِ أولئك الكافرين، وهي خافيَةٌ على أهلِ الإيمانِ؛ لأنَّه قد ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىۡءٍ عِلۡمًا﴾ [طه: 98]، فسبحانه من سميعٍ، وسبحانه من عليمٍ. واللَّهُ أعلم[1].

* * * * *

(1) الساعة 10.00 صباح الخميس 3 رمضان 1426هـ ، 6/ 10/ 2005م.

3 - فـــائدة

في

قـوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[1]

صـدرُ الآيـة ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾، «كـلُّ أهـلِ ديـنٍ ومـلةٍ لـهـم [وجهةٌ يتوجهون إليها في عبادتهم»[2]، كما جاءهم به رسولُهم، من عندِ اللَّهِ.

«وليس الشأنُ في استقبال القبلةِ؛ فإنَّه منَ الشرائع التي تتغيرُ بها الأزمنة والأحوالُ، ويَدخُلُها[3] النسخُ، والنقلُ من جهةٍ إلى جهة.

ولكنَّ الشأنَ كلَّ الشأنِ في امتثالِ طاعةِ اللَّه، والتقرُّبِ إليه، وطلبِ الزُّلفى عنده. . . . . »[4].

«والأمرُ بالاستباقِ إلى الخيراتِ»[5]؛ في ﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ قَدْرٌ زائدٌ على فِعْلِ

---

(1) [البقرة: 148].

(2) في الأصل: «له وجهةٌ يتوجه إليها في عبادته» بإفرادِ الضمائر - ولعله على اعتبار الدين، أو إفراد لفظ «كل». لكنْ، لا أراه صوابًا، أو أنَّ فيه بُعدًا؛ ولذلك غيَّرتُه.

(3) «تفسير السعدي» (55).

(4) أي: القبلة، بدليل: «وتتغير من جهة إلى جهةٍ». ويُحتمل عَودُ الضمير على «الشرائع»، ويكون معنى «من جهةٍ إلى جهةٍ»: من حالٍ إلى غيره، كما في تغييرها من أمرٍ إلى نهيٍ - مثلاً - والعكس.

(5) «تفسير السعدي» (55).

الخيرات؛ فإنَّ الاستباقَ إليها يتضمن فِعلَها، وتكميلَها، وإيقاعَها على أكملِ الأحوال...»[1].

كذا قال - رحمه اللَّه تعالى - وهو كلامٌ جيِّدٌ، متينٌ.

هذه الأولى.

أما الثانية: فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ في سياق الردِّ على ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ [البقرة: 142] إنما هو من جنس قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة: 189]، فجاء الجوابُ: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[2]؛ هذا ما يخصُّكم من شأنِها، في زمانِكم هذا، الذي تعيشونَ فيه.

ثمَّ، نقلَهم اللَّهُ تعالى - مباشرة - إلى ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾[3] وفيه نهيٌ، وأمرٌ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[4].

فتسليمُكم بالأوَّلِ[5]، وامتثالُكم للثاني[6] إنما هو سببُ فلاحٍ. وهذا توجيهٌ منَ اللَّهِ تعالى، وإرشادٌ.

وكذا، الآيةُ التي معنا، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ حدَّد اللَّهُ تعالى هذه الوِجْهةَ، وبيَّنها في شرعِ كلِّ أمةٍ.

---

(1) «تفسير السعدي» (55).
(2) «تفسير السعدي» (55).
(3) نفس الآية السابقة.
(4) السابقة.
(5) وهو اقتصارُكم على ما يَخصُّكم من شأنِ الأهلةِ.
(6) النهيُ والأمرُ في ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ﴾.

﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾؛ يجب عليه ذلك، ما دامَ قد آمَن، فلا رأْي له، ولا اختيارَ في شأنِ القبلةِ، أو الوِجهةِ، سواءً كانت قبلةَ الصلاةِ، أو مُجملَ الشِّرعةِ المنزَّلةِ؛ فكلُّ ذلك ليس ممَّا يهتدي إليه العقلُ.

«ليس الشأنُ في استقبال القبلة»[1]، أي: ليس أمرُ تحديد الجهةِ مَوْكُولاً إلى اختيارِكم، ولَسْتُم مسئولين عن ذلك، إنما ستُسألون عن الاستسلامِ. «ولكنَّ الشأن كلَّ الشأنِ في امتثالِ طاعةِ اللَّه، والتقرُّبِ إليه»[2].

هذا الامتثالُ هو الذي لكم فيه اختيارٌ، وكسبٌ، وهذا الذي ستُسألونَ عنه بين يَدَي اللَّهِ تعالى،

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، هذا الذي يجب أنْ تنشغِلُوا به، وتتوقفوا عنده؛ لترَوا كيف تُحقِّقونَه، وما الذي تستطيعونه منه.

«والأمرُ بالاستِباقِ قَدْرٌ زائدٌ على فِعلِ الخَيراتِ؛ فإنَّ الاستباقَ يَتضمنُ فعلَها»[3]؛ إذ لابدَّ لكلِّ مُسابقٍ إلى أمرٍ ما أن يكون قد عَرَفَه، وعمِلَ به، واعتادَه قبل ذلك، وإلَّا لما استطاع المسابقةَ.

هذا، واللَّه أعلم[4][5].

* * * * *

(1) «تفسير السعدي» (55).

(2) السابق.

(3) «تفسير السعدي» (55).

(4) وكأني شرحت كلامَ الشيخ - رحمه اللَّه تعالى - ولم أزِدْ.

(5) الساعة10.45، ليلة الخميس 29 من ذي الحجة 1427هـ ، 18/ 1/ 2007م.

4- فـــائدة

في
قـولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1]

أوَّلُ الآيـة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾، فـلمـاذا خـصَّ الصابرين في ختامها دونَ المصلين؟

والجـوابُ:

لمَّا كان الصبرُ ثلاثةَ أنواع:

1 - صبرٌ على الطاعةِ.

2 - وصبرٌ عنِ المعصيةِ.

3 - وصبرٌ على أقدارِ اللَّه[2].

ولمَّا كانت الاستعانةُ بالصلاة أداءَها بشروطها، والمداومةَ عليها. ولما كان منَ المعلومِ أنَّ المداومةَ على الشيء تحتاج إلى الصبرِ، الذي هو حبسُ النَّفسِ، لما كان ذلك كذلك كان الصبرُ أعظمَ مرادٍ في الآيةِ، فناسَب أن تُختَمَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[3]، بعد أنْ قُدِّمَ الصبرُ على

(1) [البقرة: 153].
(2) انظر مثلاً: «مدارج السالكين» (2/ 164 - 168)، و«تفسير السعدي» (57).
(3) الساعة 7.25 صباح الإثنين 12/ 7/ 1425هـ ، 30/ 8/ 2004م.

الصلاة في أولِ الآيةِ.

وما هذا إلَّا لعظيمِ منزلةِ الصبرِ وحاجةِ كلِّ العباداتِ إليه، قبل الدخولِ فيها، وفي أثنائِها.

أمَّا قبلَ عملِ العبادةِ، أوِ الدخولِ فيها؛ فإنَّ العبدَ يحتاجُ إلى أمرينِ:

الأول: مجاهدةُ نفسِه لِفِعْلِ الطاعةِ.

الثاني: مجاهدةُ نفسِه في محاولةِ تخليصِ نِيَّتِه للَّه تعالى؛ فإنَّ اللَّهَ تعالى لا يقبلُ من العَمَلِ إلَّا ما كان خالصًا لوجههِ الكريم؛ كما ورد في الحديثِ القدسيِّ الصَّحيحِ: «أنا أغنى الشركاءِ عنِ الشركِ»[1].

وأمَّا في أثناءِ العبادةِ، فإن العبدَ يحتاجُ إلى أمرين أيضًا:

الأول: مجاهدةُ نفسِه على الاستمرارِ فيها، حتى يُتمَّها.

الثاني: مجاهدةُ نفسِه - أيضًا - لئلَّا تختلطَ النيةُ فيها؛ فإنَّ بعضَ الاختلاطِ يُبْطِلُ النِّيَّةَ، فيَحبَطُ عملُه[2].

وكلُّ ذلك يحتاجُ إلى الصبرِ، حتى إنه لا يَتِمُّ إلَّا به.

ولذلك، قال البقاعيُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - في الكلامِ على هذه الآيةِ[3]: «لما كانتِ الصلاةُ لا تقومُ إلَّا بالصبرِ اقتُصِر[4] على التعليلِ به».

---

(1) «صحيح مسلم»، باب من أشرك في عمله بالله.

(2) «جامعُ العُلوم والحِكَم»، مثلاً (ص14، 15).

(3) «نظمُ الدُّرَر في تَناسُبِ الآياتِ والسُّورِ».

(4) كذا ضبَطتُها، على البناءِ لِمَا لم يُسَمَّ فاعِلُه. ويجوزُ «اقتَصَر»، على تقدير حَذْفِ لفظِ الجلالةِ.

تنبيـهٌ أولُ: لاحِظ قولَه - رحِمَه اللَّهُ تعالى: «لا تقومُ إلا به»؛ وما ذلك إلَّا لعظيم شأنِ الصبرِ في الصلاةِ.

تنبيـهٌ ثانٍ: قولُه - رحِمَه اللَّهُ تعالى: «التعليلِ به»، على أنَّ معنى الآيةِ: «استعينوا بالصبرِ والصلاةِ فإنَّ - أو لِأنَّ - اللَّهَ مع الصابرين».

وهذا معنًى صحيحٌ. واللَّهُ أعلمُ[1].

* * * * *

(1) الساعة 11.32 قُبيل ظهر السبت 29 من القعدة 1431هـ، 6/ 11/ 2010م.

5 - فـــائدة

في

قـولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾[1]

الآيـة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ ثـم ذكـر مـن أحـكـامِهـمـا، وتـلاه ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾، و﴿ٱلْعَفْوَ﴾ هـو «الـذي لا تـتـعـلقُ بـه حاجتُهم، وضرورتهم[2]»[3].

هذه أحكامٌ، فما علاقتها أو مناسبتُها لـ ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾؟

الجـوابُ:

قال الشيخُ السعديُّ - رحمه اللَّه تعالى -:

«أي: الدالَّاتِ على الحقِّ، المحصِّلاتِ للعلمِ النافعِ والفُرقانِ»[4].

وقال الشيخ/ أحمد شاكر - رحمه اللَّه تعالى -: «أي: كما فصَّل لكم هذه الأحكامَ، وبيَّنها، وأَوضحَها، كذلك يبين لكم سائر الآيات في حكامه، ووعدِه، ووعيدِه»[5].

(1) [البقرة: 219، و242] ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.
(2) وهو عامٌّ في الزكاة، والصدقة.
(3) «تفسير السعدي» (81).
(4) السابق.
(5) «عمدة التفسير» (1/ 237).

قلـتُ: كلُّ هذا حقٌّ، وكلامٌ جيِّدٌ.

لكنْ، لا أرى المناسبةَ فيه مذكورةً، أو أنها ليست ظاهرةً.

والذي يتراءى لي - واللّهُ أعلم بمرادِه - أنَّ ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ بعد ذِكرِ بعضِ الأحكامِ وَتِلْوَها، أنَّ هذا دالٌّ على أنَّ الأحكام إنما هي بنفسِها آياتٌ[1]، دالَّةٌ على وحدانيةِ اللّهِ تعالى، وعلى أسمائه الحسنى، وصفاتِه العُلَى.

ودِلالةُ الأحكامِ هذه إنما هي كدِلالةِ الآياتِ الكونية، كمِثلِ خَلْقِ كلِّ مُفرَدَةٍ من مفردات ومكوِّناتِ هذا الكون.

ترى هذه الدِّلالةَ في:

1 - مطْلَقُ التشريع، دالٌّ على أنَّه الخالق، المالك، مثلاً.

2 - مجملُ التشريع، دالٌّ على ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: 36].

3 - شموليةُ التشريع لكلِّ شئونِ حياةِ الإنسانِ، في الدنيا، والآخرةِ دالٌّ على ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: 98].

4 - مفرداتُ التشريع وتفاصيلُه، دالَّةٌ على أنَّه الرحمن، الرحيم، ﴿لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: 19].

---

(1) وقريبٌ منه قول القاسمي - رحمه اللّه تعالى - «تفسير القاسمي» (2/155): «﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: الأمر والنهي»، لكنه زاد «وهَوَانَ الدُّنيا».
قلت: ولا أدري وجهَ هذا الأخيرِ.

فالأحكام آياتٌ، وهذه بعضُ دِلالاتِها.

ودِلالاتُ الأحكام على وحدانيةِ اللَّهِ تعالى، وعلى أسمائِه الحُسنى، وصفاتِه العُلى دِلالاتٌ بديعةٌ، مع لُطفِها.

هذا، واللَّه أعلم[1].

تذييــــلٌ

وورود ﴿ٱلْآيَـٰتِ﴾ بمعنى الأحكام، أو الأمر والنهي لم ينحصِر في هذا الموضِع[2] فقط، بل هو مكرورٌ في مواضِعَ عدةٍ منَ القرآنِ[3].

* * * * *

(1) الساعة 11.39، ليلة الخميس 29 من الحجة 1427هـ، 18/ 1/ 2007م.

(2) [البقرة: 219].

(3) الساعة 8.47 صباح الخميس 6 من المحرم 1428هـ، 25/ 1/ 2007م.

6 - فـــائدة

في

قــولِه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]

الآيةُ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، حَثٌّ على الإنفاقِ؛ الواجبِ والنَّفلِ. فما المناسبةُ؟

والجـوابُ: قد قال الشيخُ/ السعديُّ - رحمه اللّه تعالى -: «ولا يَظن[2] أنَّه[3] ضائعٌ. بل، مَرجعُ العبادِ كلِّهم إلى اللّهِ، فيجِدُ المنفقون والعاملون أجرَهم عنده خيرًا، أحوجَ ما يكونون إليه»[4].

وأقـول، زيادةً، وإيضاحًا:

بعدَما حثَّ اللّهُ تعالى عبادَه على الإنفاقِ بهذا الاستفهامِ في أوَّلِ الآيةِ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أكَّده بمؤكِّداتٍ:

1 - ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾، واللّه هو الغنيُّ عن كلِّ خلقِه. ونحن نرى كلَّ الناسِ - في الدنيا - يتمنى لو تقرَّب إلى غنيٍّ، وللّهِ المثلُ الأعلى، واللّهُ هو

---

(1) [البقرة: 245].

(2) المنفق.

(3) ما أنفق من مالٍ، أو غيره.

(4) «تفسير السعدي» (89).

الحميدُ، الذي يَحمَدُ لعبادِه طاعتَهم، ويشكرُ لهم، ويزيدُهم.

2 - ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ محمودًا، يُحمَدُ صاحبُه.

3 - ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ وكلُّ النَّاس يطمعُ في الزِّيادة، فكيف إذا كانت أضعافًا.

4 - ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، فليست مجرَّد مضاعفةٍ، وليست أضعافًا معدودةً. بل، ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾؛ بغيرِ عَدٍّ، ولا حَصْرٍ.

ثم، زاد اللّه تعالى كلَّ هذه المؤكداتِ تأكيدًا:

5 - ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾، فالذي يدعوكم للإنفاق، وأكَّد لكم حسنَ الثواب هو الذي يُعطي ويَمنعُ، ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: 26]؛ فلو شاء ما أعطاكمُ المالَ أصلًا، ولو شاء زادكم؛ ولو شاء أنقصَكم، ولو شاءَ سَلَبكم إيَّاه ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(1).

وهو - سبحانه - مع كلِّ ذلك يدعوكم.. يحثُّكم على الإنفاقِ، فبأيِّ عذرٍ تتخلَّفون؟! أفلا تستحون؟!

6 - ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ استمرارٌ، وزيادةٌ في التأكيد؛ فإنَّ ما تنفقون ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: 20].

ثم، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فيحاسبَكم على ما امتثلتُم، أو قصَّرتُم؛ فليس عملُكم في الدنيا فقط، أوْ لها.

---

(1) [المائدة: 17] مثلًا.

وأيضًا:

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فلا مَفَرَّ ولا مَهْرَبَ.

فكيف ستواجهون مثلَ هذا الموقفِ، وبمَ ستعتذرون أو تُجيبون، إن قصَّرتم، أو لم تمتثلوا؟!

فجاءت ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ زيادةَ تأكيدٍ، مع ما تتضمنه منَ تحذيرٍ، ووعيدٍ.

والله أعلم[1].

* * * * *

(1) الساعة 12.47، ليلة الخميس 29 من الحجة 1427هـ، 18/ 1/ 2007م.

7 - فـــائدة

في

قــولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾[1]

الآيةُ: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ﴾، فيـهـا ثـلاثـةُ أبوابٍ من أبواب البرِّ والإحسانِ. وفيها تفضيلُ بعضِ المذكورِ على بعضٍ، ففيها حثٌّ للعبادِ على البرِّ بأنواعه، وعلى التسابق فيه.

وقد جاءتْ هذه الآيةُ ثالثةً ضمن أربع عشرة آيةً[2]، تبدأ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ الآيـة، وتـنـتـهـي ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الآية.

وهذا المقطعُ بكاملِهِ في فضلِ النفقةِ، وحُسنِ جزاءِ أهلِها، وذِكرِ بعضِ آدابِها، وما يجبُ أنْ يُجتنبَ فيها، معَ ضربِ الأمثالِ لذَلك.

حتَّى ما جاء في أثناء ذلك من قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ﴾ [البقرة: 269] فإنه مُتعلِّقٌ بالحثِّ على النفقةِ؛ لأنها[3] نوعٌ من رزقِ اللَّهِ لعبادِهِ، لكنها من أعلى أنواعِ هذا

---

(1) [البقرة: 263].

(2) [البقرة: 261-274].

(3) الحكمةُ.

الرِّزقِ، أو أعلاها؛ لأنَّ بها تصريفَ الأمورِ، ومن ذلك، وَضْعُ المالِ في محلِّه؛ وبأدبِهِ الذي حثَّ اللَّهُ عليه.

ولذلك، خُتِمَتْ هذه الآيةُ ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾؛ «فهمُ الذين يعرفون النافعَ فيعملونه، والضارَّ فيتركونه»[1].

وكذلك، قولُه تعالى قُربَ أواخِرَ المقطع ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: 272]، ليس خارجًا عن أمرِ الحثِّ على النفقةِ؛ فمعناه «إنما عليك - أيها الرسولُ - البلاغُ، وحثُّ الناسِ على الخير[2]، وزجرُهم عنِ الشرِّ[3]، وأمَّا الهدايةُ[4] فبِيَدِ اللَّهِ تعالى[5]»، وَحْدَه.

تنبيهٌ:

وأراه ليس بخافٍ ما في ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾ و﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾، أراه ليس بخافٍ ما فيهما من قضيةٍ عامةٍ، لكنَّ حديثي هنا إنما هو عن علاقتِهما بهذا المقطع، الذي ذُكرا فيه. فليُعْلَمْ.

قلتُ:

فلمَّا كان كلُّ هذا المقطعِ المذكورِ في الحثِّ على النفقةِ، ناسَبَ ﴿وَٱللَّهُ

---

(1) «تفسير السعدي» (96).

(2) بكلِّ أنواعه، ومنها الإيمان باللَّه تعالى، وما يترتَّب عليه من تكاليف؛ منها النفقةُ في سبيلِ اللَّهِ.

(3) ومنه ما قد يصاحبُ النفقةَ من مَنٍّ وأذى، كما يفعلُه بعضُ الناسِ.

(4) سواء كانت على إطلاقِها، أو فيما يخصُّ فِعلَ الخيرِ، والنفقةَ.

(5) انظر: «تفسير السعدي» (96).

﴿غَنِيٌّ﴾؛ غنيٌّ عن كلِّ تلك النفقاتِ، بكلِّ أحوالِها، لا ينالُه منها شيءٌ ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: 37].

وهذا بيِّنٌ ظاهرٌ، فإنَّه سبحانه غنيٌّ عن عبادِهِ أجمعين، أَفَلا يكون غنيًّا عن نفقاتهم، على أيِّ حالٍ كانت، وبأيِّ قَدْرٍ كانت؟!

وأمَّا ﴿حَلِيمٌ﴾ بعد ﴿غَنِيٌّ﴾؛ فلأنَّ مِنَ العبادِ ﴿مَّن يَبْخَلُ﴾ [محمد: 38]، فلا يُنفقُ أصلاً.

وإنَّ مِنَ العباد مَن يُخالف في ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 267][1]؛ فإنَّ «اللَّه طيِّبٌ لا يقبلُ إلَّا طيِّبًا»[2].

وإنَّ مِنَ العبادِ مَن يخالفُ في ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: 264][3].

ومع كلِّ تلك المخالفات، فإنَّ اللَّه تعالى: ﴿حَلِيمٌ﴾؛ لا يُعجِّلُ العقوبةَ لأحدِ أولئك المخالفين في أمْرِ النَّفقةِ، أو في غيرِه، عساهُم يتوبون، وإلى ربِّهم يُنيبونَ. واللَّهُ أعلمُ بمُرادِهِ[4].

* * * * *

(1) نفس المقطع.
(2) صحيح. مسلم عن أبي هريرة - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنه.
(3) نفس المقطع.
(4) الساعة 7.15 بعد عشاء الثلاثاء 29 من شوال 1427هـ ، 21/ 11/ 2006م.

اســـتدراكٌ أو تَذْيـيـــلٌ

في

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[1] و﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾[2]

قد سبق[3] بيانُ مناسبةِ كلٍّ منهما لآيتِه، وللسياق.

ثم أقول:

قد وردت صفةُ (حليم) في القرآن في إحدى عشرة آية، من تِسعِ سُوَرٍ.

وبيانُها كالتالي:

1 - البقرة (3) مرات: (225، 235، 263).

2 - آل عمران مَرَّةً: (155).

3 - النساء مَرَّةً: (12).

4 - المائدة مَرَّةً: (101).

5 - الإسراء مَرَّةً: (44).

6 - الحج مَرَّةً: (59).

---

(1) [المائدة: 101].

(2) [البقرة: 263].

(3) حَسْبَ ترتيبِ كتابةِ هذه «الفوائد»؛ فإنها لم تُكتبْ مرتبةً.

7 - الأحزاب مَرَّةً: (51).

8 - فاطر مَرَّةً: (41).

9 - التغابن مَرَّةً: (17).

ولو نظرنا في اشتراكِ هذه الصفةِ مع غيرِها لوجدناها اشتركت مع ﴿غَفُورٌ﴾ في (6) آيات من (5) سور[1].

واشتركت مع ﴿عَلِيمٌ﴾ في (3) آيات، هي آياتُ النساء، الحج، والأحزاب.

واشتركت مع ﴿غَنِيٌّ﴾ مرةً واحدةً، في الموضع الثالثِ منَ البقرة[2].

واشتركت مع ﴿شَكُورٌ﴾ مرةً واحدةً، في آيةِ التغابنِ.

فاللّه سبحانه ﴿غَنِيٌّ﴾ [البقرة: 263] عن عبادِه؛ لأنه خالقُهم. أفَلا يكون غنيًّا عن نفقاتِهم إنِ امتثَلُوا أمرَه، وأنفقوا؟!

وهو مع ذلك ﴿شَكُورٌ﴾ [التغابن: 17] يشكرُ لعبادِه طاعاتِهم، ويثيبُهم عليها، ويشكُرُ لهم نفقاتِهم، ويُضاعفُها لهم.

﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾؛ فالمغفرة زيادةٌ في شكرِ الصَّنيعِ.

وما ذلك إلّا لأنّه ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالِ عبادِه، وبافتقارِهم إليه سبحانه، فأنزل

(1) هي: [البقرة: 225، 235] آل عمران، المائدة، الإسراء، وفاطر.

(2) الآية (263) (ص16-18).

إليهم شرعًا يضبِطُ حياتَهم في أخصِّ شُئونِهم. ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ [النساء: 12].

﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [الأحزاب: 51].

فهو سبحانه ﴿عَلِيمٌ﴾ بمَن يمتثل أمرَه، ومَن يُقصِّرُ، ومَن لا يمتثِلُ، ولماذا لم يمتثلْ أمرَ اللَّهِ تعالى.

وأمَّا مَنِ امتثل أمرَ اللَّهِ بغيرِ ما تقصيرٍ ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ [الحج: 59].

أمَّا مَن قصَّرُوا، ولم يُسارعوا إلى الامتثالِ فإنَّه ﴿غَفُورٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 155].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: 101][1].

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: 44][2].

وكذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: 41].

---

(1) وانظر (ص74).

(2) وانظر: «مختصر النبراس» (ص207).

فاللَّهُ تعالى مع أنه ﴿غَنِيٌّ﴾ [البقرة: 263] عَن عبادِه إلَّا أنَّه ﴿شَكُورٌ﴾ [التغابن: 17] يشكُرُ لهم، ويزيدُهم.

ومع أنه سبحانه ﴿عَلِيمٌ﴾ [النساء: 12] بتقصير عبادِه إلَّا أنه ﴿غَفُورٌ﴾ [البقرة: 225، 235]، دائمُ المغفرةِ، يغفرُ للعبد «مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»[1]، ويقبلُ التوبةَ «حتى تَطْلُعَ الشمسُ من مَغْرِبِها»[2].

ومع كلِّ ذلك فإنه سبحانه ﴿حَلِيمٌ﴾[3]؛ لا يُعاجِلُ بالعقوبةِ. لكنْ ﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل: 61] سَبَقَ به علمُ اللَّهِ، فهو مكتوبٌ في اللوحِ المحفوظِ، منذ أنْ قال اللَّهُ تعالى للقلم: «اكتب»[4].

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: 61].

ولعله بهذا البيانِ قد اتضح أمران:

الأول - مناسبةُ ﴿حَلِيمٌ﴾ لكلِّ آيةٍ ذُكِرَت فيها.

الثاني - مناسبةُ ﴿حَلِيمٌ﴾ لكلِّ ما ذُكر معها منَ الصفات: ﴿غَنِيٌّ﴾، ﴿شَكُورٌ﴾، ﴿عَلِيمٌ﴾ و﴿غَفُورٌ﴾. واللَّهُ أعلمُ.

ولِلَّهِ الحمدُ على ما مَنَّ به، ووفَّقَ[5].

---

(1) **صحيح**. البخاري.

(2) **صحيح**. متفق عليه.

(3) الآيات الإحدى عشرة المذكورة.

(4) **صحيح**. أبو داود.

(5) الساعة 8.28 بعد عشاء الأحد 4 من الحجة 1427هـ ، 24/ 12/ 2006م.

تنبيـهٌ أوَّلُ:

لعله منَ الوضوح بمكانٍ أني إنما قصدتُ إلى استقصاءِ صفةِ (حليم) حيثُ جاءت في القرآن صفةً للَّهِ تعالى.

أما ما كان منها وصفًا للبشرِ - على قِلَّتهِ - فليس داخلًا في هذا البحث.

تنبيـهٌ ثانٍ:

يتصلُ هذا الاستدراك بالكلام على آيةِ المائدةِ (101)[1]، الإسراء (44)[2].

* * * * *

(1) (ص74).

(2) مختصر النبراس (ص207).

8 - فـــائدة

في

قـولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]

كيف ناداهم اللّه - جلَّ في عُلاه - باسمِ الإيمان ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ثم ختمَ بقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؟

والجـوابُ:

إنه لما كان امتثالُ أمرِ اللّهِ ونهيِهِ علامةً على صحَّةِ الإيمانِ وتمامِه، ودليلاً على ذلك، جاء قولُه تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ فالأعمالُ إيمانٌ؛ كما قال تعالى في شأنِ الصلاةِ[2] ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: 143].

قلـتُ:

وهذا[3] كثيرٌ في القرآن، كقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ﴾ [النور: 2].

فإنما الخطابُ للمؤمنين؛ لِأنهمُ الذين يُقيمون حدودَ اللّهِ. ويَدُلُّ عليه قولُه

(1) [البقرة: 278].

(2) بعد تحويل القبلة، كما أخرج ذلك البخاري - رحِمَه اللّهُ تعالى.

(3) استعمالُ عبارةِ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ - وما أدى معناها - في آخرِ الآيةِ، أو أثنائِها.

تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فدلَّ على أنَّ إقامةَ الحدِّ إيمانٌ.

فقولُه تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، في مثلِ هذا الموطنِ، يُرادُ به: «إن كنتم مؤمنين حقًّا»، أو: «إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان» فامتثلوا هذه الأوامر.

واللّه أعلم[1].

* * * * *

---

(1) الساعة 7.45 صباح السبت 28 شوال 1425هـ ، 11/12/2004م.

سورة آل عمران

1 - فــائدة

في

قــولِه تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ﴾(1)

الخلافُ في الوقفِ على لفظِ الجلالةِ، أو وصلهِ بما بعده قديمٌ مشهورٌ.

قلتُ:

لكني أرى في الوصلِ إشكالاً، يقعُ لنا في عَوْدِ واو الجميع من قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾؛ فإنَّه حتمًا راجعٌ إلى ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾، ولكنْ كيف نفصِلُهم بعدَ إذ وصلناهم بلفظِ الجلالةِ؟

معنى ذلك أنَّه إذا وقَفْنا على ﴿ٱلْعِلْمِ﴾ وبدأنا بـ ﴿يَقُولُونَ﴾ فَعلَى مَن يَعودُ الضميرُ فيها؟

يَصعُبُ أن يُقال بعَوْدِه على ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ وحْدَهم، رغم الاتفاق على أنهمُ القائلون. ولا يجوزُ تَوَهُّمُ غيرِ ذلك.

إنَّما الفصيحُ إذا أردنا ذلك أن يُقال: «ويقول هؤلاء الراسخون في العلم...» وليس ذلك في سياقِ القرآنِ.

---

(1) [آل عمران: 7].

كذلك يقع الإشكال في عودِ الضمير في قوله تعالى: ﴿بِهِۦ﴾، فعلى القولِ بالوصلِ، الضمير للقرآنِ.

قلـتُ:

فما فائدة قولِهِ تعالى بعده: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾؟

والمقصودُ، أنَّهم إنْ كانوا ممن ﴿يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ فما فائدةُ قولِهم ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾؟

وما المُرادُ بقولِهِ ﴿كُلٌّ﴾ إذا لم يُرَدْ بها المحكَمُ والمتشابِهُ؟

وما فائدة ذِكر قولِ الراسخين في العلم بعد ذِكرِ حال ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾؟

قلـتُ: لِمَا سبق أرى أنَّ الوقفَ لازمٌ على لفظِ الجلالةِ، وأنَّ الوصلَ غيرُ جائزٍ[1]. واللَّهُ أعلمُ[2].

ويكونُ المعنى حينئذٍ: «والراسخون في العِلمِ يقولون: كلٌّ منَ المُحْكَمِ والمُتشابِهِ من عندِ رَبِّنا، جَلَّ في عُلاه».

* * * * *

---

(1) لأنّه يؤدّي معنًى غيرَ جائزٍ شرعًا.

(2) الساعة 11.05 ليل الأحد 11/4/1425هـ، 30/5/2004م.

2 - فــائدة

في

قــولِه تعالى: ﴿إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(1)

لماذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مع أنَّ الآية تدور على «العلم»؟

والجـوابُ:

إنَّ عِلمَ اللَّهِ تعالى الذي ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [طه: 98] إنما يَقَعُ على فِعلِ مُـقـتَـضَـى الـعـلـمِ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: 31].

فليس عِلمُ اللَّهِ تعالى علمًا مجردًا، إنما تترتبُ عليه أمورٌ لوازمُ، فناسَب أن تُذكر القدرةُ معه.

ثم، إنَّ الكلامَ قبلَ هذه الآيةِ كان عن مِلكِ اللَّهِ لما في السموات والأرض، وتصريفِه سبحانه له، وتَصَرُّفِه فيه ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: 26].

---

(1) [آل عمران: 29].

ثـم، ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمـران: 28]؛ نـهيٌ، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ فـخافـوه، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الـمائدة: 40] فيُحاسبُكم.

فناسَبَ ذلك ذِكرُ القدرةِ بعدَه.

وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: 40][1][2].

* * * * *

---

(1) الساعة 8.40 صباح الجمعة 28/ 1/ 1425هـ، 19/ 3/ 2004م.

(2) قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى -: «وهذا تنبيهٌ منه لعبادهِ على خوفهِ وخشيتهِ، وألا يرتكبوا ما نَهى عنه وما يَبغَضُه منهم، فإنه عالمٌ بجميعِ أمورِهم، وهو قادرٌ على مُعاجَلَتِهم بالعقوبة، وإنْ أَنظَرَ مَن أَنظَرَ منهم، فإنه يُمْهِلُ ثم يأخُذُ أَخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾.

سورة النساء

1 - فـــائدة

في

قـولِه تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾[1]

جاءتِ الضمائرُ كلُّها في الآيةِ جمعًا، وهذا يُفيدُ العمومَ.

ولكني رأيتُ فيها نكتةً، وهي أنَّ ضمائرَ الجمع في مثلِ قولِه تعالى: ﴿وَلَكُمْ﴾ و﴿أَزْوَاجُكُمْ﴾ إنَّما تفيد التعظيم لشأن الرِّجالِ؛ لأنَّهم ﴿قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: 34]، إضافةً إلى إفادتِها العمومَ.

أما الجمعُ، وضمائرُ الجمعِ في مثل قوله تعالى - في الآية: ﴿أَزْوَاجُكُمْ﴾، و﴿لَهُنَّ﴾ فإنه يُفيد - إضافةً إلى العمومِ - أنَّه إذا تعدَّدتِ الزوجاتُ فإنَّهُنَّ يشترِكن في الرُّبُعِ، أو الثُّمُنِ؛ ترتيبًا على عدمِ وجودِ الوَلَدِ أو وجودِهِ. واللَّهُ أعلمُ[2].

* * * * *

(1) [النساء: 12].

(2) الساعة 6.30 عِشاء الإثنين 7 شوال 1424هـ ، 1/ 12/ 2003م.

2 - فـــائدة

في

قــولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(1)

جاءت ختامًا لِآيتَي المواريثِ، بعد أن خُتِمتِ الأولى منهما بـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 11].

﴿عَلِيمًا﴾: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: 98] يَعْلَمُ ما يُصلِحُكم فأمَرَكُم به، ويعلم ما يُفسِدُكم فنهاكم عنه.

﴿حَكِيمًا﴾ يَضَعُ الأمورَ مواضعَها التي تُناسبُها، وتَلْزَمُ لها - كما اقْتَضَتْ حكمتُه سبحانه - فلا تتخلّفُ عنها.

ثم، قال في الثانية:

﴿عَلِيمًا حَلِيمًا عَلَيْهِمْ﴾؛ ﴿عَلِيمًا﴾ كما سبق بيانُه، وهو سبحانه - أيضًا - يعلم النِّياتِ قبلَ الأفعالِ الواقعةِ بالجوارحِ.

﴿حَلِيمًا﴾ بِكم؛ يأمرُكم برِفقٍ، رغم أنه ﴿ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: 61].

﴿حَلِيمًا﴾ يأمرُكم بما فيه صلاحُكم؛ لأنَّه اللَّهُ اللطيف بعباده.

﴿حَلِيمًا﴾ يُمْهِلُكم، ويؤخِّرُ عنكمُ العقابَ، والعذابَ، رَغْمَ سابقِ علمِه -

---

(1) [النساء: 12].

سبحانه - بما سيَقَعُ منكم مِن مخالفاتٍ لأمرِه بعد إنزالِهِ إليكم وبيانِه لكم.

﴿حَلِيمًا﴾ بكم؛ إذ لم يعاقبْكم قبل أن يُبيِّن لكم، رغمَ سَبْقِ علمِه فيكم أنكم ستخالفون، ولو عاقبَكُم بعلمِه فيكم قبلَ عملِكم ما ظلمَكُم. لكنَّ حكمته اقتضتِ التأخيرَ، ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: 23]. واللَّهُ أعلمُ[1].

* * * * *

(1) الساعة 2.00 قبل فجر الأحد 6 رمضان، 9/10/2005م.

3 - فـــائدة

في

قـولِه تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[1]

الآيةُ في تفضيلِ اللَّهِ بعضَ خلقِه على بعضٍ، وخصَّتْ تفضيلَ الرجالِ على النِّساءِ، وبيَّنتْ أنَّ هذا الفضلَ منَ اللَّهِ وحده: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ و﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

ومعلومٌ أنَّ أيَّ نوعٍ منَ التفضيلِ إنما هو رزقٌ.

فلماذا ختمَ اللَّهُ تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾، بينما كان المتوقَّعُ أن تُختمَ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: 21] أو ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37] لِظُهورِ مناسبتهِ للمقامِ؟

والجوابُ:

لمَّا كان التَّفضيلُ إعلاءً لشأنِ المفضَّلِ، ولمَّا كان لابدَّ للتفضيلِ مِن مَيْزَةٍ في المفضَّلِ، لا تكون في غيره[2].

---

(1) [النساء: 32].

(2) جنسًا، أو نوعًا، أو فردًا.

ولمَّا كان اللَّهُ تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 102].

ولمَّا كان من حكمته سبحانه - وهو الحكيمُ - أنْ ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾ [النحل: 71]، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: 165].

ولمَّا كان لا بدَّ لهذا التفضيلِ من علمٍ حقيقيٍّ، مُحيطٍ بأحقيَّةِ المفضَّلِ في التفضيلِ، وبحقيقةِ سببِ التفضيلِ.

ولمَّا كان اللَّهُ تعالى قد ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: 98]؛ لأنه العليمُ، ولأنه الخالق، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: 14]؟!!

لمَّا كان كلُّ ذلك، ناسبَ ذِكرُ العلمِ بعد ذكرِ الفضلِ. واللَّهُ أعلمُ.

تنبيهات:

التنبيهُ الأول: ذَكَرَ الشيخُ/ السعديُّ - رحمه اللَّه تعالى -[1] في معنى ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾ كلامًا معناه أنها نهيٌ عنِ الحسدِ.

قلـتُ:

ولا أراها كذلك، وإن كنتُ لا أمنَعُ تَضَمُّنَها له، لكنه لا يقدَّم في معناها.

التنبيهُ الثاني: ثم، قال - رحمه اللَّه تعالى - بعد ذلك[2]: «ولأنه[3] يقتضي السُّخْطَ على قَدَرِ اللَّهِ».

---

(1) انظر «تفسير السعدي» (141).

(2) المصدر السابق.

(3) يعني هذا التمني.

قلـتُ:

وهو معنًى صحيحٌ، وإنْ كنتُ لا أرى التضمُّنَ، بل أراه هو هو. أي أنَّ تمني ما لا يكون إنما هو اعتراضٌ، وسُخطٌ على قَدَرِ اللَّهِ.

التنبيهُ الثالثُ: ذَكَرَ اللَّهُ تعالى[1] الرجالَ والنساءَ في ثنايا ذِكرِ التفضيلِ بيانًا للمقصودِ من ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾، فدلَّ على أنَّ المقصودَ بالنَّهي إنَّما هو تَمَنِّي ما لا يكون؛ كتمنِّي المرأةِ أن لو كانت رجلًا، والعكسُ.

ولذلك قال تعالى بعدها بآيةٍ، موضِّحًا ومُبيِّنًا: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: 34].

فعَطْفُ إنفاقِ الرجالِ وما يكون من أحوالِ النساء في قوله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾[2] يدلُّ على أنَّ هذه المذكوراتِ إنما هي مما يَظْهَرُ لنا من أسبابِ التفضيلِ، لكنَّ التفضيلَ حقيقةً إنما هو بما اقتضته حكمةُ اللَّهِ تعالى؛ فضَّلَ الرِّجالَ من وجوهٍ، وفضَّلَ النِّساءَ مِنْ وُجوهٍ، ولذلك قال: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: 34].

فيجبُ أنْ نقفَ عندَ عمومِ ما ذَكرَ اللَّهُ تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[3].

التنبيهُ الرابعُ: وواجبٌ على الرجالِ أن يُحقِّقوا ما فضَّلهُمُ اللَّهُ تعالى به،

---

(1) في آيةِ النساء موضوعِ الفائدة.

(2) وكأنه من باب التفصيل بعد الإجمال، أو ذكر الخاص بعد العامِّ.

(3) نفس الآية.

وأن يقوموا به خيرَ قيامٍ.

ومن ذلك - مثلاً - ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: 34]، والمرادُ بذلك الوقوفُ عند أمرِ اللّهِ تعالى.

التنبيهُ الخامسُ: وواجبٌ على النساءِ - أيضًا - تجاهَ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أن يُعطِينَ هذا الأمرَ حقَّه منَ الإقرارِ، والتسليمِ، والرِّضى.

كما يجب عليهِنَّ أنْ يَعْرِفْنَ مواطنَ التفضيلِ التي اختَصَّهُنَّ اللّهُ تعالى بها[1]، ثم لْيَجْتَهِدن في تحقيقِها في أنفسِهنَّ، وفي إظهارها بالتعلُّمِ والتعليمِ، دونَ تعدٍّ أوِ افتئاتٍ على أمرِ اللّهِ وقدَرِه، حتَّى يَدْخُلْنَ في: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾. واللّهُ أعلم[2].

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(1) انظر: «جوانب تفضيلية للمرأة» مجلة «الأحمدية» (ع/ 16).

(2) الساعة 5.00 - توقيت عادي - قبل مغرب السبت 20 شعبان 1426هـ . 24/ 9/ 2005م.

4 - فائدة

في

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾[1]

الآية: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾.

فيها الأمرُ بعبادة اللّه، والنهيُ عنِ الإشراكِ به. وفيها - أيضًا - الأمرُ بالإحسانِ إلى الوالدين، وذي القُربى، وطوائفَ عدةٍ، وصنوفٍ مختلفةٍ منَ الناسِ، يكوِّنون المجتمعَ الذي يعيش فيه المسلمُ، ويقعون في دائرة تعاملاتِه، الأساسيِّ منها والفرعيِّ، الدائمِ والمؤقَّتِ.

ثم، يأتي هذا الختامُ اللافتُ للنظرِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾، فما المناسبةُ بينهما؟

والجوابُ: ﴿مُخۡتَالٗا﴾ «معجبا بنفسه، متكبرا على الخلق»[2]، ﴿فَخُورًا﴾: «يُثنِي على نفسِه ويَمْدَحُها؛ على سبيل الفخرِ والبَطَرِ على عبادِ اللّهِ»[3].

فهذا متكبِّرٌ، يَرَى لنفسِهِ فضلًا على الخلقِ، «ناسيًا المنعِمَ»[4].

---

(1) [النساء: 36].

(2) «تفسير السعدي» (143).

(3) «تفسير السعدي» (143).

(4) «تفسير السعدي» (597) سورة لقمان.

ولمَّا كان ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ حقًّا واجبًا؛ لأنها أمرُ اللَّهِ تعالى، ومرادُه من خلقِه، و«حقُّ اللَّهِ على العبادِ»[1].

ولمَّا كان ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾، والمذكورُ بعدَها حقوقًا للعبادِ أوجَبَها اللَّهُ تعالى، ونَدَبَ إليها.

ولمَّا كان «الكِبرُ بَطَرُ الحقِّ»[2] أي: إنكارُه، والإعراضُ عنه، «وغَمْطُ النَّاس»[2]. أي: الانتقاصُ من شأنِهم، وعدمُ تَوْفِيَتِهم حقوقَهم.

حتى قال قارون[3] كُفرًا؛ ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: 78].

ناسَب أن يكون الختامُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾[4].

واللَّه أعلم[5].

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(1) صحيح. متفق عليه، من حديث معاذ بن جبل - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنه.
(2) صحيح. مسلم، من حديث عبد اللَّه بن مسعود - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنه.
(3) وغيره.
(4) ومثله [لقمان: 18] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾.
(5) الساعة 8.25 بعد عشاء الجمعة 2 من الحجة 1427هـ ، 22/12/2006م.

5 - فـــائدة

في

قــولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[1]

الآيةُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ﴾، وفيها شَرْعُ التيمُّمِ عند فقدِ الماءِ أو العجزِ عنِ استعمالِه. فما مناسبةُ العفوِ والمغفرةِ؟

والجـوابُ:

قال الشيخ/ السعدي - رحمه اللّه تعالى -:

«﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[2] أي: كثيرُ العَفْوِ والمغفرةِ... بتيسير ما أَمَرَهم به، وتسهيلِه.. من عفوِه ومغفرتِه.. شَرَعَ الطهارةَ بالترابِ... ومن عفوه ومغفرتِه أنْ فَتَحَ للمذنبين بابَ التوبةِ والإنابةِ...»[3].

وقال الشيخ/ أحمد شاكر - رحِمَه اللّهُ تعالى -: «أي: ومن عفوِه عنكم وغَفْرِه[4] لكم أنْ شرَعَ لكمُ التَّيمُّمَ، وأباحَ لكم فِعلَ الصلاةِ به، إذا فقدتُمُ

(1) [النساء: 43].

(2) في «تفسير السعدي» ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، وهو تحريفٌ.

(3) «تفسير السعدي» (145).

(4) أي: مغفرته.

الماءَ؛ توسعةً عليكم...»[1].

قلـتُ:

قد قاربَا - رحِمَهما اللَّهُ تعالى - المعنى، أو مسَّاه مسًّا لطيفًا. وقولُهما سواءٌ.

ترى ذلك في:

1 - «من عفوِهِ ومغفرته»: الشيخ/السعدي، «من عفوه عنكم وغَفْرِهِ لكم»: الشيخ/ أحمد شاكر - رحمهما اللَّه تعالى.

2 - «بشَرْعِ الطهارةِ بالتراب»، الشيخ/ السعدي، «شَرعَ لكمُ التيمُّم»، الشيخ/ أحمد شاكر.

3 - «تيسير ما أمرَهم به»، الشيخ/ السعدي، «توسعة عليكم»، الشيخ/ أحمد شاكر.

ويُلاحَظ أنهما - رحِمَهما اللَّهُ تعالى - قد جَمَعا الكلامَ على ﴿عَفُوًّا غَفُورًا﴾، وجعلاه محصورًا في التيسير، وصورةُ ذلك التيسيرِ شَرْعُ التيمُّمِ.

قلـتُ:

أمَّا حَصْرُ معنى ﴿عَفُوًّا غَفُورًا﴾ في التيسير، فيكادُ يكونُ صوابًا، أو هو كذلك؛ إذ إنَّه مُتضمِّنٌ في كلِّ ما تتضمنُه معاني ﴿عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

---

(1) «عمدة التفسير» (١/ 458).

وأمَّا جمعُ الكلام عن ﴿عَفُوًّا غَفُورًا﴾ فلا أراه يؤدِّي المرادَ.

وأمَّا تصويرُ المعنى المرادِ بذلك في «شَرْعِ التيمُّم»، فلعله من بابِ التمثيلِ، لا الحصرِ. أو لعلَّه ذِكرُ المعنى المتعلِّقُ بهذه الآيةِ بخصوصِها.

ثـمَّ[1]، أقولُ: إنَّ ﴿عَفُوًّا غَفُورًا﴾ يشتركان في أمورٍ، ويُختصُّ كلٌّ واحدٍ منهما بأمورٍ:

أمَّا ما يشتركان فيه، فمنه:

1 - أنَّ في كلٍّ منهما قُدرةً، وغِنًى، واستعلاءً.

2 - أنَّ في كلٍّ منهما رحمةً، وتفضُّلاً؛ حيث إنَّهما من صفاتِ اللَّهِ العُلى، ويستلزمُ كلٌّ منهما الآخرَ؛ حتى يكونا كمالاً مطلقًا.

بيانُ ذلك:

1 - أنَّ تَرْكَ المعاقبةِ هو من معاني «العَفْو»، ولا يَحسُنُ هذا بغير تغطيةٍ وسَتْرٍ، وهما من معاني «المغفرة»، فهذا استلزامٌ.

2 - أنَّ تَرْكَ المعاقبةِ رحمةٌ بمَن أخطأَ، كما أنَّ السَّتْرَ على الخطأ فضلٌ.

3 - أنَّ من معاني «العَفُوّ» كثرةُ العَفْوِ، وهو كثرةُ فضلٍ، والمِفضالُ أعلى، والمِفضالُ مُستَغْنٍ، كما أنَّه قادرٌ على إيصالِ ما تفضَّل به.

(1) فاتني ذكرُ معنى «العفو»؛ فإنَّه هامٌّ، يترتب عليه هذا الكلامُ. ولم أستطِع استدراكَه.

أمّا ما يُختصُّ به كلٌّ من ﴿عَفُوًّا غَفُورًا﴾ فمن مِثلِ ما يلي:

1 - أنّ العفوَ تركٌ[1]. والمغفرة فِعلٌ.

2 - أنّ العفوَ يستلزمُ قدرةً، وإلّا كان عجزًا. أما المغفرةُ فقد لا تحتاجُ قدرةً تامَّةً.

فإذا رجعنا إلى ﴿عَفُوًّا غَفُورًا﴾، وعلاقتِهما بآية التيمُّمِ نرى:

﴿عَفُوًّا﴾ إذ وسَّع لكم في أمرِ الصلاةِ، والطهارةِ لها؛ تيسيرًا عليكم، فلم يكلفْكم بما لا تَطِيقُون[2].

ثم، ﴿غَفُورًا﴾ يَغفِرُ لكم ما لا بدَّ أنكم واقعون فيه؛ فإنَّ «كلُّ بَنِي آدمَ خَطَّاءٌ، وخيرُ الخطَّائين التوابون»[3].

فهو يغفرُ لكم، عندما تتوبون إليه، وترجعون، وتطلبون منه المغفرةَ.

كما أنّه يستُرُ عليكم، قبلَ أن تتوبوا. وهذا - أيضًا مغفرةٌ.

و﴿كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾، تحقيقٌ وتأكيد، واستدامةٌ، وتكثيرٌ، ففيه إطماعٌ.

أما التحقيق، ف ﴿كَانَ﴾.

وأما الاستدامةُ، فلأنَّه اللَّهُ، ﴿كَانَ﴾ وما زال.

---

(1) إذا كان بمعنى «عدم العقوبة».

(2) وهو هنا اشتراطُ الوُضوءِ للصلاةِ على كلِّ حالٍ، وهذا غيرُ ممكنٍ، لما قد يكون من عذرٍ (مرض - عدم ماء - خوفُ عدوٍّ... إلخ).

(3) صحيح. الترمذي من حديث أنسٍ - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنه.

وأمَّا التأكيدُ، فجمعُ ﴿عَفُوًّا غَفُورًا﴾ معًا، و﴿كَانَ﴾ قبلهما وقبلها ﴿إِنَّ﴾.

وأمَّا التكثير، فصيغة ﴿عَفُوًّا غَفُورًا﴾؛ فهو كثيرُ العفوِ، كثيرُ المغفرةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

واللّه أعلمُ. والحمدُ للّه على ما وفَّقَ[1].

* * * * *

(1) الساعة 11.15 ليلة الجمعة 30 من الحجة 1427هـ، 19/ 1/ 2007م.

تذييــلٌ

وذلك، قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: 6][1].

فقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾؛ بِفَرْضِ الوُضوءِ في كلِّ الأحوالِ، فإنَّ في ذلك مشقةً، وتكليفَ ما لا يُطاقُ، ولو شاءَه فـ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: 41] ولَما استطعتم. لكنه جعَلَ لكم في الأمرِ سَعَةً، وأباحَ لكمُ التيمُّمَ تيسيرًا، لأنَّه سبحانه ﴿كَانَ عَفُوًّا﴾.

ثمَّ، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، ظاهرًا؛ بالوضوءِ، أو الغُسلِ، أو التيمُّمِ، وباطنًا، بامتثالِ أمرِه.

وهذه رحمةٌ، وهي من لازمِ العَفْوِ، كما سبق.

﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾، بإكمالِ شرائعِ الإسلامِ، التي هي آياتٌ، ورحمةٌ منَ اللَّهِ، وسلامٌ.

وهذه هدايةٌ، ورحمةٌ، وتيسيرٌ. وكلُّ ذلك من لازمِ العفوِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾. واللَّه أعلم[2][3].

---

(1) خِتامًا لآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، وفيها صفةُ الوضوءِ، وشرعُ التيمُّم، وصفتُه، عند فقدِ الماءِ، أو عذرٍ يمنعُ من استعمالِهِ.

(2) سقط الكلام عن ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، ولم أستطع استدراكه.

(3) الساعة 9.40، بعد عشاء الجمعة 30 من الحجة 1427هـ ، 19/1/2007م.

6 -فـــائدة

في

قـولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[1]

الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾، أمرٌ بأداءِ الأماناتِ، وأمرٌ بالحُكمِ بالعَدلِ. فما مناسبةُ السمع والبصرِ؟

الجوابُ:

في الآيةِ تشريعٌ؛ حُكمانِ، الأمرُ بأداءِ الأماناتِ، والأمرُ بالحُكمِ بالعَدْلِ.

1 - وإذا كان صاحبُ الشرعِ ﴿سَمِيعًۢا﴾ لما يكون من أقوالِ عبادِه، ﴿بَصِيرًا﴾ بما يكون من أحوالِهم كان شَرْعُه حكيمًا[2].

2 - أمرُ الأماناتِ، وأَمْرُ الحكمِ بينَ الناسِ يكون فيهما كثيرٌ من المغالطاتِ، والشهاداتِ الباطلةِ. كما يكون فيهما كثيرٌ ممن لا يستطيعُ إثباتَ حقِّه.

---

(1) [النساء: 58].

(2) وهذا قول الشيخ/ السعدي - رحمه الله تعالى -: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ وهذا مدحٌ من الله لأوامره ونواهيه... لأنَّ شارعَهما السميعُ البصير، الذي لا تخفى عليه خافية» (148).

أما «عمدة التفسير» فذكر المعنى العام.

فجاءت ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ تهديدًا لأولئك الجائرين؛ أنِ احذَروا، ومواساةً لهؤلاء الضُّعفاءِ المظلومين؛ أنِ اطمئِنُّوا، فما عند اللَّهِ لا يَضيعُ..

واللَّهُ أعلمُ[1].

* * * * *

(1) الساعة 11.50، ليلة الجمعة 30 من الحجة 1427هـ، 19/1/2007م.

7 - فــائدة

في

قـولِه تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾[1]

بعضُهم يبتدئ ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ ويَزْعُمُ أنَّه يتمنى أن لو كان مع الصحابةِ - رضي اللّه تعالى عنهم[2].

ولا يجوز هذا الزَّعمُ بحالٍ؛ لأمرَين:

الأول - أنَّه لا يَدْرِي لو كان موجودًا زمانَ الصحابةِ - رضي اللّه تعالى عنهم - هل كان سيؤمِنُ أم أنه كان سيَكْفُرُ.

الثاني - أنَّ قائلَ هذه الكلمةِ كانتِ الغنائمُ همَّه «ليس له رغبةٌ ولا قصدٌ في غيرِ ذلك»[3].

فهل يَرْضَى هذا الزاعِمُ أن يكون كذلك؟

ثم، إنَّه مِنَ المتَّفَقِ عليه عند علماءِ الوقفِ والابتداء أنَّه لا يُبتَدَأُ بقولِ الكافرِ والمنافقِ. وهذا منه.

عافانا اللّهُ تعالى[4].

---

(1) [النساء: 73].

(2) سمعت هذا في السجن أيضًا (1413هـ/1992م).

(3) انظر «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (151).

(4) الساعة 9.00 ليل الأربعاء 23/10/1424هـ، 17/12/2003م.

8 - فـــائدة

في

قــولِه تعالى: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[1]

الآيــة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾، وصــفٌ، وبيــانٌ لــوِجــهــةِ كــلٍّ، ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾، «هَيَّجَ اللَّهُ[2] تعالى المؤمنين على قتالِ أعدائِهِ»[3].

﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، زيادةٌ في الحثِّ والحضِّ.

ثم، هي بُشرى بالنصر[4]؛ فإذا كان الذين كفروا ﴿أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾؛ يَستنصِرون به، ويَزعُمُون أنه ينصُرُهم، وإذا علمتم أنَّ ﴿كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، فلا بد أنَّكم منصورون، ولا بد أنَّ ذَا الحيلةِ، أوِ الكبيرِ الضعيف - في القتال - مخذولٌ؛ لأنَّه لا حيلةَ له.

ففي ذلك تقويةٌ للمؤمنين، وشدٌّ لعزيمتهم، وزيادةُ حثٍّ وحضٍّ؛ لأنَّ معرفةَ النتيجةِ مقدَّمًا، أو ما يَهدِي إليها لَهُوَ من أقوى أسباب الحثِّ، والحضِّ، وشدِّ العزمِ.

---

(1) [النساء: 76].

(2) غيرُ موجودة بالأصل، وأرى إثباتَها أنسبَ.

(3) «عمدة التفسير» (1/ 477) - الشيخ/ أحمد شاكر.

(4) لاحِظ هذا المعنى جيدًا.

قال الشيخ/ السعدي - رحمه اللَّه تعالى -: «فالشيطان - وإن بلغَ مكرُه مهما بلغ - فإنَّه في غايةِ الضَّعفِ، الذي لا يقومُ لأدنى شيءٍ من الحقِّ[1]، ولا لِكَيْدِ اللَّه لعبادِه المؤمنين»[2].

وهذا قريبٌ ممَّا أردتُ بيانَه. واللَّهُ أعلمُ[3].

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

---

(1) أي: لا يستطيعُ أن يقف أمامه، أو يقاومه، و«أدنى شيء»: أقلُّ شيءٍ.

(2) «تفسير السعدي» (152).

(3) الساعة 12.45، ليلة الجمعة من الحجة 1427هـ، 19/ 1/ 2007م.

9 - فــائدة

في

قــولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾(1)

ليس الكلامُ في هذه الآية عنِ المناسبةِ، إنما هو عنِ التفسيرِ أوِ التأويلِ، والمرادِ من كلماتِ هذهِ الآيةِ.

وليس المرادُ من كلماتِ هذه الآيةِ - أو غيرِها - وارتباطِها ببعضِها، ليس هذا ببعيدٍ عن معنى المناسبةِ. لكنه ليس هو معنى المناسبةِ الذي هو غرضُ هذا الكتابِ.

الكلامُ هنا عن المرادِ من قولِه تعالى - في هذه الآيةِ:

﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ﴾.

ما المرادُ بقولِه تعالى: ﴿كُنتُم مِّن قَبۡلُ﴾؟ وما مُتَعَلَّقُ الظرفِ ﴿مِن قَبۡلُ﴾؟

والجوابُ:

اختلفت أقوالُ المفسِّرين في مُتَعَلَّقِ الظرفِ ﴿مِن قَبۡلُ﴾، وبناءً عليه اختلف تفسيرُهم لهذه الآيةِ.

---

(1) [النساء: 94].

وهذه بعضُ أقوالِهم:

1 - **فريقٌ قال:** «كنتم كفارًا فمنَّ اللّهُ عليكم بالهدايةِ والإيمانِ»[1].

2 - **فريقٌ قال:** «كذلك كنتم من قبلِ إعزازِ اللّهِ دينَه... تَستَخْفُون بدينِكم، ... كما استخفى هذا»[2].

أمَّا سببُ نزولِ الآيةِ، فقدِ اختلفوا فيه اختلافًا كبيرًا.

فمن ذلك ما أخرجه البخاري - رحمه اللّه تعالى - في قصةِ الذي قَتَلَه أسامةُ بنُ زيدٍ - رضِيَ اللّهُ تعالى عنه - بعد أن نَطَقَ بالشهادتين. فلما عاتبه النبيُّ صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم في ذلك، وقال أسامةُ أنَّ الرجل قالها خوفًا منَ السيفِ قال النبيُّ صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم: «أَشَقَقْتَ عن قلبِهِ»[3].

ثم، وردت أحاديثُ أخرى في تحديدِ اسمِ القتيلِ. وفيها أنَّ القاتلَ غيرُ أسامةَ - رضي اللّه تعالى عنهم.

لكنَّ كثيرًا من هذه الأحاديث ضعيفٌ، أو شديدُ الضعفِ. وما صحَّ منها إلَّا القليلُ النادرُ.

---

(1) قاله الألوسي، والزمخشري، وغيرهم.قلت: ولم يصح - أو لم يرد - في هذا المعنى حديث.

(2) ذكره الطبري. واختاره ابن كثير، والنحاس، وغيرُهم.
قلتُ: وقد علَّق البخاريُّ حديثًا بهذا المعنى عن حبيب بن أبي عَمْرَةَ عن سعيد عن ابن عباسٍ - رضِيَ اللّهُ تعالى عنهما.

(3) صحيح. البخاري، من حديث أنسٍ - رضِيَ اللّهُ تعالى عنه.

ومعلومٌ عند أهلِ التفسيرِ والأصولِ - أنَّ سببَ النزولِ قد يَتَعَدَّدُ، مع تكرارِ نزولِ الآيةِ.

قلـتُ:

وليس في كلِّ هذه الأحاديث[1] ما يُفيدُ تفسيرَ معنى الآيةِ، وكلماتِها، إلَّا قولَه تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

ثم، إني لا أرى ما ذَكَرْتُه - هنا - عن بعضِ أهلِ التفسيرِ؛ إذ لا علاقةَ لكونِهم - رضي اللّه تعالى عنهم أجمعين - كانوا ضُلَّالاً ﴿مِن قَبْلُ﴾ إسلامِهم، لا علاقةَ لذلك بقوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ فإنَّ هذا الجزءَ منَ الآيةِ إنَّما هو بيانٌ - فيما أرى -لسببِ عدمِ التبيُّنِ، المخالفِ شرعًا.

كما أنه لم يكن قد وقع من أحدِهم - رضي اللّه تعالى عنهم - لم يكن قد وقع أنْ قد آمَن أحدُهم، أو نَطَقَ كلمةَ التوحيد خوفَ السَّيفِ والقتلِ[2].

لذلك، لا أرى صوابَ حَمْلِ الآيةِ على هذا المعنى.

إنما المعنى - فيما أرى، واللّه أعلمُ بمُرادِه -: «كذلك كنتم من قبل نزول هذه الآيةِ لا تتبينون»؛ استعجالاً، أو حَمِيَّةً للإسلامِ - مثلاً - أو خوفًا من هُروبِ مَن قد كان كافرًا.

---

(1) ما صحَّ منها، وما لم يصح.

(2) إذ لم يكن سيفٌ وقتالٌ؛ لأنه لم يكن قد أُذِنَ في القِتال. حتى كفارِ قريشٍ، لم يستعملوا السيفَ لإكراهِ مَن أسلَمَ على الرِّدَّةِ.

ولذلك، كرَّرَ - سبحانه - ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾؛ بيانًا، وتأكيدًا، وإلزامًا. واللَّه أعلمُ[1].

ثم، تَبيَّن لي أن قولَه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ﴾ يَحْتمِلُ إشارةً إلى قولِه تعالى قبلها: [﴿تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ أي كانت هذه هي نِيَّتَكُم في حُروبِكم، وقتالِكم - قبلَ الإسلامِ - فكنتم تُحارِبون لأدنى سببٍ، ولأقرب شبهةٍ. أمَا وقد مَنَّ اللَّهُ عليكم بالإيمان، وصار قتالُكم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فلا بد أن تُغيِّروا مِن وسائلكم؛ لتتوائَمَ مع غَرضِكم مِنَ القتال][2]؛ فإن شرفَ الوسيلةِ من شرفِ الغايةِ[3].

﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ - الأولى - فهذا واجبٌ عليكم لا مَحِيص لكم عنه، ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ - الثانية - تأكيدٌ لوجوبِ هذا الأمر. واللَّهُ أعلم[4].

* * * * *

(1) الساعة 8.35 ليلًا من يوم الإثنين شوال 1424هـ، 1/ 12/ 2003م.

(2) وقد رأيتُ هذا المعنى، أو قريبًا منه قال به صاحبُ «في ظلال القرآن»، رأيتُ ذلك بعد سَبْعِ سنواتٍ من كتابتي هذه. والحمدُ للّه على ما وفَّق وهَدَى.

(3) لا كما يقول الكافرون - ويتّبعُهم الجاهلون -: «الغاية تبرر الوسيلة» انظر «النبراس»، للمؤلف.

(4) الساعة 7.30 صباح الثلاثاء شوال 1424هـ، 2/ 12/ 2003م.

تنبيهـــاتٌ

التنبيهُ الأولُ:

قال الشيخ/ السعديُّ[1] - رحِمَه اللَّه تعالى -: «في هذا[2] إشارةٌ إلى أنَّ العبدَ ينبغي له إذا رأى دواعيَ نفسِه مائلةً إلى حالةٍ له فيها هَوَى - وهي مَضَرَّةٌ له[3] - أنْ يُذَكِّرَها[4] ما أَعَدَّ اللَّهُ تعالى لِمَنْ نَهَى نفسَه عن هواها، وقدَّمَ[5] مرضاةَ اللَّهِ تعالى على رِضا نفسِه؛ فإنَّ في ذلك[6] تَرغيبًا للنفسِ في امتِثالِ أَمْرِ اللَّهِ تعالى، وإنْ شَقَّ ذلك عليها».

قلـتُ:

فَهْمٌ ثاقبٌ، وكلامٌ جيدٌ، نفيسٌ، ونـهجٌ قويـمٌ، يجبُ أن نَعَضَّ عليه بالنواجذِ.

---

(1) «تفسير السعدي» (158).

(2) يعني قولَه تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾.

(3) أي: في نفس الأمرِ؛ كما في قولِه تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾ [البقرة: 216].

(4) يعني نفسَه.

(5) عطفًا على «نَهَى».

(6) الإشارة ، إلى مجاهدة النفس.

التنبيهُ الثاني:

قال الشيخ/ الطاهرُ بن عاشور[1] - رحِمَه اللَّهُ تعالى -: «وقد دلتِ الآيةُ على حكمةٍ عظيمةٍ في حِفْظِ الجامعةِ[2] الدينية».

قلتُ:

وَصفُه كالذي قبلَه. وللَّهِ دَرُّ الشيخِ - رحمه اللَّه تعالى.

التنبيهُ الثالثُ:

قال الزَّمَخْشَرِيُّ[3]: «﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ أَوَّلَ ما دخلتمُ في الإسلامِ، سُمِعَتْ من أفواهِكم كلمةُ الشهادةِ، فحُصِّنتْ دِماؤُكم وأموالُكم من غيرِ انتظارِ الاطلاعِ على مواطأةِ قلوبكم لألسنتِكم».

قلتُ:

قوله: «فحُصِّنَتْ دماؤكم وأموالُكم»، لا يصحُّ؛ إذ إنَّ هذا التَّحصينَ إنما يكونُ منَ المسلمين، حالَ قتالِهم للكفَّارِ.

أي أنَّ مَن عَلِمَ المسلمون منه إسلامًا؛ بظهورِ شيءٍ من دلائلِ الإسلامِ - كالأذانِ، أو نُطقِ الشهادتين - مَن عَلِمُوا منه ذلك قبلَ القتالِ فإنَّه يُعْصَمُ بذلك دَمُه ومالُه؛ لأنَّ ظاهرَه يدُلُّ على الإسلامِ.

---

(1) «التحرير والتنوير».

(2) الرابطة، التي تَربطُ أفرادَ الجماعةِ المسلمة.

(3) «الكشاف» (/1). قلت: وقد قال بمثلِ ذلك - أيضًا - بعضُ المفَسرين.

أمّا حالُ المسلمين - في أولِ إسلامِهِم - فلم يكن يَعْصِمُهُمْ شيءٌ من ذلك منَ الكفارِ. بل، كان يُعَرِّضُهُم لأذًى شديدٍ من كُفَّارِ قريشٍ.

لذلك، فإنَّ معظمَ المسلمين كان يَستخفي بذلك - قَدْرَ الإمكانِ - كما هو معلومٌ، مَشهورٌ في مَظَانِّه[1]. واللَّهُ أعلمُ.

التنبيهُ الرابعُ:

قال الألوسيُّ[2] - رحِمَه اللَّهُ تعالى -: «﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾، أي: مِثلَ هذا المُريدِ، كنتم أنتم[3] في مبادئ طلبِكم، وتسليمِ أنفُسِكم للمشايخِ، حيث كان لكم تَعلُّقٌ بالدنيا، فمَنَّ اللَّهُ عليكم بعد السُّلوكِ بتلك المغانمِ الكثيرةِ التي عنده، فأنساكم جميعَ ما في أيديكم، وفَطَمَ قلوبكم عنِ الدنيا بأسْرِها» أ.هـ.

قلـتُ:

منَ المعلومِ عند أهلِ العلم قاطِبَةً أنَّ اللَّهَ تعالى خاطَبَ بالقرآن - أوَّلَ ما خاطَبَ - النبيَّ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم ومَن آمَنَ به منَ الصحابةِ - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنهم أجمعين.

ثم، كان كلُّ مَن سلَكَ طريقَ الإيمانَ بعدَ عصرِ الصحابةِ تَبَعًا لهذا الرَّعيلِ الأولِ، داخلين في خطابِ اللَّهِ تعالى بالقرآن.

---

(1) كتبُ السيرة، وكتبُ الفقهِ، أيضًا.

(2) «تفسير الألوسي» (5، 6/ 125).

(3) الخطاب للصحابة، رضِيَ اللَّهُ تعالى عنهم.

ومنَ المعلومِ ضرورةً لِكُلِّ أحدٍ أنَّ (الطُّرقُ الصوفية)[1]، وما ابتدعَتْه من مناهجَ في العبادةِ[2]، من المعلوم ضرورةً أنَّ شيئًا من ذلك لم يكن في زمنِ النبيِّ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم، ولا صحابتهِ - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنهم - ولا التَّابعين لهم بإحسانٍ.

إذا كان ذلك كذلك فكيف يُخاطِبُ الألُوسِيُّ الصحابةَ بألفاظِ أولئك المتصوفةِ؛ «المُريدُ»، «مبادئِ طلبكم»، «تسليمِ أنفسِكم للمشايخ»، و«بَعْدَ السُّلوكِ». نعمْ، كيف ذاك؟!

كلُّ ذلك لا يجوزُ في حديثِنا عنِ الصحابةِ - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنهم أجمعين- هؤلاء الذين ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البينة: 8]. فلْيُتَنَبَّهْ.

* * * * *

(1) أصحابُ ألفاظ: «المريد، المشايخ، السلوك.. إلخ» مما ذَكَرَه الألوسيُّ في هذه العبارةِ.

(2) كهيئةٍ في العبادةِ، أو شرطٍ لها، أو عددِ ركَعاتٍ، أو تسبيحاتٍ، أو كصيغةٍ للصلاةِ على النَّبيِّ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم. وعددِ مرَّاتٍ، ووقتٍ لفعلِ شيءٍ من ذلك، مما لم يَرِدِ الشرعُ به.

10 - فـــائدة

في

قـولِه تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾[1]

وُضِعَتْ هنا علامةُ (صلي)، وهي تُفيدُ جوازَ الوقفِ، مع كونِ الوصلِ أَوْلَى.

قلـتُ:

أرى عدمَ جوازِ الوقفِ؛ لأنَّه يُفيدُ التساوي بين الفريقين فيما يترتب على القتالِ من جراحٍ وآلامٍ.

والتَّساوي - هنا - ممتنعٌ؛ لأسبابٍ:

أوَّلُها - قـولُ اللَّه تـعـالـى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: 66]. فَجَعَلَ - سبحانه - المسلمَ باثنينِ من الكفارِ، فلا بدَّ أنْ تكون الجراحُ في الكفارِ أكثَرَ.

ثانيها - أنَّه قد ثَبَتَ عنِ النبيِّ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم أنَّ الشهيدَ لا يُحِسُّ بضربةِ السَّيفِ إلَّا كقرصةٍ أو وَخْزَةٍ[2].

مما سبق نَرَى عدمَ التَّساوي في كَمِّ الجِراحِ، ولا في نوعِ الألمِ.

---

(1) [النساء: 104].

(2) حسن. الترمذي، من حديث أبي هريرة - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنه - وقال: «حسنٌ صحيحٌ».

ولذَا أرَى عدمَ صحَّةِ هذا الوقفِ؛ لأنَّ استكمال الآيةِ يُفيدُ أنَّ الاشتراكَ إنما هو - فقط - في وقوعِ الجِراحِ والألمِ في كلٍّ منَ المؤمنين والكفارِ. لكنْ، فارقٌ كبيرٌ بينهما في كمِّ الجراحِ. بل، مدى التأثُرِ، والإحساسِ بألمِ تلك الجراحِ.

والأمرُ في جانبِ المؤمنين أهونُ بكثيرٍ؛ لأنَّ رَجاءَ ما عندَ اللَّهِ يُهَوِّنُ كلَّ ذلكَ. واللَّهُ أعلمُ.

* * * * *

11 - فــائدة

في

قــولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾[1]

الآية: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فما المناسبةُ؟

والجـوابُ من وجـوهٍ:

الأول - أنّه ليس كلُّ مَن مَلَكَ يُحيطُ علمًا بوجوهِ وتصريفاتِ ما مَلَكه.

وليس كلُّ مَن مَلَكَ قادرًا على إبقاءِ ما مَلَكَ في ملكِهِ، وتحت يدهِ.

وما ذاك إلّا لأنَّ المِلكَ نوعان:

1- **مِلكٌ حقيقيٌّ**، وليس إلّا لمن خَلَقَ - سبحانه.

2- **مِلكٌ هو تسخيرٌ، وتسليطٌ منَ الغيْرِ**، فهو إضافيٌّ، وليس مِلكًا على الحقيقةِ؛ لأنّه يُمكن أن يُسلَبَ منك رغمًا عنك، سواءٌ سلَبَه الذي سخَّره، وسلَّطَك عليه، أو غيرُه.

وفي هذا النوعِ منَ الملك يَنحصرُ كلُّ ما يَمْلِكُه البشرُ.

بيانُ ذلك:

أنَّ اللَّهَ تعالى سخَّر لهمُ الكونَ بما فيه، فهم يَسِيحُون فيه، وبه يَنْعَمُون.

(1) [النساء: 126].

ثمَّ، إنه - سبحانه - قادرٌ على أنْ يَسْلُبَ من أحدِ البشرِ ما أعطاه، بل، إنَّه - سبحانه - قادرٌ على أنْ يُدمِّر كلَّ الكونِ بكلِّ ما فيه على مَن فيه.

هو - سبحانه - الذي أَعْطى، ومَنَح، وهو الذي سَلَبَ؛ فاللَّه سبحانه ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: 96] عطاءٌ منه - سبحانه - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم﴾ [الأنعام: 60] أخذَ ما أعطى.

واللَّه سبحانه خصَّ أقوامًا؛ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ [سبأ: 15] فضلٌ، وعطاءٌ.

﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ﴾ [سبأ: 16]. أخَذَ ما أعطى. بل، أبدلَهُ نِقمةً.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: 2].

مِلكٌ حقيقيٌّ، مقابلَ مِلكٍ إضافِيٍّ.

واللَّهُ سبحانه أعطاكَ المالَ؛ لأنه سبحانه ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سبأ: 39] ثمَّ يُسَلِّطُ عليك لصًّا يَسْرِقُه.

مِلكٌ حقيقيٌّ، ومِلكٌ إضافِيٌّ.

لذلك، قال الشيخ/ السعدي - رحِمَه اللَّهُ تعالى: «... فَهُم المملوكون، وهو المالكُ المتفرِّدُ بتدبيرِهم. وقد أحاط علمُه بكلِّ المعلوماتِ، وبصَرُه بجميع المبصَراتِ، وسمعُهُ بجميع المسموعات، ونفَذَتْ مشيئتهُ وقدرتُهُ في جميعِ الموجودات، ووسِعَتْ رحمتُه أهلَ

الأرضِ والسموات، وقهَرَ بعزِّه، وقهرِه كلَّ مخلوقٍ، ودانت له جميعُ الأشياء»[1].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾.

هذا - واللّهُ أعلمُ - الوجهُ الأوّلُ من مناسبةِ الآيةِ لختامِها.

الوجه الثاني من الجوابِ - قد جاءت هذه الآية ختامَ مَقْطَعٍ، تتناولُ آياتُه بعضَ أحوالِ الكافرين، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: 115]. وبيانَ قُدوَتِهم: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ [النساء: 117، 118] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: 121].

ثم، وقبلَ آيةِ هذه الفائدةِ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: 125].

ثم بَعْدَها، مَقْطَعٌ جديد[2] في بعضِ أحكامِ النساء؛ كالرغبةِ في نكاحِ ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 127]، ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ [النساء: 128]، كيف العملُ؟ وكحالِ مَن تزوّج بأكثرِ من واحدةٍ. ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ [النساء: 129].

وما تكونُ كلُّ هذه التفصيلاتِ إلّا في دِينٍ ربّانيٍّ؛ أنزله الذي خلق السموات والأرضَ، وما فيهنَّ. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14]، بل،

(1) «تفسير السعدي» (169).

(2) خمسُ آياتٍ.

﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7].

وقد أنزلَ إلينا كلَّ تلك التفصيلاتِ في كتابٍ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: 42]. وما كلُّ ذلك إلَّا لأنَّه قد ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ يُصلِحُ خَلْقَهُ، أو يَقَعُ منهم ﴿مُّحِيطًا﴾. فهو سبحانه قد نَظَمَ لكم حياتَكم، وما يكون فيها.

ومِن هذا الذي يلقاكم في هذه الحياةِ موقفُ الكافرين منكم، ومواقفُ أمثالِهم منَ المنافقين.

وقد أحاطَ اللَّهُ بكلِّ ذلك؛ لأنَّه الخالقُ، فما عليكم إلَّا أنْ تمتثلوا أَمْرَه، وتَجْتَنِبُوا نَهْيَه، وتستقيموا على شِرعَتِهِ، وهو سبحانه كافِيكُم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: 132].

كذا قال سبحانه في نهاية مقطعِ أحكامِ النساءِ، المذكورِ في هذه الفائدةِ، والذي تتلوه آياتٌ كثيرةٌ[1] في أحوالِ المنافقين، والكافرين من أهل الكتاب.

وكلُّ أولئك قد ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: 119] في خَلَواتِهم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

هذا، واللَّهُ أعلمُ[2].

* * * * *

(1) ابتداء من الآية (138).
(2) الساعة 11.25، ليل الأحد 26 من القعدة 1427هـ، 17/12/2006م.

12 - فــائدة

في

قــولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[1]

الآيــة ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾ بــعــدَ بــيــانِ أنَّ ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: 145]؛ جزاءَ جُرمِهم، وإجرامِهم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ [النساء: 146] من هذا الفعلِ الشَّنيعِ.

﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ ما كانوا أفسدوا، ثم عمِلُوا صالحًا.

﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ «والتجأُوا إليه في جَلْبِ منافِعِهم، ودَفْعِ المضارِّ عنهم»[2] فامتَثَلُوا أمْرَه، ووالَوا أولياءَه المؤمنين ﴿وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ تمحيصًا له، وتَنقِيةً.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ «في الدنيا، والبَرْزَخِ، ويومَ القيامةِ»[3].

﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾، «لا يعلم كُنْهَه إلَّا اللَّهُ؛ مما لا

---

(1) [النساء: 147].

(2) «تفسير السعدي» (174).

(3) السابق.

عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بشرٍ»[1][2].

ثم جاء التعقيبُ ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾، إنكم، وأنتمُ البَشرُ الضعفاء، الذين قد رُكِّبَتْ فيهمُ الشهوةُ[3] تَتنزَّهُون عن تعذيبِ، أو إيذاءِ مَنْ لم يُجرِم - ولِلَّهِ المثلُ الأعلى - فكيف به سبحانه و﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد: 24]؟!

كيف و﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ [الزمر: 7] جميعًا ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ [هود: 57]، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾، لكنه سبحانه ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾؛ لذلك ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾؟!

فإذا كان ذلك كذلك ف ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾؟!

بل، كيف يكونُ ذلك ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾، يَشكُرُ بالإحسانِ إحسانًا. بل، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7]، توفيقًا لمزيدٍ منَ الشُّكْرِ، مع مضاعفتِه الأجر.

ثم، يكون ذلك مع كونِه - سبحانه - ﴿عَلِيمًا﴾، يعلمُ ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: 19]، فهو مُطَّلِعٌ عليكم؛ يعلمُ مَنْ كان قلبُهُ للَّهِ خالصًا، ومَن كان غيرَ ذلك، ف ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ والحالُ أنَّكم ﴿شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾؟!

---

(1) كما صح بذلك الحديث. البخاريُّ ومسلمٌ، من حديث أبي هريرة - رضِيَ اللَّهُ عنه.

(2) «تفسير السعدي» (174).

(3) شهوةُ التَّلذُّذِ بإيذاء الآخرين، وشهوةُ التشفِّي، وشهوةُ الإذلالِ. بل، وشهوةُ التعييرِ.

بل، إنما يكونُ ثوابُه لأهلِ الشُّكرِ والإيمانِ، وعقابُه لأهلِ الكفرِ والطغيانِ، وَفْقَ علمِه فيكم؛ لأنه كان ﴿شَاكِرًا عَلِيمًا﴾، واللّهُ أعلمُ[1].

* * * * *

(1) الساعة 11.55، ليلة السبت غرة المحرم 1428، 20/ 1/ 2007م.

13 - فـــائدة

في
قــولِه تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾(1)

جاءت تاليةً لقولِه تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: 148].

فهذا ﴿ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾ لا يحبُه اللَّهُ تعالى، و﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟﴾ فهذا يحبُه اللَّهُ تعالى، فهي مقابَلَةٌ.

دَليلُ ذلك:

﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا﴾ منَ القولِ، والعملِ، فيراهُ الناسُ، ويَسمعونَه، لا بِقَصْدِ الرِّياء(2)، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ فيما لا بد من إخفائه(3)، وإلَّا كان رياءً، لا أجرَ

---

(1) [النساء: 149].

(2) كصلواتِ الفرائضِ، والحج (من الأعمال) لا بد أن يراها الناس، وكالأذانِ (من القول) لا بد أن يسمَعَه الناسُ؛ فإنَّ كلَّ ذلك لا يصحُّ فِعلهُ سرًّا.
وكذلك مَن فَعَلَ فِعلاً، أو قال قولاً، وأظهَرَه؛ ليُقتدى به إنْ كان ممن يُقتدى بمثلِهِ، كقضية حديث: «مَن سَنَّ سنةً حسنةً». صحيح. مسلم، من حديث جرير بن عبد اللَّه - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنه -. وكحديث: «مَن دلَّ على خيرٍ فَلَه مثلُ أجرِ فاعلِهِ» صحيح. مسلم من حديث أبي مسعود الأنصاري - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنه.

(3) كالصدقات، مثلاً.

لصاحبه، فإن اللَّه تعالى: «أغنى الشركاءِ عنِ الشركِ»[1].

فالخيرُ المذكورُ هنا في مقابلةِ السُّوءِ المذكورِ في الآيةِ قبلَها.

ثم، هو كذلك مقابلٌ للسُّوءِ المذكورِ معه في هذه الآية. ﴿أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ﴾ أي: لا تُعاقِبون عليه، أو لا تُقابلونَه بمثلِه، مع تردُّدِ شهوةِ الانتصارِ، والعقابِ، والتلذُّذِ بإذلالِ الضعيفِ، لو عَفَوْتُم والحالُ كذلك فقد تعبَّدتُم إلى اللَّهِ تعالى بأسمائِه، وصفاته؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾[2].

لذلك، فهو يُحب ذلك منكم.

ولهذا، قال الشيخ/ السعدي - رحِمَه اللَّهُ تعالى -: «وفي هذه الآيةِ إشارةٌ إلى التدبُّرِ في معاني أسماءِ اللَّهِ وصفاتِه، وأنَّ الخَلْقَ والأمرَ صادرٌ عنها، وهي مقتضيةٌ له.

ولهذا يُذَلِّلُ الأحكامَ بالأسماءِ الحسنى، كما في هذه الآيةِ[3]»[4].

﴿قَدِيرًا﴾؛ ف ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر: 16]، فليس الأمرُ محصورًا في قدرته تعالى على عقابِكم.

وهو مع ذلك يعفو عنكم.

لذلك، يُحبُّ اللَّهُ منكم أنْ ﴿تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ﴾. واللَّهُ أعلمُ[5].

---

(1) صحيح. مسلم، من حديث أبي هريرة - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنه.

(2) راجعها في (ص43 - 49) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: 43].

(3) وهو كثيرٌ جدًا في القرآن، كما يظهرُ في كتابي هذا.

(4) «تفسير السعدي» (175).

(5) الساعة 12.17، ليلة السبت، غرة المحرم 1428، 21/ 1/ 2007م.

14 - فـــائدة

في

قـولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1]

ما مناسبةُ ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لـ ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۚ﴾؟

والجـوابُ:

هذا من جنسِ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31]، فههنا حبٌّ بحبٍّ.

ومع ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ زيـادةُ ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾؛ لأنَّ القـاعـدة ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ﴾ [إبراهيم: 7]، وليست مجرَّدَ زيادةٍ، إنما هي ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةًۚ﴾ [البقرة: 245]؛ فليس الحبُّ كالحبِّ؛ فهذه زيادةٌ.

ثمَّ، مع الحبِّ مغفرةٌ.

ثم، وفوق كلِّ ذلك ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ﴾ [التوبة: 72].

فـ «يحصلُ لكم فوقَ ما طَلَبْتُم من محبتِكم إياه، وهو محبتُه إياكم، وهو[2]

---

(1) [النساء: 152].

(2) حبُّ الله لعبادِه.

أعظم منَ الأوَّلِ[1]»[2].

لهذا جاءت ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ ثم، ﴿رَّحِيمًا﴾.

فبرحمته خلَقَكم ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: 4]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم﴾[3]، ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ [إبراهيم: 34]، وأرسل إليكم رسولاً ﴿شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: 45]، وأنزل عليه ﴿ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ [التوبة: 36]، وقرآنا ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فصلت: 42].

ومن رحمته، أن جعلكم ﴿خَيۡرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: 110]، و﴿سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الحج: 78].

ومن رحمته، عَفْوُه عنكم، وتيسيرُ أمورِكم، وإقالةُ عَثَراتِكم.

ومن رحمته، أنْ يغفرَ لكم، ويتقبَّلَ أعمالَكم.

ومن رحمته، ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [القلم: 35].

ومن رحمته، ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 7].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

واللَّهُ أعلمُ[4].

* * * * *

(1) محبتكم لله.

(2) «عمدة التفسير» (327).

(3) [الجاثية: 13] - مثلاً - وهو كثير في القرآن.

(4) الساعة 10.18، ليلة السبت غرة المحرم 1428هـ ، 20/ 1/ 2007م.

15 - فــائدة

في
قــولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[1]

الآية: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ ، فما مناسبةُ العزةِ والحكمةِ في هذا الموضعِ؟

والجـوابُ:

قال الإمام القاسميُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى -: «﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: لا يَبْعُدُ رَفْعُهُ[2] على اللَّهِ؛ لأنه عزيزٌ، لا يُغلَبُ على ما يُرِيدُه، حكيمٌ اقتَضَتْ حكمتُهُ رفْعَه[3]، فلا بدَّ أنْ يَرْفَعَهُ. وهي[4] حِفْظُه[5]؛ لتقويةِ دينِ محمدٍ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم، حين انتهائِه إلى غايةِ الضعف بظُهورِ الدَّجالِ، فيَقْتُلَه[6]. أفاده المهايمي[7]»[8].

وهذا كلامٌ جيِّدٌ، قريبٌ من بيانِ المناسبةِ، أو هو هو؛ فإنَّ اللَّه تعالى قد

(1) [النساء: 158].
(2) نبي اللَّه، عيسى ابنُ مريم - عليه السلام -.
(3) تكذيبًا لزعمِ اليهودِ - عليهم لعائنُ اللَّهِ - أنَّهم قتلوه.
(4) أي: حكمةُ اللَّهِ في رفع عيسى - عليه السلام -.
(5) أي: حِفظُ اللَّهِ عيسى ابنِ مريم - عليه السلام - حيًّا؛ لحين إنزالِه ليقتلَ الدَّجال.
(6) يأي: فيأي: فيَقتُلُ عيسى - عليه السلام - الدجالَ.
(7) من علماء القرن التاسع الهجري، له مصنفات. «الأعلام» (7/ 193، 311).
(8) «تفسير القاسمي» (3/ 397).

قضى، وحَكَم ألَّا يُمَكِّن أولئك اليهود - عليهم لعائنُ اللَّهِ - مِن قتلِ نبيِّه عيسى ابنِ مريم؛ لحكمةٍ أرادها سبحانه، وهو أمرٌ قد سبق في علمِه سبحانه ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ﴾ [الرعد: 41]، وهو سبحانه ﴿غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف: 21]، فـ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: 44].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، لا يَمتنعُ منه شيءٌ، و«لا يُغلبُ على ما يريدُه»[1].

أمَّا قولُ الإمامِ القاسميِّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى -: «... وهي[2] حِفْظُه؛ لتقويةِ دينِ محمَّدٍ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم...»[3]، فَلَعَلِّي لا أراه، واعتراضي إنَّما ينصبُّ أساسًا على قوله - رحِمَه اللَّهُ تعالى -: «حِفْظُه» كَعِلَّةٍ لما بعدها.

نعم، قد أراد اللَّهُ تعالى حِفْظَ عيسى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - من كيدِ اليهودِ، وإرادتِهم قَتْلَه، فرفَعَه.

لكنَّ النظرَ والاعتراضَ في تعيُّنِ ﴿رَّفَعَهُ﴾ علةً لـ «تَقْوِيَةِ دينِ محمدٍ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم...»؛ عندما يَنزِلُ عيسى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قبلَ قيامِ السَّاعةِ، بشريعةِ الإسلامِ، لِيَقْتُلَ الدَّجالَ.

---

(1) «تفسير القاسمي» (3/ 397).
(2) يعني الحكمة في رفع عيسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ.
(3) «تفسير القاسمي».

أما وجهُ الاعتراضِ، فهو أنَّ اللَّه تعالى ﴿يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الحج: 6]، وليس هذا الإحياءُ في القيامةِ فقط. بل، هو ممكنٌ في كلِّ وقتٍ.

فهذا ﴿كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: 259] أحياه اللَّهُ في الدنيا.

وهذا إبراهيمُ - عليه الصلاة والسلام - لمَّا قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: 260]، قد أحيا اللَّهُ تعالى له الطيرَ بعدما ذَبَحها، وَجعَلَ ﴿عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾، كما أَمَرَه اللَّهُ تعالى.

بل، وهذا عيسى - عليه السلام - يقولُ لبَنِي إسرائيل: ﴿وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 49]، فجَعَلَ اللَّهُ تعالى إحياءَ الموتى على يدَي عيسى - عليه السلام - آيةً له.

معنى ذلك، أنَّ نُزولَ عيسى - عليه السلام - لِيقْتُلَ الدجَّالَ إنما الآيةُ فيه في مجرَّدِ النزولِ، لا تتعلَّق بها طريقةُ خروجِه منَ الدنيا؛ رفعًا، أو إماتةً.

فإذا كان ذلك كذلك فإنَّ ﴿رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ لا تتعلق بمجرَّدِ الحِفظِ، ولا تعلُّق لها ألبتةَ بنزولِه لِيقْتُلَ الدّجالَ.

بل، أرى - واللَّه أعلمُ - أنَّ ﴿رَّفَعَهُ﴾ إنما تتعلَّقُ بختام الآية ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ فـ ﴿رَّفَعَهُ﴾ هي فِعلُ العزيزِ، الذي لا يَمْتَنِعُ منه شيءٌ، أرادَها آية وتحدِّيًا، لا مجردَ حِفْظٍ، وإنْ كان هذا الحِفْظُ مرادًا، ومتضمَّنًا في ﴿رَّفَعَهُ﴾.

ملحَظ:

من عجبٍ أنْ نرى اللَّهَ تعالى يقولُ لإبراهيم - عليه الصلاة والسلام -

بعدَما أحيا له الطيرَ التي ذبحَها، وفرَّقها على رءوسِ الجبال، يقول اللَّهُ تعالى له: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 259].

فهو العزيزُ، لا يمتنعُ منه شيءٌ أراده، وإرادتُه للشيء إنما تكون لحكمةٍ؛ لأنه الحكيمُ. والحمد للّه على ما هدى[1][2].

* * * * *

(1) قد سقطت هذه الآية [النساء: 158] وشرحها من «تفسير السعدي» (177). فليُتَنبَّه.

(2) الساعة 8.50 بعد عشاء السبت في المحرم 1427هـ ، 21/ 1/ 2007م.

سورة المائدة

1 - فـــائدة

في

قـولِه تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(1)

قال الشيخُ/ السعديُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى -:

«﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميعِ الأصواتِ، باختلافِ اللغاتِ، على تفنُّنِ الحاجاتِ. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بالظواهرِ والبواطنِ، والغيبِ والشهادةِ، والأمورِ الماضيةِ والمستقبَلَةِ.

فالكاملُ الذي هذه أوصافُه، هو الذي يستحقُّ أن يُفرَدَ بجميعِ أنواعِ العبادةِ، ويُخلَصَ له الدينُ»(2).

قلتُ:

هو كلامٌ صحيحٌ. ولكنْ، لم يتعرَّضْ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - لوجهِ مناسبةِ هذين الاسمين لموضوعِ الآيةِ.

فما هذه المناسبةُ؟

---

(1) [المائدة: 76].

(2) «تفسير السعدي» (ص202).

والجـوابُ:

إنَّ الذي يسمَعُ جميعَ الأصواتِ لا يَغيبُ عنه منها شيءٌ، ويعلمُ كلَّ الأمورِ، بتفاصيلِها، هو وحْدَه القادرُ على الضُّرِّ، والنفعِ الحقيقيِّ؛ لأنَّ مَن تغيبُ عنه بعضُ الأصواتِ، وتَخْفَى عنه بعضُ الأمورِ، أو بعضُ التفاصيلِ لا يمكنُهُ أن يضعَ الأمورَ مواضِعَها الصحيحةَ، فقد يَضرُّ من حيثُ أرادَ النَّفعَ، وقد ينفعُ من حيثُ أرادَ أنْ يَضُرَّ.

وهذا ظاهرٌ، مشاهَدٌ، مكرورٌ في أفعالِ البشرِ.

فـ ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ الذي لا يغيبُ عنه صوتٌ، مهما أسرَّه صاحبُه، و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي لا يَخْفَى عليه أمرٌ، مهما دَقَّ، الذي ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: 3] هو وحْدَه القادرُ على الضُّرِّ، والنَّفعِ الحقيقيِّ.

والقادرُ على الضرِّ، والنفعِ الحقيقيِّ هو وحده المستحقُّ لأنْ يُعبَدَ؛ لأنَّه - بذلك الذي ذُكرَ - هو وحْدَه الذي له الكمالُ المطلقُ. واللَّهُ أعلمُ[1].

* * * * *

(1) الساعة 9.15 بعد عشاء الأربعاء 16 من شوال 1427هـ ، 8/ 11/ 2006م.

2 - فـــائدة

في

قــولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾[1]

فما مناسبةُ قولِه تعالى: ﴿غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ لِلنَّهْي المذكورِ في الآيةِ؟

والجـوابُ:

قال الشيخُ/ السعديُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى -: «﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ أي: لم يَزَلْ بالمغفرةِ موصوفًا[2]، بالحِلْمِ والإحسانِ معروفًا، فتعرَّضوا لمغفرتِه وإحسانِه، واطلُبُوه[3] من رحمتِه ورِضْوَانِه»[4].

كذا، لم يتعرَّضْ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - لذِكرِ مناسبةِ آخرِ الآيةِ للنهي المذكورِ فيها.

وأقولُ - وباللَّهِ التوفيقُ:

إنَّ اللَّه تعالى إذْ نهانا عن الاشتغالِ بما سَكَتَ عنهُ، فَلَمْ يُبيِّنْه لنا، قد عَلِمَ

---

(1) [المائدة: 101].

(2) كذا، ولعله سقطت الواو.

(3) كذا، آخره هاء، ولا أراه، ولعل الصواب: «واطلبوا»، بغير الضمير.

(4) «تفسير السعدي» (ص208). ولْيُلاحَظْ أنَّ الآيةَ جاءت في الشرحِ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مكانَ ﴿غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾.

بسابِقِ عِلْمِه فينا أننا، أو أنَّ منَّا مَن سينشغلُ بهذا المنهيِّ عنه - ولو حينًا من عُمرِه - فذكَرَ سبحانه أنه ﴿غَفُورٌ﴾ لما كان من هذه المخالفةِ، وما سيكونُ منها مما يَرْجِعُ المسلمُ عنه.

ثمَّ ثنَّى بأنه سبحانه ﴿حَلِيمٌ﴾؛ إذ لم يُعاجِلْ بالعقوبةِ على المخالفةِ، وهي كثيرةٌ من كثير منَ الناسِ، لكنه الغفورُ، ذو الرحمةِ.

﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف: 58]، ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: 11]، ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: 58].

فلأنه ﴿غَفُورٌ﴾ غفَرَ لَهُم فلم يُعاقِبْهم، ولأنه ﴿حَلِيمٌ﴾ أمهَلَهم؛ عسى أن يَفيئُوا ويتوبوا.

فسبحان الغفورِ الحليمِ.

هذا ما ظهر لي منَ المناسبة. واللَّهُ أعلمُ(1).

تنبيهٌ:

نفسُ هذه المناسبةِ في [الإسراء: 44](2).

* * * * *

(1) الساعة 9.52، بعد عشاء الأربعاء 16 من شوال 1427 هـ ، 8/ 11/ 2006م.

(2) انظر: «مختصر النبراس» (ص207).

سورة الأنعام

1 - فـــائدة

في

قــولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1]

الآيَةُ: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

فما مناسبةُ ختامِ الآية لِأولِها؟

والجـوابُ:

قوله تعالى: ﴿سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ﴾، يُحْتَملُ أنْ تكون ﴿سَكَنَ﴾ بمعنى «أقام»؛ من قولهم: «سَكَنَ المكانَ»، أي: أقام فيه.

وهذا يُشْبِهُ أنْ يكون اختيارَ الشيخ/ السعديّ - رحِمَه اللّٰهُ تعالى - حيث قال: «وذلك هو المخلوقاتُ كلُّها، من آدمِيِّها، وجِنِّها، وملائكتِها، وحيواناتِها، وجماداتها، فالكلُّ خَلْقٌ مُدبَّرون، وعبيدٌ مُسخَّرون...»[2].

قوله: «فالكلُّ خَلْقٌ...» يؤكِّد أنَّه - رحِمَه اللّٰهُ تعالى - فسَّر ﴿سَكَنَ﴾ بمعنى أقام.

---

(1) [الأنعام: 13].

(2) «تفسير السعدي» (214).

قلتُ:

ولست أرى هذا المعنى - رغمَ احتماله - لأنَّ السورةَ بدأت ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الآيتان: 1، 2] وفيهما إثباتُ الخَلْقِ، وكيفيةُ الخَلْقِ، وتقديرُ الآجالِ.

ولا بدَّ أنَّ الذي خَلَقَ هو الَّذي يَمْلِكُ.

ثم، جاءتِ الآيةُ الثالثةُ بعدَهما ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ وفيها إثباتُ الأُلوهيةِ.

ولا بدَّ للإلهِ المعبودِ أنْ يكونَ مالكًا، سميعًا، عليمًا، قادرًا، بصيرًا، خبيرًا بما خَلَقَ.

ثم، جاءت ستُّ آياتٍ بعدَها في وَصْفِ عنادِ المشركينَ، ودَحْضِ بعضِ شُبَهِهِم، أو اعتراضاتِهِم.

ثم، ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الآية: 10]، مواساةٌ للنبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وتثبيتٌ، ووعدٌ بالنَّصرِ.

ثم، ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الآية: 11].

ثم، ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾ [الآية: 12] وفيها إثباتُ المِلْكِ للَّه تعالى.

ثم، الآيةُ التي مَعَنا، ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ فما معنى أنْ تأتِيَ آيتان متتاليتان في معنًى واحدٍ، بلفظٍ قريبٍ، بل، واحدٍ؟!

فإنك لو نَظَرْتَ في ﴿لِّلَّهِۖ﴾ و﴿لَهُۥ﴾ لا تجدُ فارقًا.

كلُّ ما تظنُّ أنك واجدُه أنَّ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ظرفُ مكانٍ، وأنَّ ﴿فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ ظرفُ زمانٍ.

وليس هذا بفارقٍ، أو اختلافٍ يُذكَرُ.

بل، ليس بفارقٍ؛ لأنَّ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ متضمِّنَةٌ ﴿فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾.

قلـتُ:

فإنْ قال قائلٌ: ذاك الذي تُنكرُ[1] قد وقع في سورة المؤمنون، في سِتِّ آياتٍ[2]، في كلِّها سؤالٌ عنِ المِلكِ:

﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ﴾ [الآية: 84]، ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الآية: 86]، ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الآية: 88].

وكذلك وَقَعَ مثلُه في سورةِ النملِ، في خمسِ آياتٍ متتالياتٍ أيضًا[3]، في كلِّها سؤالٌ عنِ المِلكِ ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [النمل: 60-63] ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا﴾، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ

(1) ذِكرُ المِلكِ في آيتين متتاليتين بلفظٍ واحدٍ تقريبًا.
(2) الآيات (84 - 89).
(3) الآيات (60-64).

وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾، ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾.

إنْ قال قائلٌ ذلك. قلتُ:

الجوابُ من وجهين:

الأولُ - أنَّ هذه الآياتِ كلَّها[1] جاءت كلُّ آيةٍ منها بلفظٍ مختلفٍ عن سابقتِها؛ إذْ كانت كلُّ آيةٍ منها فيها ما ليس في التي تَلِيها من مفرداتِ المِلكِ.

معنى ذلك، أنها وإن تتابعت فقد كانت معانيها الجزئيةُ مختلفةً، بعكسِ آيتَي الأنعامِ؛ فقد ظَهَرَ لكَ ممَّا قَدَّمتُه أنَّ معناهما واحدٌ.

الثاني - أنَّ كِلَا الموضِعَين[2] جاء بعد انتهاءِ القَصصِ المذكورِ في السورةِ، وبعد ذِكرِ ما كان من أقوامِ الرسلِ.

معنى ذلك، أنَّ هذه الآياتِ جاءت تعقيبًا، ودَحْضًا لافتراءاتِ أولئكَ المكذبين، فناسبتِ المقامَ.

أمَّا آيتا الأنعامِ فقد جاءتا في ثنايا الحديثِ عن تلك الافتراءات، لا بَعْدَها؛ لأنَّ سورةَ الأنعامِ كلَّها في تقريرِ التوحيدِ، ودَحْضِ افتراءاتِ الكافرين.

قلتُ:

فإذا تقرَّرَ ذلك ولم يكن منَ المناسبِ تفسيرُ ﴿سَكَنَ﴾ أنها (أقام)، فما معناها إذًا؟

(1) في السورتين.

(2) موضع سورة المؤمنون، وموضع سورة النمل.

والجـوابُ:

﴿سَكَنَ﴾ في هذه الآية معناها: لم يتحرَّكْ، أو: سَكَتَ؛ لم يتكَلَّم، أو: هدأ(1).

وفي هذا التفسيرِ أمران:

الأول - أنْ يكون المرادُ بهذه الآيةِ غيرَ المرادِ من التي قبلها.

أي أنها تؤدِّي معنًى مختلفًا، لغرضٍ مقصودٍ.

الثاني - أنَّه بهذا التفسيرِ تَظهَرُ مناسبةُ ﴿السَّمِيعُ﴾ وشدةُ تعلُّقِها بـ﴿سَكَنَ﴾؛ لأنه سبحانه إذا كان يسمعُ الساكتَ الذي لا يتكلَّمُ، فهو بِسَمْعِ صَوْتِ المتكلِّمِ أَوْلَى.

وتظهرُ أيضًا مناسبة ﴿الْعَلِيمُ﴾؛ فإنه إذا كانَ يَعْلَمُ فِعلَ غيرِ المتحرِّكِ - ما يكون منه حالَ سُكونِه، وما قد يكون منه إذا تحرَّكَ - فهو أحقُّ أنْ يُخشَى. واللَّه أعلم(2)(3).

* * * * *

---

(1) «المعجم الوسيط» (1/ 451/ 1).

(2) وقد فسَّرهما الشيخُ/ السعديُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - بالمعهود في كلّ الأسماءِ الحُسنى، فقال: «﴿السَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات، بتفنن الحاجات، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما كان، وما يكون...». «تفسير السعدي» (214).

(3) الساعة 9.14، بعد عشاء الجمعة 17 من القعدة 1427هـ ، 8/ 12/ 2006م.

تذييـــلٌ

وبَعْدَ مُضي أُسْبُوعٍ على هذا الذي كتبتُ ساءَلتُ نفسي: ما دُمتَ ترجِع - دائمًا - إلى سياقاتِ القرآنِ، ودَوَرَانِ الكلمةِ فيه؛ اعتقادًا بأنَّ خيرَ تفسيرٍ للقرآنِ ما كان بنَفْسِ القرآنِ، فلِمَ لَمْ تحاولِ استقراءَ واستقصاءَ مادة (سكن) في القرآن؟!

فلما كان ذلك، حاولتُ استرجاعَ آياتِ الكتابِ لِأَرى كيف وَرَدَتْ هذه المادةُ في القرآنِ، وفي كَمْ منَ الآياتِ، والمرَّات[1].

فلمَّا فعلتُ ذلك وجدتُ مادة (سكن) قد وَرَدَتْ في القرآنِ اثنتين وعشرين مرَّةً[2]، في عشرين آيةً، متضمَّنَةً في سبعَ عشرةَ سورةً.

هذه هي المواطنُ التي جاءت فيها (سكن) - بتصريفاتِها - بمعنى الإقامةِ في المكان، الهدوءِ، الطُّمأنينةِ، وعدمِ الحركة.

أمَّا ما كان منها بمعنى الفقرِ (مسكين)، أو الذِّلَّةِ (مَسْكَنَةٌ) فلم أَتَعَرَّضْ له؛ حيثُ إنها لا يُحتَمَلُ معناها - بوجهِ ما - في آيةِ هذا التعليقِ ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 13].

---

(1) قلت: «والمرات» ولم أكتفِ بـ «الآيات»؛ لأنَّ الكلمة قد تأتي أكثرَ من مرةٍ في الآيةِ الواحدةِ، فيزيد عددُ مراتِ ورودِها عن عددِ الآيات.

(2) تقريبًا.

كذلك، لم أتعرَّضْ لما جاء من هذه المادة بصيغةِ الاسم (سَكِينَةٌ)؛ لأنَّه نصٌّ في معناه، فلا يَدْخُلُ فيما تَعرَّضْنا له من معنى ﴿سَكَنَ﴾ في الآية.

وإذا أردنا استعراضَ هذه المواطن الاثنين والعشرين فإنا نجِدُها كما يلي:

1 - فِعلٌ (ماضٍ، مضارعٌ، وأمرٌ)، 12 مرة.

2 - مَصْدَرٌ (سَكَنًا)، مرةً واحدةً.

3 - اسمُ مكانٍ (مَسْكَنٌ، مساكنُ)، 8 مرات[1].

4 - اسمُ فاعلٍ (ساكِنًا)، مرةً واحدةً.

ومن هذه الاثنين والعشرين مرةً لا بدَّ أن نُخرجَ (اسم المكان)؛ لأنه صريحٌ في البُيوتِ، فلا يَدْخُلُ في احتمالِ المرادِ منَ الآيةِ، فيبقى معنا أربعةَ عَشَرَ موضعًا؛ وهي:

1 - فِعْلُ الأمر (4 مرات):

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35] و[الأعراف: 19] ﴿ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ مرتان [الإسراء: 104]، ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ [الطلاق: 6].

وهذه الأربُع بمعنى الإقامةِ في المكانِ (الجنة - الأرض - البُيوت).

2 - فعلٌ ماضٍ (مرةً واحدةً):

﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ [إبراهيم: 45].

(1) وهي: [التوبة: 24]، [إبراهيم: 45]، [طه: 128]، [النمل: 18]، [القصص: 58]، [سبأ: 15]، [الأحقاف: 25] و[الصف: 12].

وهذه - أيضًا - بمعنى الإقامةِ.

3 - فعلٌ مضارعٌ (8 مرات):

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189]، ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: 21].

وهذا هو السَّكَنُ إلى الزوجةِ، أي الراحةُ، والاطمئنانُ بها، وإليها.

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ [الشورى: 33].

وهذه، هُدُوءٌ، أو قلةُ حركةٍ.

ويَبْقَى معنا منَ الفعلِ المضارعِ:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [يونس: 67]، ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [النمل: 86]، ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [القصص: 73]، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [القصص: 72].

وهذه المواضعُ الأربعةُ بمعنى الهُدُوءِ، وقلةِ الحركة.

ويُلاحَظُ أنه قد ذُكِرَ فيها كلِّها ﴿اللَّيْلِ﴾، وفي الليل يكون - أيضًا - النَّوْمُ، بعد الهُدُوءِ، وقلةِ الحركة.

وفي النَّومِ يكونُ - أيضًا - السكوتُ، وعَدَمُ الكلامِ.

وقد ذُكِرَ الليلُ في آيةِ الأنعامِ - أيضًا - وهذا مما يؤيد ما ذهبتُ إليه من أنَّ المراد بـ﴿سَكَنًا﴾ السكوتُ، وقلَّةُ الحركة. والحمدُ للَّهِ على ما وفَّق.

ويبقى الموطنُ الذي جاءت فيه (سكن) بصيغةِ اسمِ الفاعلِ ﴿سَاكِنًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾[الفرقان: 45].

﴿سَاكِنًا﴾ أي: غير متحركٍ، لا يزيدُ ولا ينقصُ، وهو نفسُ المعنى المتضمَّن في آيةِ الأنعامِ. واللَّهُ أعلمُ[1].

* * * * *

(1) الساعة 11.42 ليل الخميس 23 من القعدة 1427هـ، 14/12/2006م.

2 - فــائدة

في

قــولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾(1)

الآية: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

ما مناسبةُ ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾؟

الجوابُ:

«هو القاهرُ، وغيرُه مقهورٌ»(2)، «فَلَيْسُوا يَمْلِكون منَ الأمرِ شيئًا»(3)، فهو سبحانه الذي «يُدبِّر أمرَهم بما يريد، فيقعُ في ذلك(4) ما يشِقُّ عليهم، ويثْقُلُ، ويغُمُّ، ويُحزِنُ»(5)؛ مثل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: 155]، «فلا يستطيعُ أحدٌ منهم ردَّ تدبيرِهِ، والخروجَ من تحتِ قَهْرِه وتقديرِه»(6)، فـ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: 17] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: 61].

---

(1) [الأنعام: 18].
(2) «تفسير السعدي» (214).
(3) «تفسير السعدي» (221).
(4) يعني التدبير.
(5) «تفسير القاسمي» (4/ 332).
(6) تفسير القاسمي (4/ 332).

وهو - مع ذلك - ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، الذي لا يخلو أمرُه وفِعلُه من حكمةٍ، فَهِمَها مَن فَهِمَها منَ الناسِ، أو لم يَفْهَمْها كلُّ الناسِ. لكنه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، لا ينفي حكمتَه جهلُ الناسِ بها، يَضَعُ الأمورَ مواضِعَها، التي بها صلاحُها، وتمامُ ما خُلِقَتْ له؛ لأنه ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: 14].

فإذا كان ذلك كذلك، ففيها - أيضًا - أمران:

الأول - تسليةٌ للنبيِّ صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم[1]، إذ جاءت ضِمنَ آياتٍ فيها: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: 10]؛ لأنَّ ربَّك هو ﴿ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، ولأنه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، الذي اقتَضَتْ حِكْمَتُه ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: 51]، ولأنه ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾، الذي عَلِمَ، وقَضَى أنَّ في ذلك صلاحَ العبادِ، والبلادِ.

الأمر الثاني - تحذيرٌ، وتخويفٌ؛ لأنَّه ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾ لا يَمتنعُ منه شيءٌ، و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، قد أَمَرَ بما فيه الصلاحُ، فلا يَحِلُّ إلَّا الامتثالُ، ولأنَّه ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾، لا تخفى عليه خافيةٌ. فكيف ترى العِصيانَ؟!

واللّهُ أعلمُ. والحمدُ للّهِ على ما هدى[2].

* * * * *

(1) والذين معه، ومَن سلَك سبيلَهم، إلى يوم الدين.

(2) الساعة 12.45، ليلة الإثنين 3 من المحرم 1428، 22/ 1/ 2007م.

3 -فــائدة

في

قــولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1]

قال المشركون: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾[2]، فأجابهمُ اللَّهُ تعالى مخاطبًا نبيَّه صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم: ﴿قُلۡ[3] إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ﴾؛ لأنه الخالقُ، المالكُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فما الذي لا يَعْلَمُونَه؟ وما المناسبةُ؟

والجوابُ:

قال الشيخُ/ السعديُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى -: «فَهُمْ - لجهلِهم، وعدمِ عِلْمِهم - يطلبون ما هو شرٌّ لهم منَ الآياتِ، التي لو جاءتهم فلم يؤمنوا لعُوجِلوا بالعقاب... فإنْ كان قَصْدُهُمُ الآياتِ التي تُبَيِّنُ لهمُ الحقَّ، وتُوَضِّحُ السبيلَ فقد أَتَى محمدٌ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم بكلِّ آيةٍ قاطعةٍ وحجةٍ ساطعةٍ»[4].

---

(1) [الأنعام: 37].

(2) النبي محمد صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم.

(3) قل، يا محمد، للمشركين، جوابًا عمَّا سألوا؛ أو طلبوا.

(4) انظر: تفسير السعدي (217).

قلـتُ:

هذا كلامٌ جيدٌ، لكني أراه وجهًا، أوِ احتمالاً، أو جزءًا منَ المعنى.

والأَوْلى عندي أنهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الخالقَ، المالِكَ هو الحكيمُ، الذي يَضَعُ الأمورَ مواضِعَها، والذي لم يخلُق ﴿عَبَثًا﴾ [المؤمنون: 115].

ولذلك لم يَتْرُكْهُم ﴿سُدًى﴾ [القيامة: 36]، كما قد يَظُنُّ بعضُهم.

بل، أرسَلَ إليهمُ الرسلَ ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: 165]، وجَعَلَ كلَّ رسولٍ آيةً بذاتِه، وحجَّةً على قومِهِ؛ بما يعرفونه من مكانِه، وسيرتِه فِيهم قبلَ البِعثَةِ.

ثم، أيَّدَ كلَّ رسولٍ منهم بآياتٍ حسيَّةٍ، أو معنويَّةٍ؛ حسَبَ ما اقتضته حكمتُه سبحانه في عباده، وحسَبَ ما سَبَقَ من قَدَرِه في خَلْقِهِ، كما في حديثِ القلم[1].

وقَضَى سبحانه أنْ ﴿لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: 58]، كلُّ ذلك بحكمةِ الحكيمِ، وعِلْمِ العليمِ، الذي ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: 98] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

واللّه أعلم[2].

---

(1) صحيح. الترمذي من حديث عبادة بن الصامت.

(2) الساعة 9.45، بعد عشاء الجمعة 3 من القعدة 1427هـ ، 24/ 11/ 2006م.

قلتُ:

ونظائرُ هذه الآيةِ[1] كثيرةٌ في القرآنِ، وكلُّها تأتي بمعنى أنَّ الناسَ لا يعلمونَ حقائقَ الأمورِ.

فمن ذلك، قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21، 40، 68].

فقال الشيخُ/ السعديُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى -: «حقائقَ الأشياء»[2] أي: لا يعلمون... وتطبيقُ ذلك في مواطنِ سورةِ يوسفَ الثلاثةِ كما يلي:

الموطنُ الأولُ - ختامًا لآية ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ [يوسف: 21] فيقولُ اللَّهُ تعالى تعقيبًا على ما جاء في الآيةِ: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ الذي قدَّره وقضاه في حقِّ يوسفَ - عليه السلام - وإخوتهِ، «أي: أَمْرُه تعالى نافذٌ، لا يُبطِلُه مُبْطِلٌ، ولا يَغْلِبُه مغالبٌ»[3]؛ لا رادَّ لأَمْرِه، و﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: 41].

بل، يكون ما يُرِيدُ حينما يُريدُ، وكيفما أراد.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذه الحقيقَة كما هي في نفسِ الأمرِ.

«فلذلك يَجْرِي منهم ويَصْدُرُ في مُغَالَبَةِ أحكامِ اللَّهِ القَدَرِيَّةِ [أمورٌ]، وهُمْ أَعْجَزُ، وأَضْعَفُ من ذلك».

---

(1) قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(2) «تفسير السعدي» (ص354).

(3) «تفسير السعدي» (ص351).

تنبيهٌ:

ولا يَنْفِي هذا أنَّ القدرَ قَدرانِ: «قَدَرٌ يُغالَبُ[1]، وقَدَرٌ لا يُغالَبُ[2]»[3].

الموطِنُ الثاني - ختامًا لقولِ يوسفَ - عليه السلام - في دعوتِه لصاحِبَيه في السِّجنِ إلى توحيدِ اللَّهِ، وقبلَ تعبيرِه لرؤياهما: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ . ثم قال في آخرها ﴿ذَٰلِكَ﴾ التوحيد هو ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الذي يَجِبُ اتِّباعُه؛ لأنَّ فيه النجاةَ، ولا يُقبَلُ من أحدٍ سواه، «وما سواه منَ الأديانِ فإنَّها غيرُ مستقيمةٍ. بل، مُعْوَجَّةٌ، تُوَصِّل إلى كلِّ شرٍّ»[4].

ويَكْفِي غيرَه منَ الأديانِ أنه لا يُوَصِّلُ إلى اللَّهِ، ولا يَقبَلُه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقةَ هذا التوحيدِ كما أرادَه منهم ربُّ العالمين.

تنبيهٌ:

وليس عَدَمُ العِلْمِ المذكورُ عن عدمِ بَيِّنَةٍ، أو قلَّةِ وضوحِ برهانٍ، إنما هو عنِ استكبارٍ، أو إعراضٍ، وتمسُّكٍ بدينِ الآباءِ.

الموطن الثالث - ختامًا لآية ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ

---

(1) كالمرضِ - مثلًا - أو كلّ ما أعطانا اللَّهُ أسبابًا للتعامُلِ معه.

(2) كالميلاد والوفاةِ، واللونِ، وما أشبَهَ ذلك، فلا اختيارَ لأحدٍ فيه، ولا سبيلَ لمحاولةِ دفعِه.

(3) قاله الإمامُ ابنُ القَيِّم، رَحِمَه اللَّهُ تعالى.

(4) «تفسير السعدي» (ص354).

﴿يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [يوسف: 68]؛ فلا بد من وقوعِ مَقْدُورِ اللَّهِ.

لكنَّ يعقوبَ - عليه السلام - ما نَصَحَهُم بذلك ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾؛ وهي ضرورةُ الأَخْذِ بالأسبابِ[1] كما أمرَه اللَّهُ تعالى. وليس وقوعُ القَدَرِ يعني أنَّ نصيحةَ يعقوبَ لبَنِيه كانت خطأً. كيف، وهو قد فَعَلَ ذلك بتعليمِ اللَّهِ له، كما قال بعدَها ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾؟

لكنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ بأسبابٍ، كما يفعلُ بدونِ أسبابٍ.

بل، إنه سبحانه يفعلُ بضدِّ الأسبابِ، إنْ شاء؛ لأنَّه خالقُ الأسبابِ، فهو سبحانه ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: 14]، حينما يريدُ، كيفما يريدُ، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: 23].

لكنَّ الأَخْذَ بالأسبابِ عبادةٌ، فإذا لم يَفْعَلْها نبيٌّ كريمٌ فَمَنْ؟

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذه الحقيقةَ.

وعلى ما ذكرتُ لك فقِسْ باقي النظائرِ. واللَّهُ أعلم[2].

* * * * *

(1) أمَّا ما ذكره الشيخُ/ السعديُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - من قوله: «وهو موجَبُ الشفقةِ والمحبةِ للأولاد» فلا أراه إلَّا تابعًا لما ذكرتُ، واللَّه أعلم.

(2) الساعة 8.50، بعد عشاء الأحد 5 من القعدة 1427هـ، 26/ 11/ 2006م.

4 - فـــائدة

في

قـولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾(1)

ليس الكلامُ هنا في «المناسبة»، إنما هو في حقيقةِ ﴿ءَازَرَ﴾.

1 - أَهُوَ أبو إبراهيمَ - عليه الصلاةُ والسلام - أم غيرُه؟ ومَنِ القائلُ بذلك، وما دليله؟

2 - ولو كان غيرَ أبيه، فمن يكون؟ أهو عمُّه، أم غيره؟ ومَن قائلُ كلٍّ من ذلك ؟ وما دليلُه؟ وما نصيبُ قولِه من الصحةِ، أو عدمِها؟

3 - وإن لم يكن صحيحًا، فما حجةُ ردِّه؟

4 - ثم، تنبيهاتٌ على بعضِ ما جاء في كتب التفسير والتاريخ والسيرة، حولَ هذا الأمر.

فأقول ابتداءً:

لو نظرنا في عرضِ القرآنِ الكريمِ لقصةِ إبراهيمَ - عليه الصلاةُ والسلام - مع أبيه وقومِه، لوجدنا كلمةَ ﴿لِأَبِيهِ﴾ قد وردت - في هذه القصة - ثماني مراتٍ.

---

(1) [الأنعام: 74].

1 - منها أربعُ مراتٍ ﴿قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾[1].

2 - ومرتان ﴿لِأَبِيهِ﴾، فقط: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: 114] و﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: 5].

3 - ومرةٌ، مقترنةٌ بـ ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾: ﴿قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ [مريم: 42].

فهذه سبعٌ فيها ﴿لِأَبِيهِ﴾، فقط، دونَ تعرُّضٍ لاسم أبيه، أو وصفِهِ.

4 - والثامنةُ، آيةُ الأنعام - هذه التي معنا - ﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾.

فلماذا لا يكون «آزر» اسمَ أبيه، أو صفتَه؟ ولماذا يكون عمَّه أو غيرَ ذلك، كما ذُكر في كثيرٍ من كُتُبِ التفسيرِ؟[2]

نعم، قد قالَ النبيُّ صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم: «عمُّ الرَّجُلِ صِنْوُ أبيه»[3].

والعَرَبُ تُسَمِّي العمَّ أبًا[4].

وما زال كثيرٌ منَ البدوِ، وأهلِ الريفِ يُنادُون العمَّ بالأبِ.

نعم، كلُّ ذلك صحيحٌ.

---

(1) الأنبياء (52)، الشعراء (70)، الصافات (85)، والزخرف (26).

(2) وسيأتي بيانُ ذلك (ص106 - 115).

(3) صحيح. مسلم من حديث أبي هريرة - رضِيَ اللّهُ تعالى عنه.

(4) وهذا مما احتجَّ به مَن قال - من أهلِ التفسيرِ - «آزر عمُّه».

لكنهم يقيّدونَها بذِكْرِ اسمِه[1]، يريدون بذلك بيانَ أنَّه ليس أباه حقيقةً، إنَّما عُرفًا.

فهذه واحدة.

أما الثانية: فاستعمالُ القرآنِ لِلَفْظَةِ ﴿لِأَبِيهِ﴾؛ وقد سبَقَ أنها ذُكِرَتْ في ثمانِ مواضعَ، منها سبعٌ ﴿لِأَبِيهِ﴾ مجرَّدةً، وواحدةٌ ﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ مقيَّدةً باسمٍ، أو وصفٍ[2].

فلماذا لا يكون القرآنُ أرادَ أبا إبراهيم نَسَبًا؟

قد قيل بأنَّ ﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ هو من جِنسِ ذِكْرِ الاسمِ مع لفظِ «أبي»؛ للدِّلالةِ على أنه ليس أبًا حقيقةً.

قلتُ:

بلْ، هو من بابِ التقييدِ للمُطْلَقِ، المذكورِ في المواضعِ السبعةِ الأخرى؛ مع أنَّ كثرةَ ذِكرِها وتَكرارَها يدلُّ على أنَّ المرادَ أبو إبراهيم حقيقةً.

ولعلَّ اللَّهَ تعالى أرادَ بهذا الصَّنِيعِ أن يُعلِمَنا باسمِ أبي إبراهيمَ عليه الصلاة والسلامُ.

والثالثة: قد جاءت آيةُ مريمَ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ﴾ [مريم: 42]، وهذه الكلمةُ

---

(1) فيقولون في العاميةِ المصريةِ: «أبويا فلان»، مُقَيَّدةً، وليس معروفًا بين الناس نداءُ الأبِ باسمه مجرَّدًا، ولا بذِكرِ لفظِ «الأب» قبل. بل، يُعتبرُ هذا - شرعًا وعرفًا - من سوءِ الأدبِ.

(2) كما قال بعضُهم.

لا تقولُها العربُ إلّا للأبِ حقيقةً، أو أنَّ هذا أكثرُ استعمالِها.

ثم، قد تكرَّرتْ ثلاثَ مراتٍ في نفسِ سورةِ مريمَ، في ثلاثِ آياتٍ تاليةٍ للآيةِ المذكورةِ [مريم: 43 - 45].

فإنْ لم يكن هذا التَّكرارُ تأكيدًا لإرادةِ الأبِ حقيقةً، فما معنى هذا التَّكرارِ؟!

والرابعةُ: لما قال إبراهيمُ - عليه الصلاةُ والسلامُ - لأبيه ما قال جاء جوابُ أبيه ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: 46].

وفي هذه الآيةِ نَجِدُ:

1 - ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، فلو كان المدعوُّ عمَّه - كما قال بعضُهم - لاكتَفى بَعَدَمِ الإجابةِ لما أرادَه إبراهيمُ - عليه الصلاةُ والسلامُ.

ولو لم يَكْتَفِ بعَدَمِ الإجابةِ لقَطَعَ الصلةَ بإبراهيم - عليه الصلاةُ والسلامُ - ليَبْتَعِدَ عمَّا يراه شرًّا، أو خطأً. أمَّا أنْ يُهدِّدَه ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ فهذا - في الأصل[1] - لا يكونُ من غير الأبِ نَسَبًا، وحقيقةً.

أما قولي: «في الأصل»؛ فلأنَّ العِقابَ - في مِثلِ تلك الحالِ - قد يأتي، أو قد يكونُ ممن يُسمُّونَه: «كبيرُ العائلة».

وهذا الكبيرُ، قد يكونُ غيرَ الأبِ.

(1) قلتُ: «في الأصل» لأنَّ غيرَ الأبِ قد يَحِلّ مَحِلَّه في التأديبِ، أحيانًا.

وهذا معروفٌ مشهورٌ بين العربِ قاطبةً.

وفي هذه الحالِ، قد يكونُ هذا الكبيرُ عمًّا، أو جَدًّا. بل، قد يكون أَخًا.

حتَّى إنَّه - أحيانًا - يكونُ أَخًا أصغرَ.

فإذا كان كذلك، فلماذا خصَصْتُموه بالعمِّ إنْ لم يكن أباه حقيقةً؟!

2 - ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾.

قد سبق أنَّ المدعوَّ إن كان غيرَ الأبِ فقد يَكْتَفِي بعَدَمِ الإجابةِ، أو قد يَهْجُرُ هو الداعيَ، ويَقْطَعُ صلتَه به.

وذلك، لأنَّ الغالبَ - في هذه الحالِ - أنَّه لم يكن يَجْمَعُهما مكانٌ واحدٌ، أو بيتٌ واحدٌ، أو لم يكن بينهما كبيرُ مخالَطةٍ.

أمَّا إذا كان المدعوُّ أبًا حقيقةً؛ فإنه لا يَتْرُكُ بَيْتَه، أو مكانَه لابنِهِ، هاجرًا إياه، قاطعًا صِلَتَه به.

إنما الذي يكون ﴿وَٱهۡجُرۡنِي﴾.

أي أنَّ الأبَ هو الذي يُخرِجُ الابنَ من بيتِه أو مكانِهِ[1].

فهذه الآية - بهذين اللفظين - تؤكِّدُ أنَّ ﴿لِأَبِيهِ﴾ إنما كان أباه حقيقةً.

ثم الخامسة:

﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [نوح: 28]، وهي من قولِ إبراهيمَ - عليه الصلاةُ

(1) وهذا كثيرٌ، مألوفٌ، في عُرفِ الناسِ. وما زال كذلك حتى أيَّامِنا هذه.

والسلامُ - فهل كان إبراهيمُ - عليه الصلاةُ والسلامُ - يَدْعُو لأبيه مع عمِّه ﴿ءَازَرَ﴾ بالمغفرةِ؟

أقول: لا. بلْ، كان داعيًا لأبيه لا لعمِّه، ولا دَخْلَ لِعَمِّه في هذا الدُّعاءِ.

وذلك من وجهين:

الوجهُ الأوَّلُ - أنَّه منَ المعروفِ لغةً - بلا خلافٍ - أنَّ «الوالدان» لا تُقال إلَّا للأبِ والأمِّ؛ لأنهما اللذين وَلَدا حقيقةً[1].

فلا بدَّ أنْ يَكُونَ أبو إبراهيمَ داخلًا، ومرادًا بدعائِه هذا.

وهنا يَرِدُ إشكالٌ: كيف دعا لأمِّه، ولا ذِكر لها في القرآن؟

قلتُ:

ليس بإشكالٍ؛ لأنه لا ذِكْرَ لأُمَّهاتِ الأنبياءِ - عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ - في القرآن إلَّا أمُّ موسى، وأمُّ عيسى - عليهِما الصلاةُ والسلامُ.

بلْ، لا ذِكرَ للآباء - أيضًا - إلَّا أبو إبراهيمَ، ويعقوبُ أبو يوسفَ - عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ. وإنما ذلك لخصوصيةِ كلٍّ منهما بأمرٍ ما[2].

---

(1) بخلاف «الأبوان»، فإنهما قد يرادُ بهما الوالدان، كما قد يرادُ بهما الأبُ مع غيره من الأجدادِ، أو الأعمامِ، أو قد يرادُ بهما الأجدادُ فقط - دون دخولِ الأبِ فيهما. وكذا جاء القرآن.

(2) **وفيه نكتةٌ لطيفةٌ**: أبوان، وأُمَّان، ولم يُذْكَرْ غيرُهما في القرآن، ولم أكنِ انتبهتُ لهذه النكتةِ من قبلُ.

الوجهُ الثاني - أنّه ليس عمُّه داخلاً مع أبيه في ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾، كما قد يَزْعُمُ بعضُ الناسِ.

بلْ، ليس عمُّه داخلاً أَصْلاً، وهذا مِنَ القرآنِ؛ فالمعروف في القرآن[1] عند ذِكْرِ آباءِ الأنبياءِ - عليهم الصلاةُ والسلامُ - أنْ يَذْكُر أبا النَّسبِ، ثم مَن فَوْقَه منَ الآباءِ أوِ الأجدادِ[2].

كما في قولِه تعالى: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [يوسف: 6].

أو قد يَذْكُرُ الأجدادَ منَ الأعلى إلى الأدنى.

فأبوه مرادٌ، وعمُّه ليس داخلاً.

كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾[3] [البقرة: 133].

فإذا كانت هذه الخمسُ فإنَّ ﴿ءَازَرَ﴾ إنما هو اسمُ أبي سيدِنا إبراهيمَ - عليه الصلاةُ والسلامُ. واللّهُ أعلمُ.

والحمد للّهِ على ما وفَّقَ، وهَدَى[4].

---

(1) على قِلَّتِه.

(2) دونَ تقيُّدٍ بالترتيبِ، بل باختيارٍ مقصودٍ.

(3) وذِكْرُ إسماعيلَ ههنا على أنّه جدٌّ ليوسف، لا على أنه عمٌّ يعقوب - عليهم السلام.

(4) الساعة 11.43 ليل الأربعاء 21 من الحجة 1427، 10/1/2007.

فهذا جوابي عنِ الشّقِّ الأولِ منَ السؤالِ الأوَّلِ في شأنِ «آزر»:

أَهُوَ أبو إبراهيمَ - عليه الصلاةُ والسلامُ - أم غيرُه.

وقد تبيَّن مما سبق أنَّه أبوه، أما القائلُ بغيرِ ذلك، فيأتي بيانُه في جوابي عنِ الشّقِّ الثاني من هذا السؤالِ.

قلتُ:

وهذا ما اختاره، ورجَّحه الطَبَرِيُّ[1] - رحِمَه اللَّهُ تعالى. قال: «فأَوْلَى القَوْلَين[2] بالصوابِ منهما عندي قولُ مَن قال: (هو اسمُ أبيه)؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى ذِكرُه أخبَرَ أنه أبوه، وهو القولُ المحفوظُ من قولِ أهلِ العلمِ، دونَ القولِ الآخرِ الذي زَعَمَ صاحبُه أنَّه نَعْتٌ».

بعدَ أن ذكَرَ اللَّهُ تعالى أبا إبراهيمَ باسمِ «آزر» ثم، وبعدَ ما ذكرتُ في إثباتِ هذا الأمرِ من أسلوبِ القرآنِ وبعدَ المنقولِ عنِ الطَّبَرِيِّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - بعدَ كلِّ ذلك فإنه قد ثبت في الصحيح: «يَلْقَى إبراهيمُ أباهُ آزرَ يومَ القيامةِ وعَلَى وجهِ آزرَ قَتَرَةٌ وغَبَرَةٌ...»[3] الحديث.

وليس بعدَ هذا تصريحٌ بأنَّ «آزر» هو اسمُ أبي إبراهيمَ الخَليلِ - عليه الصلاةُ والسلامُ.

قال الحافظ ابنُ حَجَرٍ: «هذا موافقٌ لظاهرِ القرآنِ في تسميةِ والدِ إبراهيمَ.

(1) (11/468).

(2) أن آزر اسم أبي إبراهيم أو وصف له.

(3) صحيح. البخاري، من حديث ابن عباس - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنهما.

وحَكَى الطَّبَرِيُّ من طريقٍ ضعيفةٍ عن مجاهدٍ أن (آزر) اسمُ الصَّنَمِ، وهو شاذٌّ»[1].

أمَّا الشِّقُّ الثاني مِنَ السؤالِ الأولِ، وهو: مَن قال بغيرِ ذلك؟ وما دليلُه؟

والجوابُ:

قد نَقَل كلُّ أهلِ التفسيرِ - أو معظمُهم - نَقَلُوا الخلافَ في هذا الأمرِ عن بعضِ السلفِ، ولا أعلمُ أحدًا منهم رجَّحَ شيئًا مما نقلوه[2] غيرَ الطَّبَرِيِّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - فقد رجَّحَ ما يوافقُ ظاهرَ القرآنِ[3].

وممن وقفتُ على ترجيحِهم الحافظ/ ابنُ كثيرٍ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - لكنَّه رجَّحَ أنَّ اسمَ أبي إبراهيمَ - عليه الصلاةُ والسلامُ - هو «تارَح»[4].

أما دليلُه - هو ومَن قال بذلك - فهو قولُ أهلِ الأنسابِ.

قال ابنُ كثيرٍ: «وهكذا قال غيرُ واحدٍ من علماء النَّسَبِ»[5].

ثمَّ، إنَّ بعضَ السلف، وبعضَ المفسِّرين - رحِمَهُمُ اللَّهُ تعالى - قالوا بأنَّ «آزر» اسمُ أبي إبراهيمَ، و«تارَح»، لَقَبُه.

---

(1) «الفتح» (8/ 358).

(2) فقد نقلوا، أو قالوا أقوالاً كثيرةً غيرَ القولين السابقَين. فمنهم من قال: «اسم صنم»، ومنهم مَن قال: «سَبٌّ، وعَيْبٌ، وذَمٌّ».

(3) (11/ 468).

(4) بفتح الراء المهملة. ومنهم من يقول «تارَخ» بالخاء المعجمة.

(5) (3/ 382).

ومنهم مَن عَكَسَ.

كلُّ ذلك بغيرِ دليلٍ صحيحٍ صريحٍ.

فهذا ظاهرُ القرآنِ، نَصٌّ صريحٌ في أنَّ ﴿ءَازَرَ﴾ هو اسمُ أبي إبراهيمَ - عليه الصلاةُ والسلامُ - وليس مع كلامِ اللَّهِ كلامٌ.

2 - أما ما وَرَدَ في الحديثِ، فهو:

قال النبيُّ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم: «يَلقَى إبراهيمُ أباه آزَرَ يومَ القيامةِ، و على وجهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ...» الحديث[1].

فهذا - أيضًا - نَصٌّ صريحٌ منَ النَّبيِّ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلمبأنَّ ﴿ءَازَرَ﴾ هو اسمُ أبي إبراهيمَ - عليه الصلاةُ والسلامُ - كما نَطَقَ بذلك القرآنُ الكريمُ.

ولذلك، قال الحافظُ/ ابنُ حَجرٍ - رحِمَه اللَّهُ تعالى -:

«هذا موافقٌ لظاهرِ القرآنِ في تسميةِ والدِ إبراهيمَ»[2].

3 - أمَّا كلام أهل التحقيق منَ المفسِّرين:

أ - فهذا شيخُهم، وإمامُهم، الإمامُ الطَّبَرِيُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - يقولُ: «فأَوْلَى القولَين[3] بالصواب منهما قولُ مَن قال: (هو اسمُ أبيه)؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى ذِكرُه أخبرَ أنه أبوه، وهو القولُ المحفوظُ من قولِ أهلِ

---

(1) صحيح. البخاري - فتح - (8/ 358) من حدث ابنِ عباسٍ رضِيَ اللَّهُ تعالى عنهما.

(2) «الفتح» (8/ 358).

(3) أنَّ «آزر» اسمٌ، أو أنه نعتٌ.

العلمِ، دون القولِ الآخرَ الذي زَعَمَ صاحبُه أنه نَعْتٌ»[1].

وقد تابعَهُ على ذلك الرازيُّ[2]، والخازِنُ[3].

ب - قال الخازن: «لِأَنَّ اللَّهَ تعالى سمَّاه به».

أمَّا غيرُ هؤلاءِ منَ المفسرين، فمُعظمُهم قد نَقَلَ الأقوالَ[4] وحكاها دون ترجيحٍ، أو تعليقٍ عليها، أو على شيءٍ منها.

ج - هذا، فيما عدا الحافظِ/ ابنِ كثيرٍ[5] - رحِمَه اللَّهُ تعالى - فقد رجَّحَ ترجيحًا غيرَ صريحٍ، فقال بعد أن قدَّمَ ما رواه ابنُ أبي حاتمٍ عنِ ابنِ عباسٍ - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنهما - وتلاه بغيرِه منَ الأقوالِ، قال:

«وقال ابنُ جريرٍ: والصوابُ أنَّ اسمَ أبيهِ «آزر»، ثم أَورد على نفسِه[6] قولَ النسَّابين أنَّ اسمه «تارَح»، ثم أجاب بأنه قد يكونُ له اسمان؛ كما لكثيرٍ منَ الناسِ، أو يكونُ أحدُهما لقبًا. وهذا[7] الذي قاله جيِّدٌ قويٌّ. واللَّهُ أعلمُ»[8].

---

(1) (11/ 468).

رغم أنه - رحمه اللّه تعالى - قال في «التاريخ» (1/ 233): «إبراهيم بن تارخ»، بخاء معجمة، فلعله كان يحكي قولَ أهلِ الأنسابِ.

(2) الرازي (12/ 379).

(3) «تفسير الخازن» (1252).

(4) ولعلها تزيد عنِ الخمسة.

(5) فيما أعلمُ، أو فيما يسَّرَ اللَّهُ تعالى لي النظرَ فيه.

(6) يعني الطبريَّ.

(7) القائل هو ابنُ كثيرٍ.

(8) «ابن كثير» (3/ 283).

قلتُ:

قد قدَّم الطبريُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - الجزمَ بقولِه: «فأَوْلَى القولَين بالصوابِ منهما عندي.. هو اسمُ أبيه».

أمَّا الإيرادُ الذي ذَكَرَه ابنُ كثيرٍ، فقد قال فيه الطَّبَرِيُّ: «غيرُ مُحالٍ»[1].

أي: إنْ لم يكن ما جزَمَ به، فهذا الآخرُ يُحْتَمَلُ.

* * * * *

(1) «الطبري» (11/ 469).

تنبيهـــاتٌ

التنبيهُ الأوَّلُ:

ردُّ ما نُقِلَ عن غيرِ واحدٍ من إجماع النَّسَّابين على أنَّ اسمَ أبي إبراهيمَ - عليه الصلاةُ والسلامُ - : «تارَح».

1 - قد ردَّه القُرْطُبِيُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى؛ قال:

«قال أبو بكرِ محمدُ بنُ محمدِ بنِ الحَسَنِ، الجُوَيْنِيُّ، الشافعيُّ، الأَشْعَرِيُّ في (النكت منَ التفسير) له: ليس بينَ الناسِ[1] اختلافٌ في أنَّ اسمَ والدِ إبراهيمَ (تارَح)...»[2].

ثم ردَّه - رحِمَه اللَّهُ تعالى - بقولِه:

«قلتُ[3]: ما ادَّعاه منَ الاتفاقِ ليس عليه وِفاقٌ؛ فقد قال محمدُ بنُ إسحاقَ، والكَلْبِيُّ، والضَّحَّاكُ إنَّ (آزر) أبو إبراهيمَ - عليه السلام - وهو تارَح...».

2 - وكذلك ردَّه الرازيُّ بقولِه:

«... نقولُ: هذا ضعيفٌ؛ لأنَّ ذلك الإجماعَ إنما حَصَلَ لأنَّ بعضَهم

---

(1) لعله يعني النسَّابين.
(2) «القرطبي» (8/ 2458).
(3) القائل القرطبيُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى.

يُقَلِّدُ بعضًا[1]. . . وربما تَعلَّقوا بما يَجِدُونَه من أحبارِ اليهودِ والنَّصارَى، ولا عِبْرَةَ بذلك في مقابلةِ صريحِ القرآنِ»[2].

قلتُ:

1 - قولُ الرَّازِيِّ: «ولا عِبرةَ بذلك في مقابلة صريح القرآنِ» موافقٌ لما هو معلومٌ ضرورةً، ولما اتَّفقَ عليه أهلُ الأُصولِ.

2 - لكنَّ ردَّ القرطبيِّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - أَقْوَى، وأَنْجَعُ؛ لأنَّه أورَدَ ما ينفي وقوعَ الإجماعِ منَ الأساسِ.

أمَّا قول الرَّازيِّ: «لأنَّ ذلك الإجماعَ»، فكأنَّه أَثْبَتَ وقوعَ الإجماعِ، وإنْ كان يحتمِلُ: «. . . لأنَّ ذلك الإجماعَ المدَّعى». ويَبْقَى إثباتُ عدمِ وقوعِ الإجماعِ - كما فَعَلَه القرطبيُّ - أَوْلى، وأصحُّ.

3 - وكذلك قد ردَّ الخازنُ هذا الإجماعَ المدَّعى، فقال: «وما نُقِلَ عنِ النسَّابين والمؤرِّخين أنَّ اسمَه (تارَح)، ففيه نَظَرٌ؛ لأنهم إنما نَقَلُوه عن أصحابِ الأخبارِ وأهلِ السِّيَرِ، من أهلِ الكتابِ، ولا عِبرةَ بنقلِهم»[3].

قولُه:

«ولا عبرَةَ بنقلِهم»، كأنَّه لا يأخُذُ بنقلِهم وأخبارِهم أصلاً، سواءَ وافَقَتْ أم لا.

---

(1) فيرجعُ قولُ مجموعِهم إلى قولٍ واحدٍ، أو اثنين، وقد نصَّ عليه الرازيُّ.
(2) «الرازي» (12/ 379).
(3) «تفسير الخازن» (2/ 125).

ويبقى قولُ القُرْطُبِيِّ في هذا المعنى أوضَحُ، وأَصَحُّ.

4 - ثم، إذا نظرنا في بعضِ كتبِ الأنسابِ[1] نجدُ ما يلي:

أ - السمعانيُّ[2].

ب - أحمدُ بنُ محمدِ بنِ إبراهيمَ الأشعريُّ، القرطبيُّ[3].

جـ - القلقشنديُّ[4].

كلُّهم يقولُ:

«.. إبراهيمُ بن آزَر، وهو تارَح».

د - وكذلك ابنُ هشامٍ[5]، وابنُ سيِّدِ الناسِ[6]، لكنهما عكَسَا فقالا:

«.. بن تارَح، وهو آزر».

هـ - أمَّا السُّهَيْلِيُّ[7] فيقولُ:

«(آزر) معناه: يا أعوَجُ، وقيل: ....، وقيل: ..».

و - وقبلَهم الطبريُّ[8] قال:

---

(1) وكان حقَّ ذلك التقديمُ. لكني أردتُ تقديمَ أقوالِ الأئمةِ - رحمهم اللَّهُ تعالى.

(2) «الأنساب» (1/ 25).

(3) «التعريف بالأنساب».

(4) «نهاية الأرب» (33).

(5) «السيرة» (1/ 1).

(6) «عيون الأثر» (1/ 33).

(7) «الروض الأنف» (1/ 74).

(8) «تاريخ الطبريّ» (1/ 233).

«وهو إبراهيمُ بن تارخ[1]».

فأين الإجماعُ المزعومُ على نفي (آزر)؟!

التنبيهُ الثاني:

قد نَقَلَ غيرُ واحدٍ من أهلِ التفسيرِ[2]، والسِّيرة[3] أنَّ «آزر اسم صَنَمٍ كانَ يَعْبُده والدُ إبراهيمَ، وإنما سمَّاه اللَّهُ بهذا الاسمِ لوجهين:

أحدُهما: أنه جعَلَ نفسَه مختصًا بعبادتِه[4]، ومَن بالَغَ في مَحَبَّةِ أحدٍ فقد يُجْعَلُ اسمُ المحبوبِ اسمًا للمُحِبِّ. قال اللَّهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ [الإسراء: 71]» كذا نَقَلَه الرازيُّ[5] دون تعليقٍ.

وكذا نَقَلَه المذكورون هنا، وغيرُهم، وإنْ لم يكن بهذا التفصيلِ، نَقَلُوه عن مجاهدٍ، والسُّدِّيِّ، وبعضهم لم يَنْسِبْه.

ولا أَذْكُرُ أحدًا تَعَقَّبَهُ.

واستدلَّ معظمُهم بآيةِ الإسراءِ المذكورةِ.

---

(1) بخاء معجمة.

(2) «الرازي» (12/ 380)، و«القرطبي» (3/ 2459)، «البحر المحيط» (4/ 561)، «ابن كثير» (3/ 282). ومن قبلِهم «الطبري» (11/ 467).

(3) «الروض الأنف» (1/ 74).

(4) أو: بخدمتِه؛ كما في بعضِ النُّقولِ.

(5) «الرازي» (12/ 380).

قلـتُ:

وفيه أمران:

الأمرُ الأوَّلُ:

قولُهـم: «ومَن بالَغَ في محبةِ أحدٍ فقد يُجْعَلُ اسمُ المحبوبِ اسمًا للمُحبِّ».

أو: «كأنه غَلَبَ عليه آزر[1] لخدمتِهِ الصَّنَم»[2].

قلـتُ:

لعلَّه من أعجبِ العَجَبِ أنْ يتناقَلَ هؤلاءِ الأئمَّةِ الجهابذةُ - رحِمَهُمُ اللَّهُ تعالى - مثلَ هذه المَقُولةِ دونَ تَمْحِيصٍ.

ثم، أين هذا في كلامِ العربِ؟!

حتى استدلالِهم بمثلِ قولِ أبي حيان[3]: «كما أُطْلِقَ على عُبَيدِ اللَّهِ بن قيسِ الرُّقَيَّاتِ[4]؛ لحبِّه نساءً اسمُ كلٍّ واحدةٍ منهنَّ (رقيَّة)، فقيل: (ابن قيس الرُّقَيَّات)».

نعم، حتى هذا الاستدلالِ، لا أراه صوابًا؛ لأنها إضافةٌ، وليست تسميةٌ

---

(1) اسم «آزر».

(2) «ابن كثير» (3/ 282).

(3) «البحر المحيط» (4/ 561).

(4) «الرُّقَيَّات» زائدةٌ هنا؛ لأن اسمَه «ابن قيس»، ثم اشتهر بـ«ابن قيس الرُّقَيَّات»، كما في آخرِ الكلامِ.

للمُحِبّ باسمِ المحبوبِ.

فهنا لم يُسَمَّ «ابن قيس» بـ«ابن رقية»، أو: «ابن الرُّقيَّات»، إنما أُضيفَ إلى مجموعِ «الرُّقيَّات»، تعريفًا بحالِه.

وكذلك «كُثَيِّر عزَّة»[1]، اشتهرَ بهذِه التسميةِ المضافةِ، بَدَلاً من اسمِ أبيه.

وليس شيءٌ من أمثالِ ذلك تسميةً صريحةً، إنما هو تعريفٌ بالإضافةِ.

ولا أرى إطلاقَ «تسميةٌ» عليه، رغم شدَّةِ التصاقِه بصاحبِه.

كذلك، فإنه أحيانًا تُستبدَلُ بالإضافةِ النسبةُ إلى المحبوبِ.

الأمرُ الثاني[2]:

استدلالُ معظمِهم - و كثيرٍ ممن نَقَلُوا ذلك - بقولِه تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: 71].

قلتُ:

رَغْمَ الخلافِ في معنى ﴿بِإِمَـٰمِهِمْ﴾، وليس معناه مُرادًا هنا، فليس استدلالُهم هذا بصحيحٍ، بل هو منَ العجبِ أيضًا من أمثالِ هؤلاء؛ لأنهم استدلوا بالآيةِ على إطلاقِ اسمِ المحبوبِ على المُحبِّ، حتى يُنادَى به.

والآيةُ يُرادُ بها كما ذَكَرَ جميعُهم - رحِمَهُمُ اللَّهُ تعالى - : «يا أتباعَ دينِ كذا»، أو: «يا أتباعَ النبيِّ فلانٍ»، أو: «يا أصحابَ كتابِ كذا»، أو: «يا

(1) الشاعرُ الجاهليُّ المعروفُ.
(2) في استدلالِهم على أنَّ «آزر» اسمُ صَنَمٍ.

شافعيُّ، يا حَنَفِيُّ. . . إلخ».

وهذه - أيضًا - إضافةٌ، لا تسميةٌ.

فأين هذا من ذاك؟!!

التنبيهُ الثالثُ:

وثَمَّةَ أقوالٌ أُخَرُ في «آزر»، نَقَلَها أهلُ التَّفسير، والتاريخِ، والسِّيَرِ، كقولِهم: «آزر، كلمةُ عَيْبٍ، أو ذمٌّ، ومعناها: مُعْوَجٌّ».

لكني لا أرَى الردَّ عليها؛ اكتفاءً بما سبقَ، وتَفَرُّغًا لما بعدُ.

التنبيهُ الرابعُ:

قد قيل - أيضًا -: بأنَّ «آزر» عمُّ إبراهيمَ - عليه الصلاةُ والسلامُ - وفي الردِّ على هذا الزَّعم أنقُلُ كلامَ الإمامِ الرازيِّ - رغْمَ طُولِهِ، لكنه كافٍ شافٍ.

الشيعةُ يدَّعون أنَّ آزر عمُّ إبراهيم:

قال الرازيُّ:

«**الوجه الرابع**: أنَّ والدَ إبراهيمَ - عليه السلام - كان (تارَح)، و(آزر) كان عمًّا له، والعمُّ قد يُطْلَقُ عليه اسمُ الأبِ، كما حَكَى اللَّهُ تعالى عن أولادِ يعقوبَ أنهم قالوا: ﴿نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [البقرة: 133] ومعلومٌ أنَّ إسماعيلَ كان عمًّا ليعقوبَ - عليهما السلام - وقد أَطلَقُوا عليه لفظَ الأبِ، فكذا ههنا.

واعلَمْ أنَّ هذه التَّكلُّفاتِ إنما يَجِبُ المصيرُ إليها لو دلَّ دليلٌ باهرٌ على أنَّ

والدَ إبراهيمَ ما كان اسمُه آزرَ. وهذا الدليلُ لم يُوجَدْ ألبتة، فأيُّ حاجةٍ تحمِلُنا على هذه التأويلات؟

والدليلُ القويُّ على صحةِ[1] أنَّ الأَمْرَ على ما يدلُّ عليه ظاهرُ هذه الآيةِ، أنَّ اليهودَ والنَّصارى والمشركين كانوا في غايةِ الحرصِ على تكذيبِ الرسولِ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم وإظهارِ بُغضِه، فلو كان هذا النَّسَبُ كذِبًا لامتَنَعَ في العادةِ سكوتُهم عن تكذيبِه، وحيث لم يُكذِّبوه علِمنا أنَّ هذا النسبَ صحيحٌ. واللَّهُ أعلَمُ.

المسألةُ الرابعةُ: قال الشِّيعةُ[2]: إنَّ أحدًا من آباءِ الرسولِ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم وأجدادِه ما كان كافرًا، وأنكروا أنْ يُقال إنَّ والدَ إبراهيم كان كافرًا، وذَكَرُوا أنَّ آزرَ كان عمَّ إبراهيمَ - عليه السلام - وما كان والدًا له.

واحتجوا على قولِهم بحججٍ:

الحجةُ الأولى: أنَّ آباءَ الأنبياءِ ما كانوا كفارًا، ويَدُلُّ عليه وجوهٌ: منها قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: 218، 219].

قيل: معناه أنه كانَ يُنقَلُ رُوحُه من ساجدٍ إلى ساجدٍ. وبهذا التقديرِ، فالآيةُ دالَّةٌ على أنَّ جميعَ آباءِ محمدٍ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم كانوا مسلمين، وحينئذٍ يجبُ القَطْعُ بأنَّ والدَ إبراهيمَ - عليه السلام - كان مسلمًا.

---

(1) لو حَذَفَها كان أَوْلى، كما سبق.

(2) في استدلالهم على نفي كون «آزر» أبا إبراهيم.

فإنْ قيل:

قولُه تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: 219] يَحتملُ وجوهًا أُخَرَ:

أحدُها: أنَّه لما نُسِخَ فَرْضُ قيامِ الليلِ طافَ الرسولُ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم تلك الليلةَ على بيوتِ الصحابةِ لينظُرَ ماذا يَصْنَعُون؛ لشدةِ حِرصِه على ما يَظهرُ منهم منَ الطاعاتِ، فوَجَدَها كبيوتِ الزَّنانيرِ؛ لكثرةِ ما سَمِعَ من أصواتِ قراءتِهم وتسبيحِهِم وتهليلِهِم.

فالمرادُ من قولِه تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: 219] طَوَافُ النبيِّ صلواتُ اللَّهِ عليه تلك الليلةِ على الساجدين.

ثانيها: المرادُ أنه صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم كان يُصَلِّي بالجماعةِ، فتَقَلُّبُه في الساجدين معناه: كونُه فيما بينهم، ومختلطًا بهم حالَ القيامِ والرُّكوعِ والسُّجودِ.

ثالثها: أنْ يكون المرادُ أنه ما يخفى حالُك على اللَّهِ كلما قُمْتَ وتقلَّبتَ مع السَّاجدين في الاشتغالِ بأمورِ الدينِ.

رابعها: المرادُ تقلُّبُ بَصَرِه فيمَن يُصلِّي خلفَه، والدليلُ عليه قولُه صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم: «أَتِمُّوا الركوع والسجود، فإني أراكم من وراء ظهري»[1].

فهذه الوجوهُ الأربعةُ مما يحتملُها ظاهرُ الآيةِ، فسَقَط ما ذَكَرْتُم[2].

---

(1) صحيح. البخاري - فتح (2/ 247)، بلفظ: «أقيموا صفوفكم؛ فإني..». أما اللفظُ المذكورُ فلَم أقِفْ عليه.

(2) للقاعدة الأصولية: «إذا وقع الاحتمالُ سقط الاستدلالُ».

فالجـوابُ: لفظُ الآيةِ محتمِلٌ للكُلِّ، فليس حملُ الآية على البعضِ أَوْلى من حملِها على الباقي[1]. فوجب أن نَحْمِلَها على الكلِّ وحينئذٍ يحصُلُ المقصودُ.

ومما يدلُّ أيضًا على أنَّ أحدًا من آباءِ محمدٍ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم ما كان منَ المشركين قولُه صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم: «لم أَزَلْ أُنْقَلُ من أصلابِ الطاهرينَ إلى أرحامِ الطاهرات»[2]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: 28]، وذلك يوجب أن يُقال: إنَّ أحدًا من أجدادِه ما كان منَ المشركين.

إذا ثبت هذا فنَقُولُ: ثَبَتَ بما ذَكَرْنا أنَّ والدَ إبراهيمَ - عليه السلام - ما كان مشركًا، وثَبَتَ أنَّ آزرَ كان مشركًا، فوَجَبَ القطعُ بأنَّ والدَ إبراهيمَ كان إنسانًا غيرَ آزرَ.

الحجةُ الثانيةُ[3] على أنَّ آزرَ ما كان والدَ إبراهيمَ - عليه السلام -: أنَّ هذه الآيَةَ دالَّةٌ على أنَّ إبراهيمَ - عليه السلام - شافَهَ آزَرَ بالغِلظةِ والجَفاءِ. ومشافهةُ الأبِ بالجَفاءِ لا تَجُوزُ، وهذا يدلُّ على أنَّ آزَرَ ما كان والدَ إبراهيمَ.

إنما قلنا: إنَّ إبراهيمَ شافَه آزَرَ بالغِلظةِ والجَفَاءِ في هذه الآيةِ لوجهين:

الأول: أنه قُرِئَ «وإذ قال إبراهيمُ لأبيه آزَرُ» بضَمِّ «آزر» وهذا يكون

(1) إلَّا بقرينةٍ بيِّنةٍ، وليس ثمَّةَ.
(2) قطعةٌ من حديثٍ، ذَكَره ابنُ الجَوزِيّ «الموضوعات» (1/ 281)، وقال: «موضوع».
(3) من حُجَجِ الشِّيعةِ.

محمولاً على النِّداءِ، ونداءُ الأبِ بالاسمِ الأصليِّ من أعظَمِ أنواعِ الجَفَاءِ.

الثاني: أنه قال لآزرَ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ وهذا من أعظَمِ أنواعِ الجَفَاءِ والإيذاءِ. فثَبَتَ [أنه صلى اللّٰه عليه وعلى آله وسلم][(1)] شافَهَ آزرَ بالجَفَاءِ.

وإنما قلنا: إنَّ مُشافَهَةَ الأبِ بالجَفَاءِ لا تَجُوزُ لوُجوهٍ:

الأولُ: قولُه تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: 23]، وهذا عامٌّ في حقِّ الأبِ الكافرِ والمسلمِ، قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا﴾ [الإسراء: 23]، وهذا عامٌّ أيضًا.

الثاني: أنه تعالى لما بَعَثَ موسى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إلى فرعونَ أمرَه بالرِّفقِ معه، فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: 44] والسبب فيه أنْ يَصِيرَ ذلك رِعايةً لحقِّ تربيةِ فرعونَ[(2)]. فهَهنا الوالدُ أَوْلَى بالرِّفقِ.

الثالث: أنَّ الدعوةَ مع الرِّفقِ أكثرُ تأثيرًا في القلب. أما التغليظُ فإنه يُوجِبُ التنفيرَ والبُعدَ عنِ القَبولِ. ولهذا المعنى قال تعالى لمحمدٍ صلى اللّٰه عليه وعلى آله وسلم: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: 125]، فكيف يَلِيقُ بإبراهيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مثلُ هذه الخُشونةِ مع أبيه في الدعوةِ؟

الرابع: أنه تعالى حَكَى عن إبراهيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - الحِلْمَ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ

---

(1) كذا، والأَوْلى: «أنَّ إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ -»، حتى لا يذهبُ الوهمُ إلى النبيِّ صلى اللّٰه عليه وعلى آله وسلم، وإنْ كان بعيدًا.

(2) أي: لموسى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قبل الرسالة.

﴿إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: 75]، وكيف يَلِيقُ بالرَّجُلِ الحَلِيمِ مثلُ هذا الجَفَاءِ معَ الأبِ؟

فثَبَتَ بهذه الوُجوهِ أنَّ آزرَ ما كان والدَ إبراهيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بل كان عمًّا[1] له، فأمَّا والدُه فهو تارَح، والعمُّ قد يُسمَّى بالأبِ على ما ذَكَرنا أنَّ أولادَ يعقوبَ سَمَّوا إسماعيلَ بِكَوْنِهِ أبًا ليعقوبَ مع أنه كان عمًّا له. وقال النبيُّ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم: «رُدُّوا عليَّ أبي»[2] يعني عمَّه العباسَ.

وأيضًا يُحتمل أنَّ آزرَ كان والدَ أمِّ إبراهيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وهذا قد يُقال له الأبُ، والدليلُ عليه قولُه تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنعام: 84] إلى قوله: ﴿وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: 85] فجَعَلَ عيسى من ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ، مع أنَّ إبراهيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كان جدًّا لعيسى من قِبَلِ الأمِّ.

وأما أصحابُنا فقد زَعَمُوا أنَّ والدَ رسولِ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم كان كافرًا، وذَكَرُوا أنَّ نصَّ الكتابِ في هذه الآيةِ يدلُّ على أنَّ آزرَ كان كافرًا، وكان والدَ إبراهيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -.

وأيضًا قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: 114] وذلك يَدُلُّ على قولِنا.

---

(1) حتى لو ثبت أنه ليس أباه، فأين دليلُ العمومة؟! ولماذا لا يكون غيرَ ذلك؟

(2) «مصنف ابن أبي شيبة» (38057) ترقيم «المكتبة الشاملة».

وأما قولُه تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: 219] قلنا: قد بيَّنا أنَّ هذه الآيةَ تَحْتَمِلُ سائرَ الوُجوهِ.

قولُه: تُحمَلُ هذه الآيةُ على الكُلِّ.

قلنا: هذا مُحالٌ؛ لأنَّ حَمْلَ اللفظِ المشتَرَكِ على جميعِ معانيه لا يَجُوزُ، وأيضًا حَمْلُ اللفظِ على حقيقتِه ومجازِهِ معًا لا يَجُوزُ.

وأما قولُه صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم: «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» فذلك مَحْمولٌ على أنه ما وَقَعَ في نَسَبِه ما كان سفاحًا[1].

أما قولُه: التغليظُ مع الأبِ لا يَليقُ بإبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قلنا: لَعَلَّه أصرَّ على كُفْرِهِ، فلأَجْلِ الإصرارِ استحقَّ ذلك التغليظَ[2] - واللَّهُ أعلم.»ا.هـ.

وهذا، آخرُ المرادِ من كلام الإمامِ الرازيِّ، نَقلتُه رغمَ طولِه لعظيمِ فائدتِهِ.

وقد تَبَيَّنَ منه بُطلانُ زعمِ مَن قال بأنَّ «آزَرَ» عَمُّ إبراهيمَ.

التنبيهُ الخامسُ:

لعلَّ قائلًا يقولُ: قد أكثرتَ، وأَطَلْتَ.

---

(1) قلتُ: وقد وردتْ بذلك أحاديثُ يصلُحُ مجموعُها للاحتجاجِ.

(2) قلتُ: بلْ، قد يُعتبَرُ مجرَّدَ وصفِ حالٍ، فلا غِلظةَ فيه.

والجـوابُ:

لا شكَّ أني أطَلْتُ، لكنْ لعلَّها إطالةٌ بِقَدْرِ ما يَحتاجُ المقامُ؛ لأهميةِ المسألةِ، وضرورتِها.

والحمدُ للَّهِ على ما هَدَى[1].

* * * * *

(1) الساعة 8.15 بعد عشاء الثلاثاء 17 من الحجة 1431، 23/11/2010م.

سورة الأعراف

1 - فــائدة

في

قــولِه تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]

هذا قولُ نوح - عليه الصلاةُ والسلامُ - لمَّا ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: 60] أجابَهم: ﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: 61، 62].

هذه وظيفتُه ﴿رَسُولٌ﴾، وهذه مَهمَّتُه ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾، لا يتعداها، وهذه طريقتُه، وسبيلُه ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾.

ثم، بيَّنَ لهم مدَى عِلْمِه، وحقيقتَه: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿أَعْلَمُ﴾ مِن أمرِ اللَّهِ، الذي أَوْحاه إليَّ، وعَلَّمني إياه؛ ما جزاؤكم إنْ أطعتم، وما أَوْعَدَكم به إنْ عصيتُم، وأعلَمُ السبيلَ التي أسلُكها في دعوتِكم.

وهذا شأنُ الرّسولِ في البَشَرِ - وللَّهِ المَثَلُ الأعلى - تُحدَّدُ له وظيفتُه، والسبيلُ التي يسلكها لأداء هذه الوظيفةِ، وقد تُحدَّدُ له بعضُ البدائلِ، أو الاختياراتُ.

لكنَّ رسولَ ربِّ العالمين شأنهُ ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أَعْلَمَه اللَّهُ تعالى بما سيكونُ منهم من إيمانٍ، أو عنادٍ، وكفرٍ ﴿وَأُوحِىَ

---

(1) [الأعراف: 60].

﴿إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: 36].

وهذا هو نفسُ معنى قولِ يعقوبَ - عليه السلام - ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 86]؛ أَعْلَمُ أنكم كِدتُم ليوسفَ، وأخيه، وكَذَبْتُم عليَّ، كما أعلمُ أنَّ اللَّهَ تعالى سيَجْمَعُني بهما بعدَ حينٍ، لكنها حكمةُ اللَّهِ تعالى، وقَدَرُه.

لذلك، ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ(1) عَلَىٰ وَجْهِهِۦ(2) فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾. قالها يعقوبُ؛ مُكَرِّرًا ومُذكِّرًا لبَنيه بقولِه السَّابقِ لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أَعْلَمُ ما سيكونُ من أمرِ اللَّهِ في قضيتِنا، بإعْلامِ اللَّهِ لي(3). واللَّهُ أعلمُ(4).

تنبيهٌ:

وإنَّ قريبًا من ذلك(5) لَما أُوحِيَ إلى أمِّ موسى - عليه الصلاةُ والسلامُ - ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7].

وكذلك ما أُوحِيَ إلى يوسفَ - عليه السلام - في صِغَرِه بحقِّ إخوته: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: 15].

* * * * *

---

(1) أي: أَلقى قميصَ يوسفَ، عليه السلام.

(2) على وجهِ أبيه يعقوبَ - عليهما السلام - كما أمرَهم يوسفُ.

(3) ولم يتعرض الشيخُ/ السعديُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - لبيانِ معنى هذه المقولةِ، ولكن، قد ذَكَرَه في سورةِ يوسفَ، فلَعَلَّه اكتفى به.

(4) الساعة 7.46 صباح السبت 19 من شوال 1427هـ ، 11/11/2006م.

(5) أعني إعلامَ اللَّهِ لبعضِ عبادِه بما سيكون فيما يأتيه من أمرٍ.

2 -فـــائدة

في

قــولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾(1)

قوله تعالى: ﴿عِبَادٌ﴾، كيف ذاك وهي حجارةٌ، أو ما أشبهها؟

قلـتُ: إما أنْ يكونَ المعنى: «مخلوقون»(2)، أو أنْ يكونَ هو ما ورد عنِ ابنِ عباسٍ - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنهما - في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرًا﴾ [نـوح: 23] مـن أنَّ هـذه أسـمـاءُ قـومٍ صالحين، فلمَّا ماتُوا زَيَّنَ لهمُ الشيطانُ أنْ يَصْنَعُوا لهم تماثيلَ، حتى زَيَّنَ لهم بعدَ عُهُودٍ أنْ يعبدُوها(3)(4)(5).

(1) [الأعراف: 194].

(2) وقريبٌ من ذلك، أو هو نفسُ المعنى قولُ الآلوسي (5/ 134): «أي: مماثِلةٌ لكم من حيث إنها مملوكةٌ للَّهِ تعالى، مُسخَّرةٌ لأمرِه عاجزةٌ عنِ النفعِ والضُّرِّ. كما قال الأخفش».

(3) صحيح. البخاريُّ - التفسير «سورة نوح» (8/ 535)، فتح.

(4) وقال الشيخُ/ السعديُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى -: «لا فَرْقَ بينكم وبينهم، فكُلُّكم عَبيدُ اللَّهِ مملوكون».

قلتُ: ولا أعرفُ وصفَ الحجارةِ بأنها «عَبِيدُ اللَّهِ». أمَّا كونها مملوكةً فصحيحٌ.

ولكنْ، لعلَّه - رحِمَه اللَّهُ تعالى - يقصدُ المعنى الذي ذكرتُه «مخلوقون». واللَّهُ أعلمُ.

(5) الساعة 10.15 ليل الثلاثاء 8 شوال 1424هـ ، 2/ 12/ 2003م.

1- البقاعيُّ:

«﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أي في العَجْزِ عن كُلِّ شيءٍ، لا سيما عَمَّا وقَعَ به التحدِّي من مُعارضَةِ القرآنِ[1] وغيرِها، وأنتم تَزيدون عليها[2] بالحياةِ والعقلِ، والمعبودُ لا يصح أنْ يكونَ مِثْلَ العابِدِ، فكيف إذا كان دونَه؟!!»

«ولمَّا كان المَقامُ محتاجًا إلى مَزيدِ تَوْبيخٍ وإلهابٍ قَدَّمَ منه ما رأيتَ[3]» تَمَّ.

تنبيهٌ أوَّلُ:

زاد في الإلهابِ فقال: ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أي: جِبِلَّةً وطبعًا ﴿صَٰدِقِينَ﴾. أي: في دعوى أنهم آلهة...».

تنبيهٌ ثانٍ وفائدةٌ:

«﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾... دعاءَ عبادةٍ مُلازمين لذلك، أو أنه أَطلقَ الدعاءَ على العبادةِ؛ إشارةً إلى أنه لا تَصِحُّ عبادةُ مَنْ ليس فيه قابليةُ أَنْ يُدْعَى. والحاصلُ أنَّ الدُّعاءَ يُلازمُ المعبودَ»[4].

2- الطبريُّ:

«هم أَملاكٌ[5] لِربِّكم، كما أنتم له مماليك...».

---

(1) في الإتيانِ بمثلِهِ، أو بِعَشْرِ سُوَرٍ، أو بِسُورةٍ، أو بآيةٍ واحدةٍ.
(2) تلك المعبودات.
(3) «نَظْمُ الدُّرِ في تناسُبِ الآياتِ والسُّوَرِ».
(4) السابق.
(5) (13/ 321)، ويعني: مَمْلُوكون.

3- القُرْطُبيُّ:

«وسُمِّيتِ الأوثانُ عِبادًا؛ لأنها مملوكةٌ للّهِ مُسخرةٌ. الحَسَنُ: المعنى أنَّ الأصنامَ مخلوقةٌ أمثالَكُم. ولما اعتَقَدَ المشركون أنَّ الأصنامَ تَضُرُّ وتَنفَعُ. . .».

تنبيهٌ: أجراها مجرى النَّاسِ، فقال: ﴿فَٱدْعُوهُمْ﴾ ولم يَقُلْ: «فادعوهن» وقال: ﴿عِبَادٌ﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ ولم يقل: (إن التي). .».

4- البَغَوِيُّ[1]:

«يريد أنها مملوكةٌ أمثالَكم. وقيل: أمثالُكم في التَّسخيرِ، أي أنهم مُسخرون مُذلَّلون لما أُريدَ منهم».

5- البحر المحيط:

«أمثالُكم في الخَلْق، أو في المِلكِ، فلا يمكنُ أنْ يكونوا آلهةً».

6- الكشاف:

«﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ استهزاءٌ بهِم، أي: قُصارَى أمرِهم أنْ يكونوا أحياءً عُقلاءَ، فإنْ ثَبَتَ[2] فهم عبادٌ أمثالُكم، لا تَفاضُلَ بينكم. ثم، أَبْطَل أنْ يكونوا عبادًا أمثالَكم، فقال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ﴾».

---

(1) بفتحِ الباء، وكسرِ الواو. كذا صوابُ ضَبْطِه.
(2) ولا يثبُتُ.

7- اللُّباب:

«في الآية سؤالٌ، وهو أنه كيف يَحْسُنُ وَصْفُ الأصنامِ بأنها ﴿عِبَادٌ﴾ مع أنها جمادات؟

والجـوابُ من وجـوهٍ:

أحدُها: «. . . وَفْقَ اعتقادِهم؛ ولهذا قال:

﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾، ولم يقل: «التي».

وثانيها: أنَّ هذا اللفظَ وَرَدَ في مَعرِضِ الاستهزاءِ بهم؛ أي: مُرُوهُمْ أنْ يكونوا أحياءَ عُقَلاءَ. . .

ثالثُها: قال مقاتلٌ: «الخطابُ مع قومٍ كانوا يعبدون الملائكةَ».

8- التحرير والتَّنوير:

«المرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الأصنامُ؛ فتعريفُها بالموصولِ لِتنبيهِ المخاطَبين على خطأِ رأيِهِم. . . .

و«العبد» أصلُه المملوكُ. . . وقد أُطْلِقَ في اللسان[1] على المخلوقِ؛ كما في قولِه تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: 93]. . . والمشهورُ أنه لا يُطْلَقُ إلّا على المخلوقاتِ مِنَ الآدميين، فيكونُ إطلاقُ العبادِ على الأصنامِ كإطلاقِ ضميرِ جمعِ العُقَلاءِ عليها، كيف مع قوله: «لا يطلق».

(1) اللغة.

تنبيهٌ:

لا أرى هذا المجاز - بِناءً على الشائعِ في استعمالِ العربِ يومئذٍ - منَ الإطلاقِ».

والأَحسَنُ عندي[1] أنْ يكونَ إطلاقُ العبادِ عليهِم مجازًا بعلاقة الإطلاقِ عن التقييدِ، رُوعِيَ في حُسنِه المشاكلةُ التقديريةُ... وفرَّع على المماثلة أمرَ التعجيز بقوله: ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ﴾...».

9- البحرُ المَديدُ:

«﴿عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾؛ من حيث إنها مُسَخَّرَة مملوكةٌ، ... ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ﴾ والأمرُ للتعجيزِ...».

* * * * *

(1) القائلُ هو الطاهرُ بنُ عاشور، صاحب «التحرير».

3 - فـــائدة

في

قـولِه تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾[1]

قلـتُ:

لفظٌ مُعْجِزٌ؛ فإنَّ اللَّهَ تعالى لم يَنْفِ الأعضاءَ عن هذه الأوثانِ[2]، إنما نَفَى عنها وظائفَ هذه الأعضاءِ، كما نَفَى سبحانه عنِ الكافرين انتفاعَهُم بأعضائِهِمُ التي خَلَقَها لهم[3][4].

تنبيهٌ أوّلُ:

ثم، وجدتُ في «تفسيرِ أبي السُّعود»[5]:

«تَبْكِيتٌ[6]، إِثْرَ تبكيتٍ[7]، موكِّدٌ لما يُفيدُه الأمرُ التعجيزيُّ من عَدَمِ

(1) [الأعراف: 195].

(2) فإنهم صَنَعُوها على هيئةِ الإنسانِ، أو الحيوانِ بجوارِحِه؛ أي: إنها ليست مجرَّدَ حجارة صمَّاء، إنما قد صوروها على هيئةِ مخلوقاتٍ بجوارحِها، فمنها ما صَوَّروه على هيئةِ الإنسانِ بجوارحِهِ الظاهرةِ كاملةً.

(3) في مِثلِ قولِه تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179].

(4) الساعة 10.30 ليل الثلاثاء 8 شوال 1424هـ ، 2/ 12/ 2003م.

(5) (3/ 306)، وقد ذكر الآلوسِيُّ، والزمَخْشَرِيُّ نفسَ المعنى.

(6) يعني الاستفهام الإنكاري في أول الآية ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ﴾.

(7) يعني ما سَبَقَ في الآيةِ قبلَها منَ التعجيزِ المتضمِّنِ في قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ بعد قولِه تعالى: ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾.

الاستجابةِ ببيانِ فُقدانِ آلاتِها بالكُلّيةِ، فَإنَّ الاستجابةَ منَ الهياكِلِ الجُسمانيةِ إنما تُتَصوَّرُ إذا كان لها حياةٌ، وقُوَى محركةٌ، ومُدْرِكَةٌ...».

قوله: «ببيانِ فُقدانِ آلاتِها بالكُلّيّةِ» لا أراه صوابًا؛ لِأمْرَين:

الأولُ: أنهم صَنَعوا ما صَنَعُوه منها على صورةِ البشرِ بيَدَينِ، ورِجْلَينِ، كما صَوَّرُوا فيها الرأسَ بالعَينينِ، والأُذُنَينِ، لكنَّها كما بَيَّن ربُّنا - جَلَّ في عُلاه - أَيْدٍ لا تَبْطِشُ، وأرجُلٌ لا يَمْشُونَ بها، وأعينٌ لا يُبصِرُونَ بها، كما أنَّهم بآذانِهِم لا يَسْمَعون[1].

الثاني: أنَّ اللَّهَ تعالى وَصَفَ الكفَّارَ بأنَّهم ﴿لَّا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: 21]، وبأنَّهم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ﴾ [البقرة: 171] مع أنه سبحانه خَلَقَ لهمُ الآذانَ، والألسنةَ.

فهذا دليلٌ على أنَّ المرادَ تَعْطيلُ تلك الجوارحِ[2]، لا نَفْيُ وجودِها.

قولُه: «فإنَّ الاستجابةَ منَ الهياكِلِ...» لا أراه - أيضًا - صوابًا؛ لأنَّ «الهيكل» هو «التمثالُ». والتمثالُ يُصْنَعُ، أو يُنْحَتُ، من حَجَرٍ، أو خَشَبٍ، أو ما شابَهَ ذلك.

فكيف تكونُ رُوحٌ في هَيْكَلٍ مَصْنُوعٍ؟!!!

وأمَّا «الهياكل الجسمانية» فلا أعرِفُها. إنما المعروفُ المشهورُ «هيكَلٌ عَظْمِيٌّ».

---

(1) وكذلك ما صَوَّرُوه من تلك الأصنامِ على هيئةِ الحيوانِ، أوِ الطَّيرِ، فإنَّما صَوَّرُوه بجوارِحِهِ، لكنَّها ليستْ جوارحَ حقيقةً.

(2) كما بيَّنتُ في الفائدةِ.

وهذا - أيضًا - لا تكون فيه رُوحٌ؛ فإنه مَرْحَلَةٌ في الخَلْقِ سابقةٌ على نَفْخِ الرُّوحِ، أو مرحلةٌ في الموتِ بعد خُرُوجِ الرُّوحِ. واللَّهُ أعلمُ.

تنبيهٌ ثانٍ:

وقال ابنُ عادل[1]:

«. . . لأنَّ هذه الأعضاءَ الأربعةَ[2] إذا كان فيها القُوَى المحرِّكَةُ والمُدْرِكَةُ كانت أفضَلَ منها إذا كانت خاليةً عن هذه القُوَى. . . . . .

وإذا ثبت ذلك ظَهَرَ أنَّ الإنسانَ أفضَلُ بكثيرٍ منَ الأصنامِ، بل لا نِسْبَةَ لِفَضِيلَةِ الإنسانِ إلى فَضِيلَةِ الأصنامِ ألبَتَّةَ».

قولُه: «إذا كان فيها القُوَى المُحَرِّكَةُ كانت أَفْضَلَ»، صحيحٌ من حيث النَّظَرِ إلى أعضاءِ الإنسانِ في حالِ صِحَّتِها، وحالِ مَرَضِها.

أمَّا والكلامُ عن أعضاءِ الأصنامِ المصنوعةِ، فلا يَصِحُّ بحَالٍ؛ إذْ لا مقارنةَ بين المخلوقِ والمصنوعِ بحالٍ. ومَن قارَنَ فهو مَخْبُولٌ.

وقولُه:

«وإذا ثَبَتَ ذلك[3] ظَهَرَ أنَّ الإنسانَ أفضَلُ بكثيرٍ منَ الأصنامِ، بَلْ لا نِسبَةَ. . . إلخ».

---

(1) «تفسير اللُّباب».

(2) المذكورةُ في الآيةِ.

(3) أفضليةُ الأعضاءِ، أو الجوارحِ الصحيحةِ من كلِّ عِلَّةٍ.

لا يَصِحُّ منه إلَّا آخرُه: «بلْ لا نِسْبَةَ. . . إلخ»؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70].

ثم، أُعيدُها: لا مقارنةَ بينَ المخلوقِ والمصنوعِ.

والحمدُ للَّهِ على ما وَفَّقَ، وهَدَى[1].

* * * * *

(1) الساعة 10.00 صباح الأحد غرة الحجة 1431هـ ، 7/ 11/ 2010م.

4 - فـــائدة

في

قـولِه تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۦيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1]

ما مناسبة ﴿نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ لِلوِلايةِ؟

والجوابُ:

قال القاسميُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى -:

«﴿إِنَّ وَلِـِّۦيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾، تعليلٌ لعدم المبالاةِ[2]، المنفَهِم من السَّوْقِ[3] انفِهامًا جليًّا. أي: الذي يتولى حِفْظِي ونُصرَتي هو اللَّهُ الذي أنزَل الكتابَ المشتَمِلَ على هذه العُلومِ[4] العظيمةِ النافعةِ»[5].

ونَقَلَ عن «تفسيرِ أبي السعود» (3/ 307) قولَه: «ووصْفُه تعالى بتنزيلِ الكتابِ؛ للإشعارِ بدليلِ الوِلايةِ[6]، والإشارةِ[7] إلى علَّةٍ أُخرى لِعَدَمِ

---

(1) [الأعراف: 196].

(2) أي: عدمُ مبالاةِ النبيِّ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم بآلهةِ المشركين؛ لأنه نبيُّ اللَّهِ، واللَّهُ ناصِرُه ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: 51]، ولأنَّ تلك الآلهةَ ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: 192].

(3) يعني سَوْقَ الآياتِ الدَّالَّ على ذلك، وهو السياقُ.

(4) يعني الأدلةَ، والبراهينَ، وما يندرجُ تحتَها.

(5) «تفسير القاسمي» (5/ 244).

(6) المذكورةِ في القرآن، في مثلِ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 257].

(7) عطفٌ على «للإشعار».

المبالاةِ. كأنَّه قيل: (لا أُبَالِي لَكُم وبِشُرَكائِكُم)[1]؛ لأنَّ وَلِيِّيَ هو اللَّهُ الذي نزَّل الكتابَ الناطِقَ بأنه وَلِيِّي وناصِري، وبأنَّ شركاءَكم لا يستطيعون نَصْرَ أنفسِهم، فضلاً عن نصرِكم[2]، وقولُه تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تَذْييلٌ مُقرِّرٌ لما قبلَه. أي: ومِن عادتِه سبحانه أنْ يتولَّى الصالحين من عبادِه، وينصرَهم ولا يَخْذُلَهم. وفيه تعريضٌ لمن فقَدَ الصلاحَ بالخُذلانِ والمَحْقِ»[3].

هذا حقٌّ لا مِريةَ فيه، وهو مُرادٌ منَ الآيةِ بلا شكٍّ.

وفي الآيةِ - أيضًا - أمورٌ أُخَرُ:

الأولُ - قولُ النبيِّ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم - في هذه الآية: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وصفًا للَّهِ تعالى، دليلٌ على بَداهةِ ﴿وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ﴾؛ فهو الذي أرْسَلَني، ولا يكونُ الرسولُ وليًّا لغيرِ المرسِلِ[4]، الذي أرسَلَه. فلا بدَّ أنَّه مُؤَيِّدِي وناصِري.

الثاني - أنَّ ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ عليَّ، هدًى ونورًا، لمن شاء من عبادِه ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[النحل: 89]؛ لحاجتِكم إلى الهُدَى، والبيانِ، وحجَّةً عليكم، الذي فَعَلَ ذلك هو سبحانه الذي يستحقُّ أن أتَّخِذَهُ وليًّا.

---

(1) كذا في «تفسير القاسمي» والصواب: «لا أبالي بكم وبشركائكم» بالباء الموحدة تحت في أوَّلِ كلٍّ منهما.

(2) كما في [الأعراف: 192].

(3) «تفسير القاسمي» (4/ 244، 245).

(4) وهذا - أيضًا - معروفٌ في البشرِ، وللَّهِ المثلُ الأعلى.

وهذا أيضًا - «للإشعارِ[1] بدليل الولاية[2]»[3].

الثالث - ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ﴾ الذي له ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [المائدة: 120] لأنَّه ﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾ [يس: 81]، بينما آلهتُكم ليسَ واحدٌ منها ﴿يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: 191].

﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ﴾ ، الذي ﴿يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: 62]، بخلافِ آلهتِكم، الذين ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [الفرقان: 3].

الرابع - ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ لأنه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: 81] الذي ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾ [سبأ: 3].

الخامس - ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ والذي له مُطلَقُ هذا الكمالِ، فـ ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ [الأنعام: 81]، فـ ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: 195]، فاللّهُ ﴿يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

فماذا عساكم تفعلون؟!

هذا ما يظهَرُ من سياقِ الآيات (191 - 198)، والذي يتضمَّن هذه الآيةَ.
واللّهُ أعلمُ[4].

* * * * *

---

(1) أي: للتعريف.

(2) أي: لما اتخذه اللّهُ وليًا.

(3) «تفسير القاسمي» (4/ 244).

(4) الساعة 9.42، بعد عشاء الثلاثاء 4 من المحرم 1428هـ ، 23/ 1/ 2007م.

سورة الأنفال

1 - فـــائدة

في

قــولِه تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾(1)

كان ذلك في (غزوة بدرٍ)، وكان المسلمونَ ثَلاثِمائةً، بينما كان المشركون تِسعْمائةً. ثم، إنَّ المسلمين كانوا قد خَرَجُوا مع رسولِ اللّه صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم لاعتراضِ عِيرِ قريشٍ في عودتِها بتجارةِ الشامِ - أي إنَّهم لم يَخْرُجوا للقتال، ولم يستعدوا له - ولكنهم لم يُدرِكوا تلك العيرَ؛ لأنَّ أبا سفيانَ كان قد عَلِمَ بخُروجِ المسلمين لاعتراضِه، فغيَّر طريقَه، وأَرسَلَ إلى قريشٍ يَستَنفِرَهُم لحمايةِ تجارتِهم.

فلمَّا رأى النبيُّ صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم ذلك، استشارَ مَن معه منَ الصحابةِ - رضِيَ اللّهُ تعالى عنهم - وخصَّ الأنصارَ بهذه المَشُورةِ، فقال قائِلُهم، وهو سعدُ بنُ مُعاذٍ - رضِيَ اللّهُ تعالى عنه -: «لو اسْتَعْرَضْتَ بنا هذا البحرَ فَخُضتَهُ لخُضناهُ معك»(2).

وأرادَ اللّهُ - جَلَّ في عُلاه - تثبيتَ المسلمين، وجعَلَ لذلك أسبابًا، منها:

---

(1) [الأنفال: 44].

(2) «السيرة» لابن هشام (2/ 615)، و«سيرة ابن كثير» (2/ 392).

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: 43]، فأُخبر بذلك الصحابةُ - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنهم - فكان ذلك تشجيعًا لهم وتثبيتًا.

ومن أسبابِ التثبيتِ والإقدامِ: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ فكان سببًا في الإمعانِ في الإقدامِ، وهو من أسبابِ النصرِ.

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾(1) فكان سببًا في الاستهانةِ، وهي من أسبابِ الهزيمةِ، ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾(2) وهو نَصْرُ المسلمين على المشركين في أُولَى معارِكِ الإسلام ضدَّ الشِّركِ، مما كان سببًا في زيادةِ رُوحِ الفِداءِ في الصحابةِ - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنهم أجمعين.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، تصريفُها وتدبيرُها، فيَقْضِي بإذنِه ما يشاء، فهو سبحانه إنما ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82](3).

* * * * *

(1) قال الشيخُ/ السعديُ - رحِمَه اللَّهُ تعالى -:
«فكلٌ منَ الطائفتين تَرَى الأخرى قليلةً، لِتُقدِمَ كلٌ منهما [على] الأُخرى».
تنبيهٌ أوّلُ: حقًّا ما قالَ الشيخُ، ولكنْ لا يستوي إقدامٌ بجُرأةٍ، وإقدامٌ باستهانةٍ واستخفافٍ؛ فالأولُ من أسبابِ النصرِ - بإذنِ اللَّهِ - والثاني من أسبابِ الخُذلانِ والهزيمةِ.
تنبيهٌ ثانٍ: كلمة «على» ساقطةٌ منَ التفسيرِ.

(2) قال الشيخُ/ السعديُ - رحِمَه اللَّهُ تعالى -:
«من نَصْرِ المؤمنين، وخُذلان الكافرين وقَتْلِ قادَتِهِم، ورؤساءِ الضلالِ منهم، ولم يَبْقَ منهم أحدٌ له اسمٌ يُذكَر، فيتيسَّرُ بعد ذلك انقيادُهم - يعني عمومَ المشركين - إلى الإسلامِ، فصار أيضًا لُطفًا بالباقين الذين مَنَّ اللَّهُ عليهم بالإسلامِ» (التفسير/ 283).
قلت: وهو كلامٌ جيِّدٌ، وتصويرٌ طيِّبٌ.

(3) الساعة 7.30 صباح الأحد 3/ 12/ 1424هـ ، 25/ 1/ 2004م.

سورة التوبة

1 - فـــائدة

في

قـولِه تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[1]

الـكـلامُ عـن عـذابِ ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 34].

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: 35].

ثم، جاء التعليقُ على هذا المشهَدِ: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾.

فلَمَّا كان قولُه تعالى: ﴿هَٰذَا﴾ إشارةً إلى ألوانِ العَذابِ المذكورةِ في الآيةِ، وكأنَّ العذابَ هو المكنوزُ؛ لأنَّه عاقبةُ مخالفةِ أمرِ اللَّهِ تعالى؛ لما كان كذلك ناسَبَ أنْ يكون التعقيبُ: ﴿فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾، فليس الكَنزُ يُذاقُ، إنما العذابُ.

ويُمْكِن أنْ تكونَ الإشارة بـ﴿هَٰذَا﴾ إلى الذَّهَبِ والفِضة بعد أن ﴿يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾، وكأنَّهم يُعذَّبون بأَجْرامِها بعد أنِ اشتدَّت حرارتُها، ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾.

---

(1) [التوبة: 35].

وكأنَّ اللَّهَ تعالى أراد أنْ تظلَّ أجرامُ الذهب والفضةِ[1] كما هي - رغْمَ شدَّةِ حرارةِ نَارِ جَهَنَّمَ - تنكيلاً بأصحابِها الذين كَنَزُوها.

وعلى هذا التوجيه فإنهم يَذُوقون ثلاثةَ أنواعٍ منَ العذاب:

الأولُ - عذابُ الكَيِّ.

الثاني - عذابُ أنْ يكون ذاتُ الكَنزِ هو ما يُعذَّبُ به صاحبُه.

الثالثُ - ما كانوا لاقَوْه من عذابِ جمعِ الذهب والفِضَّةِ في الدنيا.

ويبقى التعقيبُ:

﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ كما ذكرتُ، يَبْقى لهم حَسْرَةٌ ونَدَامةٌ.

واللَّهُ أعلم[2].

* * * * *

(1) المكنوزَين.

(2) الساعة 7.55 - توقيت عادي - صباح الأحد 30 رجب 1426هـ ، 4/ 9/ 2005م.

2 - فـــائدة

في

قـولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(1)

الآيـةُ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ فـي مـقـابِـلِ ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [التوبة: 67].

ثم، تَذْكُرُ الآيةُ ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ في مُقابِلِ صفاتِ المنافقين ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾.

ثم، ذَكَرتِ الآيةُ بعد إقامةِ الصلاةِ ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ في مقابلِ ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾.

وأَعْقَبَ ذلك ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في مقابلِ ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾.

ثم، جاء الجزاءُ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ في مقابلِ ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

ثم، جاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ختامًا لآيةِ ذِكْرِ المؤمنين.

ولا مُقَابِلَ لهذا الختامِ في آيةِ ذِكْرِ المنافقينَ.

فما مناسبةُ هذا الختامِ لِما جاء في آيةِ ذِكْرِ المؤمنين أو لهذا السياقِ؟

---

(1) [التوبة: 71].

لو قلنا كما قال الشيخُ/ السعديُّ - رحِمَه اللّٰهُ تعالى - وغيرُه من المفسرين:

«﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: قويٌّ قاهرٌ، ومع قوتِه فهو[1] حكيمٌ، يضعُ كلَّ شيءٍ موضعَه اللائقَ به، الذي يُحمَدُ على ما خَلَقَه وأمرَ به».

لو قلنا مع مَن قال ذلك لكنَّا مُحِقِّين ومؤدِّين معنًى صحيحًا، لكنَّ هذا القولَ لا يدلُّنا على المناسبةِ المسئولِ عنها.

ولذلك أقولُ - مستعينًا باللّٰهِ:

العقلُ البشريُّ القاصرُ، والنظرُ المحدودُ يقتضي ذِكرَ الرحمةِ - مثلًا - مع ذكرِ الإيمانِ؛ خصوصًا أنَّه جاء قبلَ خِتامِ الآيةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾.

لكنَّ حكمةَ الحكيمِ اقتضَتْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وذلك - واللّٰهُ أعْلَمُ - لِأَمْرَين:

الأولُ - أنه قد جاءت هذه الآيةُ تاليةً لآياتِ المنافقين، وإخوانِهم الكافرين، وكان آخرُ هذه الآياتِ أربعًا [التوبة: 67 - 70] خُتِمتْ بـ ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾؛ عَسَى أنْ يَتَّعِظَ القومُ ويعتبروا بمَن سبقهُم ممن كفَرَ وكذَّبَ.

فناسَب ذلك تهديدٌ ووعيدٌ في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

---

(1) سبحانه.

الأمرُ الثاني - أنَّ ذِكْرَ العِزَّةِ مع الحكمةِ ختامًا لآيةِ ذِكْرِ المؤمنين إنما جاء بشارةً لهؤلاءِ المؤمنينَ الذين آمنوا باللَّهِ، واستجابوا لأَمْرِه، ﴿وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ﴾ [التوبة: 86]؛ فإنَّ العزيزَ هو اللَّه، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: 44].

فَسَيُنزِلُ بأولئك المنافقين مِن صُنُوفِ العذابِ مِثلَ ما أَنْزَلَ بأسلافِهِمُ السَّابقين؛ ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: 45].

ولذلك، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [التوبة: 72] ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فكانتِ البِشارةُ.

ثم، جاء تاليًا لهاتَيْنِ الآيتين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾؛ ولا يكون جهادٌ بلا تَمْكِينٍ، ولا يكون، ولا يُمْكِن ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ إلَّا مع غَلَبَةٍ؛ فكانتِ البِشارةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

إنه ﴿حَكِيمٌ﴾.

هذا، واللَّهُ أعلمُ(1).

* * * * *

---

(1) الساعة 11.32 ليل الأربعاء 16 من شوال 1427هـ ، 8/ 11/ 2006م.

3 - فـــائدة

في

قـولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(1) ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(2) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(3)

لمَّا قالَ اللَّهُ تعالى في الأُولَى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ خَتَمها بقولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما كان، وما سيكون منهم، ﴿حَكِيمٌ﴾ اقتضَتْ حِكمتُه سبحانه ذلك، وأنْ يَتْرُكَهم على هذا الحالِ، بعضُهم أبدًا، وبعضُهم إلى حينٍ.

ولمَّا قال سبحانه في الثانيةِ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ ناسَبَهُ خَتْمُها بـ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما أعلنوا، وما أسرُّوا، لا يَخفى عليه منه شيءٌ؛ لأنه ﴿عَلِيمٌ﴾؛ ولذلك أَخْبَرَ بمَصِيرهِم ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [التوبة: 98].

ولمَّا قال سبحانه في الثالثةِ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ ناسَبَ أنْ يكون خِتَامُها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما كان وسَبَقَ منهم، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بِهِم، لا يُكَلِّفُهُم ما لا يُطيقون.

---

(1) [التوبة: 97].
(2) [التوبة: 98].
(3) [التوبة: 99].

ثم، إنه يَزيدُهم مع المغفرةِ أنْ ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: 70].

وفَوْقَ ذلك، يُنعِمُ عليهِم بِرِضْوانِه ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 15].

واللَّهُ أعلمُ.

تنبيهٌ: كما اعتَدْنا، لم يتعرضِ الشيخُ/ السعديُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - للمُرادِ من هذه الأسماءِ الحُسنى إلَّا في نِطاقِ المعنى العامِّ لهذه الأسماءِ، كشأنِ غالبِ المفسِّرين.

ولكنْ، قد وَقَعَ خَلْطٌ في تفسيرِ الآيتينِ الأُولَيين، فَلَمْ يَذْكُرْ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فليُتنَبَّه[1].

* * * * *

(1) الساعة 8.25 صباح 19 من شوال 1427هـ، 11/11/2006م.

سورة يونس

1 - فــائدة

في

قــولِه تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ﴾[1]

المعنى: «ليس ذلك إليَّ، إنما أنا مُبلِّغ عنِ اللَّهِ تعالى»[2].

وهذا، هو ما عليه كلُّ المفسرين، فيما أَذْكرُ.

وأرى في الآيةِ نُكْتَةً لطيفةً، تتمثَّلُ في أَمْرَيْنِ:

الأولُ - إشارةٌ إلى وقوعِ النَّسْخِ في القرآنِ، ولمَّا كان النَّسْخُ تَبْدِيلاً لبَعْضِ القُرآنِ، تلاوةً، أو حُكمًا، أو كلاهما معًا[3]، كان:

الثاني - أنَّ ذلك النَّسْخَ - الذي هو تَبْدِيلٌ - و«ليس إليَّ»[2]؛ إنما هو من أمرِ اللَّهِ تعالى، إذا شاءَه.

قلـتُ:

وفيه دَحْضٌ لاعتراضاتِهم عندما يَقَعُ النَّسْخُ؛ لِأَنَّهُم سيقولون حينذاك: «بدَّلَ محمدٌ في القرآنِ» وحاشاه أنْ يفعلَ.

---

(1) [يونس: 15].

(2) «تفسير القاسمي» (6/ 13).

(3) كما هو معروفٌ في مظانّه من كتب علوم القرآن، والأصول.

ومن ذلك، لمَّا قالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ [البقرة: 140]، جاء الجواب: ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾؛ لأنه الخالقُ، فهو الذي أمَرَ - أولاً- باستقبال المسجدِ الأقصى في الصلاةِ، وهو سبحانه الذي أَمَرَ - بعد ذلك - باستقبالِ المسجدِ الحرامِ، فـ ﴿لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: 31].

لذلك، لا أرى الصوابَ أنْ يُكتفى بأنْ يقالَ في معنى هذا الجزءِ من الآيةِ: «ليس ذلك إليَّ»، إنما يَجِبُ أنْ نَزيدَ: إنما هو إلى اللّهِ تعالى، الذي أَنْزَلَه عليَّ، وأمَرَني بإبلاغِهِ إليكم، حينما شاء ذلك.

فإنْ شاءَ اللّهُ إبدالَ شيءٍ منه أبدَلَه، كيفما شاء، وعليَّ - حينذاك - إبلاغُه إليكم، كما أبلغتُكم ما كان أولاً

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

هذا ما كُلِّفتُ به، لا أتعدَّاه ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. واللّهُ أعلمُ.

لطيفةٌ وبيانُها:

نقل القاسميُّ[1] عن الزمخشريِّ[2] في بيانِ غَرَضِ المشركين - فيما عرَضَه القرآنُ - من اقتراحِهم: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: 15] قالَ:

---

(1) «محاسن التأويل» (6/ 13).

(2) «الكشاف» (2/ 224).

«فإنْ قُلْتَ: فما كان غَرَضُهم - وهم أَذْهَى الناسِ وَأَمْكَرُهم[1] - في هذا الاقتراحِ؟ قلتُ: الكيدُ والمكرُ[2].

أما اقتراحُ إبدالِ قرآنٍ بقرآنٍ[3]، ففيه أنَّه[4] من عندِك، وأنك قادرٌ على مثلِهِ[5]، (فأبدل مكانه آخر)[6].

وأما اقتراحُ التبديلِ والتغييرِ[7]، فلِلطَّمَعِ[8]، ولاختبارِ الحال[9]، وأنه إنْ وُجدَ منه تبديلٌ[10] فإمَّا أنْ يُهلِكَه اللَّهُ[11] فينجوا[12] منه. أو لا يُهلِكُه فيَسْخَرُوا منه[13]، ويجعلوا التبديلَ حجةً عليه، وتصحيحًا لافترائِه على اللَّهِ[14]. انتهى».

---

(1) أي: فلا بد - وهذا وَصْفُهم - أن يكون لهم غَرَضٌ دفينٌ، خبيثٌ.

(2) معًا، أو أحدُهما.

(3) أي بكامله.

(4) لو فَعَلَهُ النبيُّ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم.

(5) تأكيدًا لقولهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾.

(6) أراها لغوًا؛ لأنه إن وافقَهم صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم - وحاشاه - يكون قد تمَّ لهم ما أرادوا، وقامت لهم الحجةُ عليه، فلا يطلبون تبديلاً آخر.

(7) أي: لبعض القرآن.

(8) في تحقيق ما أرادوا.

(9) حالُ النبيِّ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم، وكيف حالُه مع ما يدعوهم إليه.

(10) من عند نفسِه، وحاشاه صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم.

(11) لأنه يكون - حينذاك - قد افترى على اللَّه كذبًا، وحاشاه صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم.

(12) أي: ينجون هم من هذا الإهلاكِ والعذابِ الذي يَتَوَعَّدَهم به النبيُّ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم، ويتخلصون مِنَ النبيِّ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم.

(13) إذ كيف يكون من عندِ اللَّهِ ويتصرَّفُ هو فيه وَفقًا لطلبِهم؟ فهذا تناقضٌ.

(14) كما زعموا.

وهذا، كلامٌ جيدٌ نفيسٌ.

ثم، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 16].

أي: ﴿قُل﴾ لهم يا محمدُ ﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ ما أمَرَني بإبلاغِ القرآنِ وما فيه إليكم؛ فإني ما أَبلغتُكُمُ القرآنَ إلَّا بأمرِ اللَّهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: 67]. ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾، ولا جَعَلَ لكم أيَّ سبيلٍ للعِلْمِ به؛ ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ من قبلِ أنْ يُنزَّلَ عليَّ هذا القرآنُ.

وقد عَلِمتُم حالي طوالَ هذه السنين، التي قضيتُها بينكم، وأني لم أَكذبْ على بشرٍ، فكيف أكذِبُ على اللَّهِ؟!

وقد كنتُ أُميًّا لا أقرأُ، فكيف أَتَتْني هذه الفَصَاحةُ؟ ومن أين؟ ولماذا الآنَ بعد هذا العُمُرِ؟

ثم، كيف أعجَزَتْكم هذه الفصاحةُ، التي جئتُ بها، فلم تستطيعوا أن تأتوا ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: 38]، ولا حتى بآيةٍ، مع أنكم أهلُ الفصاحةِ، والبلاغةِ؟!

وهل كان فيكم مَن أَخْشَى سَطْوتَه، أو فصاحتَه، وبلاغتَه، فانتظرتُ موتَه، فقلتُ ما قلتُ بعدَه؟!

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ كلَّ هذه الأدلةِ والبراهين؟

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ ما جاء في هذا القرآنِ من أمورٍ غيبيةٍ، وأمورٍ كانت[1]، لا يُمْكِنُ أنْ يَعْلَمَها بشرٌ واحدٌ، وحدَه؟!

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ «فتَعْلَموا أنه ليس إلَّا منَ اللَّهِ، لا من مثلي»[2]، فتُسَلِّموا لأَمْرِ ربّكم وتُسْلِمُوا.

هذا. واللَّهُ أعلمُ، والحمدُ للَّهِ على ما هدى[3].

* * * * *

(1) أي: وَقَعَتْ، وسَبَقَت قبلكم، وهي أيضًا غيبٌ بالنسبةِ لهم.

(2) وقريبٌ منه قولُ القاسميِّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - (6/ 14). أما «تفسير السعدي» (316) فلم أر فيه - هنا - شيئًا يُذكر.

(3) الساعة 12.42، ليلة الأربعاء 5 من المحرم 1428هـ، 24/ 1/ 2007م.

2 - فــائدة

في
قــولِه تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾[1]

فما الذي لم يُحِيطُوا بعِلْمِه؟

قال الشيخُ/ السعديُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى -: «ولكنْ لمَّا تَبيَّن عجزُهم[2] تبيَّنَ أنَّ ما قالوه[3] باطلٌ، لا حَظَّ له منَ الحُجةِ[4]. والذي حَمَلَهم على التكذيبِ بالقرآنِ المشتمِلِ على الحقِّ، الذي لا حقَّ فوقَه، أنهم لم يُحيطوا به[5] علمًا.

فلو أحاطوا به[5] علمًا وفهِموه[5] حقَّ فهمِه لأذعنوا بالتصديق به[5]»[6].

---

(1) [يونس: 39].

(2) حِيالَ ما جَبَهَهم به القرآنُ ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [يونس: 38]، ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ ليُساعدوكم في الإتيانِ بسورةٍ من مثلِ القرآنِ ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم أنَّ محمدًا صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم قدِ افتراه، فافعلوا مِثْلَه.

(3) كما ذَكَرَه القرآنُ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ [يونس: 38].

(4) كذا، ولعله يعني الحجةَ الصحيحة، التي تعني صِحةَ القضيةِ، ولكنَّ الأَوْلى: «منَ الصِّحَّةِ». أي: ليس لقولِهم أدنى نصيب من الصحةِ؛ لأن الكلامَ قد يكون صوابًا من وجهِ ما، أو باعتبارِ ما. وكذلك قد يكون بعضُه صحيحًا، وبعضُه الآخرُ خطأً.

(5) يعني القرآن.

(6) «تفسير السعدي» (321).

قلـتُ:

ما ذَكَرَهُ الشيخُ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - صوابٌ، لكني أرى فيه نقصًا، أو أنَّ فيهِ بعضَ خفاءٍ.

ذلك، أنهم لم يُكذبوا بالقرآنِ ككلامِ بشرٍ؛ إنما كذَّبوا بالقرآنِ كقضيةٍ، أو كذَّبوا بما أخبرَهم به القرآنُ، وأُنزِلَ به، ألا وهو التوحيدُ، وما يترتب على الإقرارِ به، أو على مخالفتِه، والكفرِ به.

وذاك، هو قول الشيخِ - رحِمَه اللَّهُ تعالى: «المشتَمِلِ على الحقِّ الذي لا حقَّ فوقه».

لذلك، قلتُ: «فيه بعضُ خفاءٍ».

ثم، إني لا أرى صوابَ قَصْرِ الضميرِ في قولهِ تعالى: ﴿لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ على القرآنِ، بل أراه من جِنْسِ قولهِ تعالى: ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: 66].

فإنَّ اللَّهَ تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: 103]، و«لا تبلُغُه الأَوْهامُ، ولا تُدرِكُه الأفهامُ»(1)، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11].

وكذلك، حكمةُ اختيارِ هؤلاء الرُّسُلِ بأعيانِهِم ﴿لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾؛ فـ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: 124].

وأيضًا، ما جاءت به الرسلُ - عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ - من أمرِ المَعَادِ،

(1) «الطحاوية» (ص119) أي: لا تُحيط به سبحانه، إلَّا كما أخبرَ عن نفسِه، وأخبرَ عنه رسولُه صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم، فيما صحَّ عنه.

والثوابِ، والعقاب، هو مما ﴿لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ أولئك المشركون، وغيرُهم منَ البَشَرِ.

وكثيرٌ، كثيرٌ من حكمةِ اللَّهِ في خَلْقِه، وفي أَمْرِه، ونهيِهِ مما ﴿لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾، أي: ليس خاضعًا لنظرياتهم، ومقاييسهم. بل، ليس داخلاً في عُلومِهم بوجهٍ ما.

وإنه لمن بَدَاهَةِ العُقولِ أنَّ إنكارَ ما لم تُحِطْ به علمًا هو عينُ الجهلِ. بلْ، لا يَمُتُّ للعقلِ بصِلَةٍ.

نعم، «دينُ اللَّهِ معقولٌ»، أي: تَفْهَمُه العُقولُ الصحيحةُ، وتجدُ فيه الفِطرُ السليمةُ راحَتَها، وحاجتَها.

لكنْ، ليست العقولُ حاكمةً عليه؛ إذ ﴿لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾.

ولذلك، قال شارحُ الطحاويةِ - رحِمَه اللَّهُ تعالى: «العقلُ مع النَّقل كالعاميِّ المقلِّدِ مع العالم المجتهِدِ، بلْ، هو دون ذلك بكثيرٍ؛ فإنَّ العاميَّ يُمكِنه أن يَصيرَ عالمًا[1]، ولا يُمكِنُ للعالم أنْ يصيرَ نبيًّا رسولاً»[2].

إنما دورُ العقلِ تَفَهُّمُ النُّصوصِ، وكيف العملُ بها.

لذلك، قلتُ عن كلامِ الشيخِ/ السعديِّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى -: «أرى فيه نقصًا». واللَّهُ أعلمُ[3].

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

---

(1) بالتعلُّم. وهذا صحيحٌ في حقِّ بعضِ العوامِّ، لا كلِّهم.

(2) الطحاوية (219).

(3) الساعة 8.55، بعد عشاء الإثنين 19 من الحجة 1427هـ، 8/1/2007م.

3 - فـــائدة

في

قـولِه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾(1).

لماذا قال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ بدلاً من «ولو كانوا لا يسمعون» - وهو المتبادِرُ - بينما لمَّا ذكَرَ العُمْيَ - في الآية بعدها - قال: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: 43]؟

والجـوابُ:

إنما ذلك - واللّهُ أعلمُ - لأنه ليس المرادُ سمْعَ الأُذنِ، وبَصَرَ العَيْنِ.

وهذا من وَجْهَينِ:

الأولُ - قولُهُ تعالى عنِ الصُّمِّ: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ فلو كان سَمْعُ الأُذنِ مرادًا لقال: (ولو كانوا لا يسمعون)، أي: مع أنهم لا يسمعون.

الثاني - قولُه تعالى عنِ العُمْيِ - المذكورين: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾. فلو كان المرادُ أَعْمَى البَصَرِ فإنَّه لا يَصِحُّ ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾؛ لأنه - فعلاً - لا يُبصِرُ بعينِه، ولا يَرَى بها شيئًا.

فدلَّ الأمرانِ على أنْ ليس المرادُ فَقْدَ الحاسَّةِ (السمعُ أوِ البصرُ).

إنما هو عَمَى القلبِ والبَصيرةِ، اللذَين بِهِما الإدراكُ الحقيقيُّ.

---

(1) [يونس: 42].

وذلـك قـولُه تـعـالـى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: 46].

جاء هذا التقريرُ بعد ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ من الآيةِ نفسِها.

وهذا مجالُ اعتبارٍ، وليس الاعتبارُ واقعًا بمُجرَّدِ السمعِ والرُّؤيةِ.

ولذا، تَرَى أنَّ اللَّهَ تَعَالى قدَّم ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾؛ لأنها أداةُ التدبُّرِ والفَهْمِ والتمييزِ.

أمَّا الحواسُّ، فإنَّها وسائلُ جامعةٌ للمَعْلُوماتِ، ومُوَصِّلةٌ إلى القلبِ.

ولذلك، فإنك تجدُ أنَّ وصْفَ الكافِرِ بالأَصَمِّ، والأعمى أمرٌ مَكْرورٌ في غيرِ قليلٍ من آياتِ القرآنِ.

فمن ذلك، قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ﴾ [النمل: 80، 81].

ففي هاتَين الآيتين ترى أَمْرَينِ - أيضًا -:

الأولُ - مُقابَلةُ ﴿مَن يُؤْمِنُ﴾ [الأنعام: 122].

وكـذلـك، قـولُه تـعـالـى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: 39].

لذلك، قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الفرقان: 44] ومنَ المَعْلُومِ أنَّ الأنعامَ تَسْمَعُ، فما وَجْهُ الشَّبَهِ؟

نَعَمْ، الأنعامُ تَسْمَعُ الصوتَ، لكنها لا تُمَيِّزُ بينَ الكلامِ، ولا تفهَمُ القُرْآنَ، في صورتِهِ التي أُنزِلَ بها على النبيِّ محمدٍ صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم.

فالمرادُ سَمْعُ الفَهْمِ والتَّدبُّرِ لا سَمْعَ الأُذُنِ.

لذلك، قال تعالى: ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ فليس مُطْلَقُ السَّمْعِ نافعًا يومَ القِيامةِ، إنما هو هذا السَّمْعُ الموصوفُ، وَحْدَه.

لذلك - أيضًا - قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: 44، والأعراف: 179].

نَعَمْ، هُمْ أَضَلُّ منَ الأنعامِ؛ لأنَّ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: 179].

قد أَنْعَمَ اللّهُ عليهِم بالقُلُوبِ، والأَعْيُنِ، والآذانِ، وهي أدواتُ التحصيلِ، والفَهْمِ، والتدبر، لكنَّهم عَطَّلُوها عن أداءِ وظيفتِها التي خُلِقَتْ لها.

لذلك، قال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾؛ لأنَّ الأنعامَ ما عَطَّلتْ شيئًا من أعضائِها وحواسِّها، وما كَفَرَتْ نِعمةَ اللّهِ عليها في هذه الأعضاءِ.

لكنَّ أولئك عطَّلوا، وكَفَروا.

وبعدُ، فَلَعلِّي لم أُقدِّمْ جديدًا، إلَّا:

1 - الاستدلالُ بلفظِ الآيةِ نفسِها على المراد.

2 - صَوْغُ الكلامِ، وطريقةُ التعبيرِ.

والحمدُ للّهِ على ما هَدَى[1].

---

(1) الساعة 9.20 بعد عشاء الخميس 6 من المحرم 1428هـ 25/ 1/ 2007م.

4 - فـــائدة

في

قـولِه تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾[1]

لماذا قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ﴾ جوابًا لقولِهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [يونس: 48].

ولماذا قدَّم ﴿ضَرًّا﴾؟

وما الاستثناء ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾؟ وما يُستفادُ منه؟

والجوابُ:

أولاً - أما ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى﴾ ففيه:

1 - قياسُ الأَوْلَى، أو الاستدلالُ بالأَقْرَبِ على إمكانِ أو عَدَمِ إمكانِ ما هو أَعْلَى، أو أبعَدُ منه.

أي: «معَ أنَّ ذلك[2] أَقْرَبُ حُصولاً[3]، فكيف[4] أَمْلِكُ[5] لَكُمْ، حتى أَسْتَعْجِلَ جَلْبَ العَذَابِ لَكُم؟»[6].

---

(1) [يونس: 49].

(2) دفعُ الضُّرِّ عن نفسِ الإنسانِ، أو جَلْبُ النَّفْعِ لها.

(3) لَعَلَّ الأَوْلَى: «إمكانًا»، أو: «تخيُّلًا».

(4) وأنا لا أملِكُه لنفسِي.

(5) لعل الأَوْلى: «أملكُه».

(6) «تفسير القاسمي» (6/ 32).

2 - إقرارُ الرسولِ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم، وتأكيدُه لِبَشَرِيَّتِه، التي تَعجِزُ - كَكُلِّ البَشَرِ - عن فِعْلِ شيءٍ إلَّا بأمرِ اللَّهِ تعالى.

مع تحديدِه لمَهَمَّتهِ، التي اختارَه اللَّهُ تعالى لها ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: 110].

وكذلك كلُّ الرُّسُلِ قد قالوا: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: 11].

وكذلك أَتْباعُ الرُّسُلِ، القائمون بالدعوةِ على طريقِهِم.

ثانيًا - وأمّا تقديمُ ﴿ضَرًّا﴾:

فـ«لما أنَّ مَساقَ النَّظمِ لإظهارِ العجزِ عنه»(1)؛ لأنه جاء جوابًا لقولِهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: 48] وكأنَّهم يَستَعْجِلونه بينما هم يقولونَها «استبعادًا واستهزاءً»(3) وذلك قولُهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فهو تكذيبٌ للأمرِ، واستهزاءٌ به.

وقد ساق القرآنُ التكذيبَ والاستهزاءَ معًا ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(2).

ثالثًا - وأما الاستثناءُ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ما هو؟ وما يُستفادُ منه؟

1 - قال الإمامُ/ القاسِمِيُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى -: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي:

(1) «تفسير القاسمي» (6/32).
(2) [هود: 32] مثلًا.

أنْ أَمْلِكَه[1]. أو لكنْ، ما شاء اللّهُ كائنٌ[2].

2- ثم، قال - رحِمَه اللّهُ تعالى -: «فالاستثناءُ متَّصِلٌ[3]، أو منقطعٌ[4]»[5].

3 - وقال: «وأفاد بعضُ المحقِّقين[6] أنَّ الاستثناءَ بالمشيئةِ قدِ استُعْمِلَ في أُسلوبِ القرآنِ الكريمِ للدَّلالةِ على الثُّبوتِ والاستمرارِ، كما في هذه الآيةِ. وقولِه[7]: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: 107]».

قال[8]: (النُّكْتَةُ في الاستثناءِ[9] بيانُ أنَّ هذه الأُمورِ إنما كانت كذلك بمشيئةِ اللّهِ تعالى، لا بطبيعتِها في نفسِها، ولو شاء اللّهُ تعالى أنْ يُغيِّرَها لَفَعَلَ)[10]. اهـ. وهو[11] نفيسٌ جدًّا، فلْيُحرَصْ على حِفْظِه»[12][13].

---

(1) أي ﴿لَآ أَمْلِكُ﴾ شيئًا بطبيعتي البشرية، ولكنْ ما شاء اللّهُ تعالى أن يُجْرِيَه على يَدَيَّ، أو أن يجعلَ لي تصرُّفًا فيه.

(2) وقْتَمَا شاء، كيفما شاء، سبحانه.

(3) على المعنى الأولِ.

(4) على المعنى الثاني.

(5) «تفسير القاسمي» (6/ 32).

(6) ولم يُسَمِّهم، على خلافِ عادتِه - رحِمَه اللّهُ تعالى.

(7) أي: وكما في قولِه تعالى.

(8) أي: «بعض المحققين» كما سبق.

(9) أي: بالمشيئة، كما في الآية.

(10) انتهى ما نَقَله الإمامُ/ القاسِمِيُّ - رحِمَه اللّهُ تعالى - عن بعضِ المحققين، كما وَصَفَهم.

(11) قائل: «وهو» الإمامُ/ القاسِمِيُّ - رحِمَه اللّهُ تعالى.

قلت: وهو كما قال.

(12) «تفسير القاسمي» (6/ 32).

(13) الساعة 12.03 ليلة الجمعة من المحرم 1428هـ ، 26/ 1/ 2007م.

5 - فــائدة

في
قــولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]

قال الشيخُ/ السعديُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى -: «... فإنَّه بحَسْبِ ما معَ العبدِ منَ الإيمانِ تحصُلُ له النَّجاةُ منَ المكارهِ»[2].

وقالَ السائلُ:

كيفَ، وقد ورَدَ عنِ النبيِّ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم: «يُبتَلَى الرَّجلُ على قدرِ دينِهِ، فإنْ كانَ صُلْبَ الدِّينِ اشتدَّ بَلَاؤُه»[3].

قلـتُ:

هاتانِ حالتانِ:

الأُولَى - كتبَ اللَّهُ فيها النَّجاةَ لأصْحَابِها منَ المؤمنينَ، في الدُّنيا قبلَ ما أَعَدَّه لهم في الآخرةِ.

الثانيةُ - قَدَّرَ اللَّهُ فيها زيادةَ الابتلاءِ لأصحابِها مِنَ المؤمنينَ - أيضًا -

---

(1) [يونس: 103].

(2) «تفسير السعدي» (331).

(3) «شعب الإيمان»، البيهقي، (9775/ 7/ 143) والحاكم وقال: (136) «صحيحٌ على شرطِ الشيخينِ» وقال الألبانيُّ: «صحيحٌ».

لحكمةٍ يعلمُها - سبحانه.

ثمَّ إنَّه منَ المتَّفَقِ عليه بين أهلِ العلمِ أنَّ تحقُّقَ الوَعْدِ ولو مرَّةً هو تحقُّقٌ، لا خُلفَ.

قلـتُ:

فمنْ هذينِ الوجهينِ لا مُعَارَضَةَ، والحمدُ للَّهِ ربِّ العالمين(1).

* * * * *

(1) الأحد13/ 7/ 1425هـ ، 29/ 8/ 2004م، الساعة 3.37 وقت العصر.

سورة هود

فـــائدة

في

قـوله تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾(1)

قال الفَرَّاءُ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - في «معاني القرآن»: (وقالَه أَوْ نَقَلَهُ غيرُ واحدٍ منْ أهلِ التفسيرِ):

«فما تَزِيدُونَنِي غيرَ تَخْسِيرٍ لَكُم وتَضْلِيلٍ لَكُم(2)، أي: كُلَّما اعتَذَرْتُم بشيءٍ(3) هو يَزِيدُكُم(4) تخسيرًا(4) وليس غيرَ تَخْسيرٍ لي أنا(4). وهو كقولِك للرَّجُلِ: (ما تَزيدُني إلَّا غضبًا)، أي: غَضَبًا عليكَ»(5).

وقال السعديُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى:

«أي: غيرَ خَسَارٍ، وتبابٍ، وضَرَرٍ»(6).

---

(1) [هود: 63].

(2) تَكْرارُ «لكم» لا حاجةَ إليه. والمعنى: فما تزيدونني غير اقتناعٍ بخسارتِكم وضلالِكم.

(3) لو قال: «لا يزيدُكم إلَّا»، أو: «ما زادكم إلَّا» لكان أَوْلَى.

(4) يعني أنَّ ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ لا تعودُ على صالحٍ - عليه السلام -؛ ولو قال: «فليس فِعلُكم تخسيرًا لي»، لكان أَوْلَى.

(5) (2/ 20).

وكذا في «البحر المديد»، وذَكَرَ قولاً آخرَ، وهو أنَّ التخسير، أو الخُسران راجعٌ إلى صالحٍ - عليه السلام - لِتَرْكِهِ ما مَنَحه اللَّهُ تعالى. ولم يُرَجِّحْ.

(6) «تفسير السعدي» (341).

قلـتُ:

يَنسِبُ الخَسَارَ إلى صالحٍ - عليه السلام - لو اتَّبَعَهُم؛ لأنَّه قال: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةً﴾ أي: مَنَّ عليَّ برسالتِهِ وَوَحْيِهِ، أفأُتابِعُكم على ما أنتم عليه من ضلالٍ، وكُفرٍ، وما تَدْعونَنِي إليه؟ ليس هذا بصوابٍ - إنْ فَعَلْتُه - بل هو عينُ الخُسرانِ.

وهذا أَوْلَى من كلامِ الفَرَّاءِ؛ لأني أراه المناسبَ للسياقِ؛ لأنَّه جاء في الآيةِ على لسانِ صالحٍ - عليه السلام -: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾، أي: عَصَيْتُه واتَبَعْتُكُم بعدَ ما ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةً﴾[1].

والمعنى نفسُه - تقريبًا - في قولِ الشيخِ/ ابنِ عاشورٍ[2] - رحِمَه اللَّهُ تعالى: «فما دعاؤكم إيَّايَ[3] إلَّا سَعْيٌ في خُسْرانِي».

لطيفةٌ مهمةٌ:

جاء في الموضِعِ نفسِهِ: «والمرادُ بالزيادةِ[4] حُدُوثُ حالٍ لم يكُنْ موجودًا؛ لأنَّ ذلك[5] زيادةٌ في أحوالِ الإنسانِ».

قلـتُ: وهذا كلامٌ نفيسٌ جدًّا[6].

---

(1) الساعة 8.30 بعد عشاء الأحد 25/ 11/ 1424هـ ، 18/ 1/ 2004م.

(2) تفسير «التحرير والتنوير».

(3) يعني قولَهم - كما ذَكَرَه القرآنُ -: ﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوًّا قَبۡلَ هَٰذَآ﴾ [هود: 62] يريدون عودتَه إلى ما كان عليه قبلَ هذه الدعوةِ، أو: دخولَه فيما هم عليه من ضلالٍ.

(4) المذكورة في قولِه تعالى على لسانِ صالحٍ - عليه السلام -: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾.

(5) الإشارةُ إلى «حدوث حالٍ لم يكن».

(6) الساعة 8.17 بعد عشاء الإثنين 2 من الحجة 1431هـ، 8/ 11/ 2010م.

لكنَّ «حُدُوثُ حالٍ لم يكن موجودًا» ليس زيادةً في كلِّ الأحوالِ، بل قد يكون نقصًا؛ كما لو ارتَكَبَ إنسانٌ مُطِيعٌ معصيةً، فهذه «حالٌ لم يكن»، لكنها - إنْ لم يَتُبْ منها - نُقصانٌ في إيمانِه.

لكنَّ الشيخَ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - يَقْصِدُ مُطْلَقَ الحُدُوثِ[1].

* * * * *

(1) الساعة 11.20، ليلَ السبت 27 من الحجة 1431هـ، 4/ 12/ 2010م.

سورة يوسف

1 - فائدة

في

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾[1]

لَمْ يَقُولوا: «وإنَّا لصادقون»، تأكيدًا لصِدقِهم؛ لأنهم يَعلمون أنهم كاذبون محتالون، قد كادوا ليوسفَ - عليه السلام.

إنما قالوا: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾.

خاطَبُوا أباهم - يعقوبَ عليه السلام - بما يَعرِفون من عَدَمِ تصديقِه لهم؛ لما كان يَعْرِفُه من حَسَدِهِم لأخيهم يوسفَ - عليه السلام - وخَشْيَتِه عليه منهم، حتى قال لهم: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ [يوسف: 13].

فخاطبوه قائلين: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾؛ لمعرفتهِ بحالِهم تِجاهَ أخيهم يوسفَ - عليه السلام.

﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾، فإذا كان هذا حالَ أبيهم معهم لو كانوا صادقين، فكيف يُصدِّقُهم وهم كاذبون في حقيقةِ الأمرِ؟! فكان قولُهم: ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ إقرارًا منهم بكَذِبِهم.

---

(1) [يوسف: 17].

وَلَعَلَّ مما يُؤَيِّد هذا الذي ذهبتُ إليه قولُهم في آخرِ السُّورةِ لمَّا كانوا صادقين: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾. واللَّهُ أعلمُ[1].

* * * * *

(1) الساعة 3.15 قبل فجرِ الجمعة 2 القعدة 1424هـ، 26/12/2003م.

2 - فـــائدة

في
قـولِه تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾[1]
و
﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[2]

أمَّا آيةُ يوسفَ، فقد تكلَّم فيها كلُّ المفسِّرين، وكثيرٌ من غيرِ المفسِّرين، حتى أَوْرَدَ بعضُهم في معنى ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ و﴿بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ إسرائيلياتٍ، لا يصحُّ منها شيءٌ، ولا يَليقُ بـ «الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ»[3]، نبيِّ اللَّهِ يوسفَ، ابنِ نبيِّ اللَّهِ يعقوبَ، ابنِ نبيِّ اللَّهِ إسحاقَ، عليهِمُ السلامُ.

لكنْ، قد قامَ مُحقِّقو المفسِّرين من أهلِ السنَّة بتفنيدِ كلِّ ذلك، وبيانِ ما يَليقُ بنبيٍّ كريمٍ من أنبياءِ اللَّهِ - عليهِمُ السلامُ.

ومن جَيِّدِ ما قِيلَ في ذلك قولُ الشيخِ/ السعدِيِّ[4] - رحِمَه اللَّهُ تعالى:

«. . ورَأى من بُرْهانِ ربِّه - وهو ما مَعَه مِنَ العِلْمِ والإيمانِ، المُوجِبِ لِتَرْكِ كلِّ ما حرَّم اللَّهُ - ما أَوجبَ له البُعدَ والانكِفافَ عن هذه المعصيةِ الكبيرةِ. . .

(1) [يوسف: 24].
(2) [الإسراء: 74].
(3) **صحيح**. البخاري، من حديث ابن عمر - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنهما.
(4) وهو ما تحتَ يدي حِينَ كتابةِ هذه الفائدةِ.

والحاصلُ أنَّه جَعَلَ الموانِعَ له من هذا الفِعلِ: تقوى اللَّهِ، ومراعاةُ حقِّ سَيِّدِهِ، الذي أكرمه، وصيانةُ نفسِه عنِ الظلم... وكذلك ما مَنَّ اللَّهُ به[1] عليه من بُرهانِ الإيمانِ الذي في قَلْبِه...»[2].

أما قولُه - رحِمَه اللَّهُ تعالى: «... لأنه قد هَمَّ فيها همًّا، ترَكَه للَّهِ، وقدَّمَ مُرادَ اللَّهِ على مُرادِ النفْسِ الأمَّارَةِ بالسُّوءِ»[3] فلا أراه يصحُّ. بلْ، لا أراه مرادًا للشيخِ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - على ما يَتَبادَرُ من ظاهِرِ «همًّا»؛ فإنها تأكيدٌ لـ (هَمَّ)، وهكذا هو دورُ المصدَرِ في الجُملةِ.

معنى ظاهِرِ كلامِ الشيخِ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - أنَّ نبيَّ اللَّهِ يوسفَ - عليه السلام - قَد فكَّر، وهمَّ بِمُواقَعَتِها - حاشاهُ - لكنَّه: «تَرَكَه للَّهِ، وقدَّم مُرادَ اللَّهِ على مُرادِ النَّفسِ...»[4].

قلتُ:

وليس ذلك لائقًا في حقِّ أنبياءِ اللَّهِ - عليهِمُ السلامُ - ولذلك قلتُ: «بلْ، لا أراهُ مُرادًا للشيخِ - رحِمَه اللَّهُ تعالى»؛ لأنه لا يَخْفَى عليه مثلُ ذلك.

ثم، أقولُ:

أمَّا ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ فأرى معناه - واللَّهُ أعلمُ: تحرَّكَتْ فيه طَبيعةُ الرِّجالِ حِيالَ

---

(1) ساقطة.
(2) «تفسير السعدي» (351، 352).
(3) «تفسير السعدي» (351).
(4) «تفسير ابن كثير» - مثلاً - (8/ 242 - 244)، وذكر فيه أحاديث، عند الترمذيِّ، وغيرِه.

النساءِ. ولا يَعْنِي ذلك بِحَالٍ أنَّه همَّ، أوْ فكَّرَ في مُواقَعَتِها. وليس في هذا المعنى - الذي ذَكَرْتُه - ما يُخالِفُ المتفقَ عليه من عِصْمةِ الأنبياءِ - عليهِمُ السلامُ - فإنَّ العِصْمةَ لا تَنفِي البشريَّةَ.

وإذا كان كذلك، فليس بقادحٍ في نُبُوَّةِ الأنبياءِ - عليهِمُ السلامُ - أنْ تتحَرَّكَ فيهِم طبيعةُ الرِّجالِ حِيالَ النِّساءِ، وإلَّا لما حَلَّ لهمُ التزوُّجُ؛ إذْ إنَّهم بغيرِ هذه الطبيعةِ، أو الشَّهْوَةِ لا يستطيعون القيامَ بحَقِّ المرأةِ. بل، لا يَحِلُّ لهمُ التَّزَوُّجُ.

فلا منافاةَ - إذًا - بين شَهْوَةِ الرَّجُل في النبيِّ وبين النُّبُوَّةِ.

ومن نفسِ جنسِ عدمِ التنافي المذكورِ أرى ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: 74].

فإنه قد خَطَرَ ببالِ النبيِّ صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم أنْ لو أقبلَ عليهِم، وألَحَّ في دعوتِهم؛ شَفَقَةً عليهِم؛ لِشِدَّةِ محبَّتِه لهدايتِهم.

وهذا هو ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس: 5، 6]؛ فقد كان صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم مُقبلاً على جماعةٍ منَ المشركين يَدْعُوهُم، وهو حريصٌ على هدايتِهم، إذْ دَخَلَ عليه عبدُ اللّهِ ابنُ أمِّ مكتومٍ - رضِيَ اللّهُ تعالى عنه - راغبًا في التعلُّمِ، لكنَّ النبيَّ صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم؛ بطبيعتِه البشريةِ، ولشدةِ حرصِهِ على هدايةِ أولئك، لم يَرَ غَضاضةً في عَدَمِ إجابةِ ابنِ أمِّ مكتوم لبعضِ الوقتِ - اعتمادًا على أنَّه أَعْمَى، لا يراه فلا يتضرَّرُ من تأخُّرِ إجابةِ النبيِّ صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم، فَلَمْ يَرَ النبيُّ

صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم غضاضةً في أنْ يَسْتَمِرَّ في حديثِه مع أولئك المشركين؛ عساهُم يهتدون(1).

ولو كان الداخلُ عليه صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم - حينذاك - بصيرًا لما استطاع عدمَ إجابتِهِ بغيرِ استئذانِه.

لكنها، الطبيعةُ البشريةُ، التي لا تُنافي النُّبوَّةَ.

ولذلك، فقد عَتَبَ اللَّهُ عليه عِتابًا لطيفًا: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: 1] في شأنِ ابنِ أمِّ مكتومٍ - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنه - ثم، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: 7]، في حقِّ أولئك المشركين.

لكنَّ اللَّهَ تعالى - برحمتِه - قدَّرَ، وقضى ألَّا يكون شيءٌ من ذلك واقعًا، وذلك هو: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ [الإسراء: 74] و﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: 24].

وهذا، من عِصْمَةِ اللَّهِ لأنبيائِه - عليهِمُ السلامُ. واللَّهُ أعلمُ(2).

* * * * *

(1) الساعة 9.07 بعد عشاء الثلاثاء 6 من الحجة 1427هـ، 26/12/2006م.

تذيــــلٌ

ومن هذا البابِ، ونفسِ المعنى أو قريبٌ منه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا[1] تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ[2] وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص: 31] من شدةِ الخوفِ.

ومثلُه: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: 21].

فالخوفُ جِبلَّةٌ بَشَرِيَّةٌ، يتفاوتُ فيها الناسُ، وأقلُّهم خَوفًا الأنبياءُ، لأنهم يستشعِرون مَعِيَّةَ اللَّهِ، كما قال موسى نفسُه - عليه الصلاةُ والسلامُ -: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[3] [الشعراء: 62].

ولكنَّ ذلك لم يمنَعْه منَ تَحَرُّكِ الخوفِ في قلبِهِ عندما رأى العَصا قدِ انقَلَبَتْ حيَّةً حقيقيَّةً عظيمةً.

فالخوفُ لا يُنافي الإيمانَ، ولا يَقْدَحُ في النُّبُوَّةِ. واللَّهُ أعلمُ[4].

تنبيهٌ:

ولا يَخْفَى كونُ الخَوْفِ سلبيًا، بينما الهمُّ والركونُ إيجابيٌّ.

* * * * *

---

(1) العصا.

(2) ذَكَرُ الحيات العظيم. «تفسير السعدي» (565).

(3) عندما قال له قومه الذين آمنوا ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: 61].

(4) الساعة 7.30، بعد عشاء يوم الأضحى 1427هـ، 2006/12/30م.

3 - فـــائدة

في

قــوله تعالى: ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾[1]

«يعني به[2] المَلِكَ»[3].

ولكنْ، لماذا لم يَقُل: «إلى الملك» مراعاةً لِلَّفْظِ؟ أو لماذا لم يَقُل: «إليه»، وهذا موافقٌ لقُرب ذِكره.

والجوابُ:

قد سَبَقَ ذِكْرُ الملكِ بلفظِ «رَبّ»، وذلك في قولِ اللَّهِ تعالى على لسانِ يوسفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ [يوسف: 41]؛ في تأويلِهِ لرؤيا صاحِبَي السِّجنِ. وجاء بعدَها: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: 42].

ثم قال اللَّهُ تعالى في نفس الآية: ﴿فَأَنسَىٰهُ[4] ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾.

فلمَّا جاء ذِكرُ الملكِ في هذه الآياتِ بلفظِ «رب» ناسَبَ أنْ يُذكَرَ هُنا بنفسِ اللفظِ. **هذا أوّلاً.**

(1) [يوسف: 50].
(2) يأي أي بقوله: «ربّك».
(3) «تفسير السعدي» (355).
(4) يعني الذي نَجا، أنساه الشيطان ما أوصاه به يوسفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنْ يذكُرَه عند المَلِكِ.

أمّا ثانيًا - فإن تغييرَ الأُسلوبِ، واستعمالَ أكثَرِ من لفظٍ للتعبيرِ عن شيءٍ واحدٍ أُسْلُوبٌ بليغٌ معروفٌ، مشهورٌ في لغةِ العربِ.

وليس ذلك تَنْوِيعًا مجرَّدًا، وإنَّما يُراد به معنًى زائدًا، أو مخصوصًا لا يوجَدُ في اللفظِ الآخرِ.

قلتُ:

ولمَّا كانَ صاحبُ الرؤيا - الذي نَجَا - عبدًا ناسبَ ذلك في حقِّه أن يُذْكَرَ له المَلِكُ بلفظِ «ربٌّ»؛ لأنَّ «الرَّبَّ» صاحبُ الفَضْلِ والنعمةِ.

وهذا مُرادٌ في استعمالِ لفظِ «رَبّ» هنا.

ثمَّ، لما كان هذا الذي نَجَا من السجنِ ليس مجرَّدَ عبدٍ، إنَّما سيكونُ ساقِيَ المَلِكِ ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ كان مُقرَّبًا إلى المَلِكِ، فناسَبَ ذلك أيضًا ذِكرُ المَلِكِ بلفظِ «رَب». واللَّهُ أعلمُ[1].

* * * * *

(1) الساعة 10.30 ليل الخميس 18/ 2/ 1425هـ، 5/ 4/ 2004م.

4 - فــائدة

في

قــولِه تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[1]

﴿الْعَلِيمُ﴾ بما فَعَلْتُم، ما هو، وعلى أي صورةٍ كان.

﴿الْعَلِيمُ﴾ «الذي يَعْلَمُ حالي، واحتياجي إلى تَفْرِيجِه ومِنَّتِه، واضطرارِي إلى إحسانِه»[2].

﴿الْحَكِيمُ﴾ في تقديرِ وُقوعِ البلاءِ في صُورةٍ معيَّنةٍ، إلى مدَّةٍ مؤقَّتةٍ «الذي جَعَلَ لِكُلِّ شيءٍ قَدْرًا، ولِكُلِّ أمرٍ مُنتهًى، حَسَبَ ما اقتضته حِكمتُه»[3][4].

* * * * *

(1) [يوسف: 83].

(2) «تفسير السعدي» (359).

(3) «تفسير السعدي» (359).

(4) الساعة 8.20 بعد عِشاء الإثنين غرة صفر 1425هـ، 22/3/2004م.

سورةُ الحِجْرِ

فـــائدة

في

قــولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[1]

قال الفَرَّاءُ[2]: «الهاءُ في ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ للتكذيبِ، أي: كذلك نَسْلُكُ التكذيبَ. يقولُ: نَجعَلُه في قلوبِهِم ألَّا يؤمنوا»[3][4].

وقال الشيخُ/ السَّعْدِيُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى -[5]:

«أي: نُدخِلُ التكذيبَ ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الذين وصْفُهُمُ الظُّلمُ والبُهتُ، عاقبناهم.......... ولهذا قال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾».

قلـتُ:

ولا أراهُ، بـل أرى عَـوْدَ الـهاءِ في ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ على القرآنِ، وكلّ ما أوحاه اللَّهُ وأنزلَه على الرُّسُلِ، أو على الرسولِ - أيُّ رسولٍ - صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم.

---

(1) [الحجر: 12].
(2) «معاني القرآن» (2/85).
(3) حتى لا يؤمنوا أو فلا يؤمنون.
(4) (2/85).
(5) «تفسير السعدي» (ص 383).

بيانُ ذلك أنَّ قبلَها: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: 6]؛ فهذا استهزاءٌ بالقرآنِ وبالرسولِ صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم معًا.

ثم، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9] فلا يَضُرُّه الاستهزاءُ ولا يَنتقِصُ من قَدْرِهِ، مع أنَّه محفوظٌ مِنَ التبديلِ والتحريفِ.

ثم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ رُسُلاً ﴿فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الحجر: 10، 11].

فالقضيةُ المعروضةُ هنا هي استهزاءُ المجرمين بالرسلِ وما أُنزِلَ إليهِم من ربِّهِم، فقال اللّه - جلَّ في عُلاه - تعقيبًا على هذا الموقفِ:

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ أي القرآنُ ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ فموقِفُهُم هو نفسُ موقفِ أسلافِهِم - من كفارِ الأُممِ السَّابقةِ - من رُسُلِهِم وما أُنزِلَ إليهِم من ربِّهِم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [الحجر: 13] ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فقد تشابَهَتْ قلوبُهُم، وتواطأت على التكذيبِ والجُحُودِ والإنكارِ، والاستهزاءِ، فاعتَبِروا يا أُولِي الأبصارِ.

تنبيهٌ:

قال الزَّمَخْشَرِيُّ(1): «والضَّمِيرُ(2) للذِّكْرِ، أي: مِثلُ ذلك السَّلْكِ ونَحوِه، نَسلُكُ الذِّكْرَ ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، على معنى أنه يُلقِيهِ في قلوبِهِم مُكذَّبًا،

---

(1) «الكشاف» (2/ 388).

(2) في قوله تعالى: ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾.

مُسْتَهْزَءًا به، غيرَ مقبُولٍ».

ويؤيدُ ذلك، ويَدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: 82].

فحالٌ في قلوبِ المؤمنين، وحالٌ في قلوبِ المجرمين.

ويدلُّ على ذلك - أيضًا - قوله تعالى: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء: 41].

وكذلك قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: 46][1].

ويؤيدُ ما ذَكَرْتُ قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ[2] عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ[2] عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ[2] مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ[2] فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ[2] حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الشعراء: 198-201].

* * * * *

(1) الساعة 9.30 ليل الجمعة 14/ 1/ 1425هـ، 5/ 3/ 2004م.

(2) الضميرُ للقرآنِ.

سورة النحل

1 - فـــائدة

في

قــولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]

هما آيتان، وفي كلٍّ مناسبةٌ ومعنًى يُرادُ.

أمّا الآيةُ الأولى فهي: ﴿وَتَحْمِلُ[2] أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾، بالإضافةِ إلى ما سَبَقَ بيانُه[3] مِنَ المنافعِ التي جعَلَها اللَّهُ لكم فيها.

أي: تنتقلون بهذه الأنعامِ إلى بلادٍ لم يكن ممكنًا لكم الوصولُ إليها - بغيرِ هذه الأنعامِ - إلَّا بمشقَّةٍ عظيمةٍ.

هذا، «فضلاً عن أنْ تَحمِلُوا على ظهورِكم أثقالَكُم[4]»[5].

فكم كانت تَبْلُغُ مشقَّتكم تلك؟!

وكم هو عظيمٌ، مُحبَّبٌ إلى نفوسِكم، هذا التيسيرُ، وذاك التسخيرُ؟!

---

(1) [النحل: 7، 47].

(2) أي الأنعامُ، في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا﴾، الآية (5) من السورة.

(3) في نفس سورة النحل.

(4) من متاعٍ، وتجارةٍ، وغيرِ ذلك.

(5) «تفسير القاسمي» (6/ 69ز).

والتيسيرُ من لازِمِ الرَّأفةِ، وشأنِ «الرَّءوف»؛ فإنَّ «الرَّءوف» كثيرُ العَطْفِ على مَن دونَه، مع دائمِ تقديرِه لِضَعفِه.

والتيسيرُ من لازِمِ ذلك. وتراه في أمورٍ:

1 - عَدَمُ التكليفِ بما لا يُطاقُ.

2 - تقديمُ العَوْنِ، على الدَّوامِ.

3 - الهدايةُ والإرشادُ إلى كيفيةِ الأداءِ.

4 - تذليلُ الصِّعابِ.

5 - الإمهالُ وعدمُ تعجيلِ العِقابِ.

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

فيها كلُّ هذه المعاني[1].

﴿رَّحِيمٌ﴾ يَفتَحُ بابَ التوبةِ للمذنبين. ويَقْبَلُ المُنيبينَ.

وأمّا الآيةُ الثانية: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾[2] أي: وهُم يَتَرَقَّبُونَ العذابَ، لا يعرفون متى يأتِيهِم، أو كيف يأتِيهم.

لكن، ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ﴾ يُمهِلُهم، ولا يُعاجِلُهم بالعقوبةِ، عساهم يَرجِعون، وعن كفرِهم يُقلِعون، وباللّه يؤمنون.

وهو سبحانه ﴿رَّحِيمٌ﴾، وهذا من تمام الرأفةِ بِهِم. واللَّهُ أعلمُ[3].

---

(1) في الآية الأولى.

(2) بعدما ذكرَ أحوالاً يُوقِع بها العذابَ، لو أراد.

(3) الساعة 10.47 بعد عشاء الجمعة من المحرم 1428هـ، 26/ 1/ 2007م.

2 - فــائدة

في

قـولِه تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾(1)

جاءت بعد قولِه تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: 22].

وأرى في هذا التتالي أمرَين:

الأولُ - لمّا كان ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ بيانًا لحقيقةِ أمرِهم، وأنَّ قلوبَهم قد انطَوتْ على الكُفرِ باللّهِ العظيم، وإن حاولوا إظهارَ خلافِ ذلك، لما كان ذلك جاء ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ مناسبًا له، من حيث فَضْحِه لما انطَوتْ عليه قلوبُهم، مهدِّدًا لهم؛ فإنَّ اللّهَ الخالقَ ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: 19].

الثاني - لما جاء في الآيةِ الأُولى ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾، ناسَبه ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ وهذا تهديدٌ، ووعيدٌ.

فإنَّ الخُسرانَ مآلُ أولئك، وشَدِيدَ العذابِ لهم جَزاءٌ، وجهنمَ مِهادٌ.

---

(1) [النحل: 23].

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: 72].

واللَّهُ أعلمُ. والحمدُ للَّهِ على ما هدى[1].

* * * * *

(1) الساعة 11.25 ليلة 8 من المحرم 1428هـ، 22/ 1/ 2007م.

3 - فـــائدة

في

قـولِه تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[1]

الآية: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾، فما مناسبةُ نَفْيِ الناصرين عنهم؟

والجوابُ:

المناسبةُ هنا مناسبتان؛ مناسبةٌ خاصةٌ، تتعلَّق بمعنى الآيةِ في نفسِها، ومناسبةٌ عامةٌ، تتعلَّق بالآيةِ في سياقِها.

أولاً - المناسبةُ الخاصةُ:

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾، فأولئكَ الكفارُ، الذين كَتَبَ اللَّهُ أَنَّهم لا يؤمنون. وأولئكَ همُ الذين يُحارِبونَ اللَّهَ، ورُسُلَه وأولياءَه، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ من عذابِ اللَّهِ، في الدنيا - إنْ أرادَه - ولا في الآخرةِ.

ثانيًا - المناسبةُ العامَّةُ:

قال اللَّهُ تعالى في الآية قبلَها: ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: 36]، وماذا فَعَلَ اللَّه بِهِم في الدنيا.

---

(1) [النحل: 37].

وفي الآيةِ بعدَها: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: 38].

﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: 6].

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122].

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: 87].

فـ ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، يومَ يُبْعَثُون من قُبُورِهِم، كما وَعَدَ اللَّهُ، وجِيءَ بِهِم إلى موقفِ الحسابِ ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: 22، 23].

ومن هذا اتَّضَحَ أنَّ ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ تهديدٌ ووعيدٌ بالعذابِ، في الدنيا، والآخرةِ. سواءٌ نَظَرْنا إليها في آيتِها بخُصوصِها أو في عمومِ سياقِها، وليست مجرَّد خبرٍ. واللَّهُ أعلمُ.

والحمدُ للَّهِ على ما وفَّق وهَدى(1).

* * * * *

(1) الساعة 12.05 ليلة السبت 8 من المحرم 1428هـ، 27/ 1/ 2007م.

4 - فـــائدة

في

قـولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[1]

الآيةُ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾

﴿خَلَقَكُمْ﴾ كما أراد ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4].

﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾؛ عند حُلُولِ الأجلِ الذي سَبَقَ في عِلْمِه - سبحانه.

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ يُعَمَّرُ عُمُرًا طويلًا مَديدًا ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ فيَرْجِعُ كما كان في طُفولَتِه، لا يَعْلَمُ شيئًا.

﴿بَعْدَ عِلْمٍ﴾ كان عَلِمَهُ، في مدَّةِ عُمُرِه، وصار وَصْفًا له.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمُرادِهِ، وحكمتِه، ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يُصلِح عبادَه.

﴿قَدِيرٌ﴾ على ما يشاءُ.

واللَّهُ أَعْلَمُ[2].

* * * * *

---

(1) [النحل: 70].

(2) الساعة 12.35، ليلة السبت 8 من المحرم 1428هـ، 27/ 1/ 2007م.

تذييـــلٌ

ومن هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: 110]، أي: به سبحانه وتعالى.

وقولُه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: 255].

﴿مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ قالوا: «من عِلْمِ اللَّه ومعلوماتِه»[1].

قلـتُ:

وتَحتمِلُ: منَ العلمِ به سبحانه.

وإنْ قيل: ﴿بِمَا شَآءَ﴾ «منها، وهو ما أَطْلَعَهُم عليه منَ الأمورِ الشرعيةِ والقَدَرِيَّةِ»[2].

ف «ما» موصولةٌ. أي: بالذي شاء، أو بالشيء الذي شاء أنْ يَعْلَمُوه. أي أنَّ العِلْمَ عائدٌ على ما دونِ اللَّهِ تعالى.

قلـتُ:

مع التسليمِ بهذا، يَبْقَى منَ العِلْمِ ما هو متعلِّقٌ باللَّهِ تعالى، وأسمائِه، وصفاتِه، داخلًا في هذا التأويلِ - أيضًا -؛ إذ لا وَجْهَ لإخراجِهِ ممَّا يأذَنُ اللَّهُ تعالى لمنْ شاءَ بِعِلْمِ ما شاءَ منهُ.

---

(1) «تفسير السعدي» (92).
(2) «تفسير السعدي» (92).

وقد جاء في الحديث: «أسألُك بكلّ اسم هُوَ لك، سَمَّيْتَ به نفسَكَ، أنزلتَه في كتابِك، أو علّمتَه أحدًا من خَلْقِك، أو اسْتَأْثَرْتَ به في عِلْمِ الغَيْبِ عِندَك»(1).

فقوله صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم: «سمَّيتَ... أَنزَلْتَه... أو علَّمتَه... أوِ استَأْثَرْتَ...» دالٌّ على أنه سبحانه علَّمَ ما شاء من أسمائِه الحُسنى لمن شاء من عبادِه.

وكذلك قولُه صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم: «لا أُحْصِي ثَناءً عليك، أنت كما أَثْنَيْتَ على نفسِك»(2)، دالٌّ - أيضًا - على ما ذَكَرْتُ من معنى قولِه صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم: «أوِ اسْتَأْثَرْتَ به في عِلْمِ الغَيْبِ عندَك»، وأنَّه داخلٌ في ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: 255]. واللَّهُ أعلمُ(3).

* * * * *

(1) حسن. أحمد، من حديث ابن مسعودٍ - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنه.
(2) صحيح. مسلم، من حديث أبي هريرة - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنه.
(3) الساعة 9.37 بعد عشاء الأربعاء 21 من الحجة 1427 هـ، 10/1/2007م.

سورة الحج

1 - فـــائدة

في

قـولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ﴾(1)

لمَّا كان اللّهُ تعالى قد ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: 98]، ولمَّا كان الفَصْلُ بين الناسِ لا يصحُّ ولا يتمُّ حقًّا إلَّا بِعِلْمٍ أو معرفةِ أحوالِهم، وكان - جَلَّ في عُلاه - ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: 19]، وكان ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7]، ولمَّا كان الحُكْمُ في أيِّ قضيةٍ يحتاجُ إلى علمِ جُزئياتِها، وكلِّ ما يتعلَّقُ بها، وكان اللّهُ تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: 3].

وأنـه ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ [المجادلة: 7].

فكانَ سبحانَه شَهِيدًا على أفعالِنا حين نفعَلُها(2).

---

(1) [الحج: 17].

(2) وقريبٌ من ذلك قولُ القَطَّان في تفسيرِه: «فهو مُطَّلِعٌ على كلِّ شيءٍ، عالمٌ بأعمالِ خَلْقِه، وما تُكِنُّه ضمائرُهم» القطان (2/ 453)، ترقيم «المكتبة الشاملة» الإصدارُ الثاني.

قال الرازيُّ (11/252): «فلا يَجْرِي في ذلك الفِعْلِ ظُلْمٌ ولا حَيْفٌ».

لمَّا كان ذلك كذلك ناسَبَ ذِكرُ الشهادةِ مع الفَصْلِ بين العبادِ، على اختلافِ ما اعتَقَدُوه، وما كانوا يَعْمَلُون. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

والحمدُ للَّهِ ربِّ العالمين[1].

* * * * *

(1) الساعة 10.34 ليل الأربعاء 18 شوال 1425هـ، 14/1/2004م.

2 - فـــائدة

في

قـوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[1]

الآية: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾[2]، فما مناسبةُ الوعدِ بالنَّصْرِ ﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾؟

والجوابُ:

ما ذَكَرَه الإمامُ/ القاسِمِيُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - وأنا أَنقُلُه بنصِّه؛ لنفاسَتِه، وكفايتِه في المرادِ.

قال - رحِمَه اللَّهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ تعريضٌ بالحثِّ على العَفْوِ والمغفرةِ[3] فإنه تعالى مع كمال قُدرتِه، لمَّا كان يعفو ويغفرُ[4] فغَيرُه أَوْلى بذلك[5]. وتنبيهٌ[6] على قدرتِه[7] على النصرِ؛ إذ لا يُوصَفُ بالعَفْوِ إلَّا

(1) [الحج: 60].

(2) الذي مَرَّ في الآياتِ قبلَ هذه، مما أعدَّه اللَّهُ تعالى للكافرين ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [57]، وما أَعَدَّه للمؤمنين، الذين هاجروا، وقُتِلوا ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ [59].

(3) ما دام ذلك ممكنًا، دون محذورٍ شرعيٍّ.

(4) كذا، وأرى الأَوْلى: «فإنَّه لمَّا كان تعالى يعفو ويغفر مع كمال قدرته».

(5) لو قال: «فالعبد الضعيفُ مَدْعوٌّ لذلك» لكان أَوْلى - فيما أرى - فإنَّ في النفسِ شيئًا من قولِه المذكورِ.

(6) عطفًا على «تعريضٌ» في أولِ الكلام.

(7) سبحانه.

القادرُ على ضِدِّه[1].

فَظَهَرَ سرُّ مطابقةِ (العفو الغفور) لهذا الموضِعِ» ا.هـ[2].

قلتُ:

وتَبْقَى مناسبة ﴿غَفُورٌ﴾.

وفيها أنَّ اللَّهَ تعالى ﴿غَفُورٌ﴾ لمن تاب منَ الظالمين، و﴿غَفُورٌ﴾ لمن كان مظلومًا وعاقَبَ بأكثرِ من ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ عن غيرِ قَصْدٍ، أو قبلَ عِلْمِه بعدمِ جوازِ ذلك. واللَّهُ أعلمُ[3].

* * * * *

(1) أمّا العاجزُ عنِ العقاب أصلاً فلا يُقالُ: «عفا».

(2) «تفسير القاسمي» (7/ 285).

(3) الساعة 8.38 بعد عشاء السبت 8 من المحرم 1428هـ، 27/ 1/ 2007م.

سورة المؤمنون

فـــائدة

في

قـوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[1]

سَبَقَ قبلَها بعَشْرِ آياتٍ:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الآية: 109].

ذِكرُ، وسيرةُ قَوْمٍ مُوَحِّدِين.

وبيانُ مَوْقِفِ الكافرين منهم: ﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ [الآية: 110] ثم، جزاءُ المؤمنين: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [الآية: 111].

ثم، موقفُ أولئك الكافرين في الحسابِ: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ﴾ [الآيات: 112-117].

وفيها بيانُ عُلوِّ اللهِ، ووحدانيتِه، تبكيتًا للكافرين، ووعيدًا بما أُعدَّ لهمُ منَ العذابِ، وسوءِ المصير ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [الروم: 4].

ثم جاءت هذه[2]: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي: قُل[3] مثلَ

(1) [المؤمنون: 118].
(2) آيةُ الفائدةِ المقصودةِ.
(3) يا محمدُ، أنت، ومَن تبِعَك.

هؤلاء المُوَحِّدِين؛ لِتَنْضمَّ إلى رَكْبِهم ﴿مِّنْ عِبَادِى﴾ فتنالَ مثلَ ما نالوا: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الآية: 111].

واللّهُ أعلمُ[1].

* * * * *

(1) الساعة 4.55 قبل فجر الثلاثاء 27 شوال 1426هـ، 29/ 11/ 2005م.

سورة النور

1 -فــائدة

في

قــوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾[1]

لماذا لم يَجعَلِ اللَّهُ للزَّوْجِ قتلَ زوجتِه التي رآها تزني؟

والجـوابُ:

لمَّا كانتِ الحُدودُ رحمةً؛ فـ «حدٌّ يُعْمَلُ في الأرضِ خيرٌ لأهلِ الأرضِ من أنْ يُمطروا ثلاثين صباحًا»[2].

ولمَّا لم يجعَلِ اللَّهُ إقامتَها للأفرادِ؛ درءًا للمفسدة[3]، كما في تسلسلِ القَتْلِ، لو جُعِلَ القِصَاصُ لِوَليِّ الدَّمِ.

ولمَّا كانتِ الحُدودُ حياةً ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: 179].

فلذلك لم يَجْعَلِ اللَّهُ للزوج قتلَ زوجتِه التي رآها تزني.

---

(1) [النور: 6- 9].

(2) حسن. أحمد، والنسائي، وابن ماجه، من حديث أبي هريرة - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنه. كلُّهم بغير «به». وقوله صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم: «حدٌّ يُعْمَلُ في الأرضِ»، أي: «يُنَفَّذُ»، أو: «يُقامُ عَلَى مَن يَستحقُّ».

(3) ولأغراضِ أخرى، منها: تعظيمُ شأنِ الحدودِ.

إنما إنْ أقرّتْ بالزّنا تُرْجَمُ، بأمرِ الإمامِ؛ كما شَرَعَ اللّهُ - تبارك وتعالى.

وفي ذلك رحمةٌ بالزوجِ من وجهينِ:

الأولُ - امتثالُه أمرَ اللّهِ تعالى[1].

الثاني - إذهابُ غيظِه بما لا يَضُرُّه.

وفي هذا الرَّجْمِ - أيضًا - حياةٌ للزوجِ؛ لأنَّه قد لا يتمكَّنُ من قتلِ الزّاني[2]، فيقتله الزّاني.

فأمرُ اللّه تعالى رحمةٌ، وحياةٌ.

وحتى لا يُتساهَلُ في هذا الأمرِ، فقد يَقْتُلُ الرجلُ زوجتَه - بسببٍ ما - ويدَّعي أنه رآها تزني، وفرَّ الزاني منه فَقَتَلَها هي وحدَها.

ثم، قد يكونُ في هذا التشريعِ حِكمةٌ، أو حِكَمٌ - غيرَ ما ذَكَرْتُ - لا تُدرِكُها العقولُ. واللّهُ أعلمُ[3].

* * * * *

(1) لأنَّ الهدايةَ والتوفيقَ إلى الطاعةِ إنما هو فضلٌ منَ اللّهِ تعالى ورحمتُه.
(2) إمّا لضعفِ بَدَنِه، أو لضعفِ قَلْبِه عن فعلِ القتلِ، رغم شدةِ غَيْظه، وشدَّةِ ما ناله من أذًى بهذا الزنى.
(3) الساعة 7.07 (توقيت عادي) بعد مغرب الخميس 3 شعبان 1426هـ ، 8/ 9/ 2005م.

2 - فـــائدة

في

قـوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(1)

الآية: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، فيها ترخيصٌ لهن أنْ ﴿يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٍ﴾.

أمَّا ﴿عَلِيمٌ﴾ فلَعَلَّه ظاهرُ المناسبةِ؛ بضرورة العِلْم للتشريعِ(2)، فإنه سبحانه ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: 98] فكان الشَّرْعُ محققًا لمصالحِ العِبَادِ، التي ما كان باستطاعتِهِم تحقيقُها، ولا تحصيلُها، بلْ، ولا معرفَتُها على الوجهِ الصحيحِ، لولا بيانُ اللَّهِ لهم؛ فإنَّ عُقولَهم قاصرةٌ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(3).

ولكنْ، ما مناسبةُ ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لمثلِ هذا السياقِ؟

والجـوابُ:

بالطبعِ لا يكفي أنْ نقولَ: «سميعٌ لجميعِ الأصواتِ»(4)؛ فإنَّ هذا معنًى عامٌّ.

ولكنْ، مع اتفاقِنا على هذا المعنى العامِّ يجبُ أنْ نَعْلَمَ أنَّ لكلِّ آيةٍ مناسبةً

---

(1) [النور: 60].

(2) إذ لابدَّ في الأحكامِ من علمٍ بأسبابِها، ونتائِجها.

(3) كما قال الشيخُ/ السعديُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - (ص523).

(4) كما قال الشيخُ/ السعديُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - (ص523).

خاصةً، وارتباطًا دقيقًا مع ما خُتِمتْ به، سواءَ كان هذا الختامُ اسمًا من الأسماءِ الحُسنى، أو غيرَ ذلك من كلماتِ القرآنِ.

وهذه المناسبةُ الخاصةُ، والارتباطُ الدقيق داخلٌ - حتمًا - ومُنضَوٍ تحت المعنى العامِّ للأسماءِ الحُسنى.

أمّا مناسبةُ ﴿سَمِيعٌ﴾ لآية ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾، فكأنه قد حاك أو قد يَقَعُ[1] في بعضِ النُّفوسِ - رجالاً ونساءً - شيءٌ من الأمرِ الواردِ في الآيةِ؛ نظرًا لكِبَرِ سِنِّ هاتين النِّسوةِ، وعَدَمِ رَغْبَتِهِنَّ في الرجالِ، وعَدَمِ رغبةِ الرِّجالِ فيهنَّ[2].

وحتى إنْ لم يصِحَّ في أسبابِ النُّزولِ شيءٌ[3] يخصُّ هذه الآيةَ. فإنَّ هذا الأمرَ مُشاهَدٌ، معروفٌ، مشهورٌ في الناسِ.

وهذه حفصةُ بنتُ سيرين[4]، عندما دخلَ عليها عاصِمٌ الأَحْولُ يسأَلُها في العِلْمِ، وقد أَلْقَتْ عليها ثيابَها، فقال لها: «أَلَيْسَ قد قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾؟!» فقالت: «اقرأْ ما بعدَها». فقال: «﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾». قالت: «هو إثباتُ الحجابِ»[5].

---

(1) وهذا مُشاهَدٌ في زمانِنا.

(2) وهذا قيدٌ في تعريفِ «القواعد»؛ فليس السِّنُّ وحدَه يَكفِي في اعتبارِ المرأةِ منَ القواعدِ؛ فكم من ذاتِ ستِّين - مثلاً - تراها، أو يراها غيرُ قليلٍ منَ الرِّجالِ شابةً.

(3) وفعلاً، لم يصحّ. بلْ، لم يَرِدْ، أو لم أقِفْ على شيءٍ في سببِ نُزُولِ هذه الآيةِ.

(4) وكانت من أهلِ العلمِ، الشُّيوخِ. وهي تابعيَّةٌ؛ أي: بينها وبين زمانِ نُزولِ الآيةِ عدةُ عشراتٍ قليلةٍ منَ السنين.

(5) أخرجه البيهقيُّ في «شعب الإيمان»، وأخرجه سعيد بن منصور في «سننه».

فَوُقوعُ مثلِ هذا بعد انقطاعِ الوَحْي بعدةِ عشراتٍ قليلةٍ من السنين دالٌّ على وجودِه في النُّفوسِ، كما أنه دالٌّ على تَكْرارِه، مع اختلافِ الأزمانِ، والأمكنةِ[1].

فهذا الذي يتردَّدُ في النُّفوسِ ناسَبَه ﴿سَمِيعٌ﴾؛ فهو سبحانه يسمَعُ كلَّ ذلك، وإنْ لم يتكلَّم به صاحِبُه، لكنه سبحانه - وهو الحليمُ - لا يُحاسِبُهم به، كما نَطَقَ بذلك رسولُنا صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم: «إنَّ اللَّه تَجَاوَزَ لأمَّتي عمَّا حدَّثتْ به أنفسَها ما لم تَعْمَلْ، أو تَكَلَّم»[2].

كما ناسَبَه أيضًا ﴿عَلِيمٌ﴾؛ ليس فقط لضرورةِ العلم للتشريع - كما سبق - بلْ، لبيانِ علمِ اللَّهِ بأنَّ ذلك سيكونُ وسيَبْقَى مع الزمانِ، بعد نُزولِ القُرآنِ، وتمامِ الدينِ، وانقطاعِ الوحيِ، فتَبقَى هذه الآيةُ تُتْلَى، مُذكِّرةً كلَّ من حاكَ في نَفْسِه شيءٌ من هذا الأمرِ، بأنَّ ﴿اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فاشكروه، وامتثِلُوا أَمْرَه، واحذَرُوه.

واللَّهُ أعلمُ.

تنبيهٌ:

قال الشيخُ/ السعديُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى: «عليم» بالنياتِ، والمقاصِدِ، فلْيَحْذَرنَ من كلِّ قولٍ وقَصدٍ فاسدٍ، ولْيَعْلَمْنَ أنَّ اللَّهَ يُجازي على ذلك»[3].

---

(1) وما زلنا نسمَعُه في زمانِنا، بعد انقطاعِ الوحي، وتمامِ الدينِ بخمسةَ عشَرَ قرنًا، لا خمسةَ عشَرَ عامًا!!

(2) صحيح. البخاري، من حديث أبي هريرة - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنه.

(3) «تفسير السعدي» (523).

وهذا كلامٌ جيدٌ، متينٌ.

قولُه: «فلْيَحذَرْنَ»، «ولْيَعْلَمْنَ»، للنساءِ خاصةً؛ لأنَّ ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾ أمرٌ لهنَّ أولاً، قبلَ الرِّجالِ، ولكنَّ قولَه: «من كلِّ قولٍ وقصدٍ» رغم صحتِه فكأنه يقصِدُ[1] أنَّ التحذيرَ منَ القولِ والنيةِ فَقَط، دونَ عَمَلِ الجوارحِ.

قلتُ:

وليس الأمرُ كما قد يُفهم من هذه العبارةِ، إنما فيه - أيضًا - تحذيرٌ من مخالفةِ ما تضمنتُه الآيةُ خصوصًا، ومخالفةِ أوامرِ الشرعِ عمومًا، مع أنه قد يحدثُ من النساءِ القواعدِ قولٌ، ونيةٌ يُقصَدُ بها ما يخالفُ شرعَ اللَّهِ في خُصوصِ هذه الآيةِ. واللَّهُ أعلمُ[2].

* * * * *

(1) وليس كذلك. لكنه المتبادِرُ إلى ذِهنِ كَثيرٍ منَ الناس.

(2) الساعة 5.37، قبيل صلاة الفجر، ليوم الجمعة 24 من القعدة 1427هـ ، 15/12/2006م.

سورة الفرقان

فــــائدة

في

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾(1)

الصبرُ عملٌ قلبِيٌّ، فلماذا قال سبحانه: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾؟

والجـوابُ:

إنْ كان الصبرُ عملاً قلبيًّا إلَّا أنَّ أَثَرَهُ لابدَّ وأنْ يَظهَرَ على الجوارحِ؛ من سُكونٍ وخُشوعٍ، أو حركةٍ(2) يستلزِمُها المقَامُ. فلمَّا كان الصبرُ تَدلُّ عليه أعمالٌ تُرى ناسَبَه أن يقولَ - جَلَّ في عُلاه: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

هذا، ولا يخفى على مسلمٍ أنَّ اللّه - جَلَّ في عُلاه ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: 19]، فلا يخفى عليه شيءٌ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾(3).

* * * * *

(1) [الفرقان: 20].

(2) ومنها حركةُ اللسانِ بالاسترجاع - مثلاً - أو ما يقتضيه المقامُ.

(3) الساعة 5.50 ليل السبت 3/ 11/ 1414هـ ، 27/ 12/ 2003م.

سورة الشعراء

1 - فــائدة

في

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُعجزُه شيءٌ، فلا تَغْتَرُّوا يا أيها الكفَّارُ بما مَلَكْتُم من أسبابِ القُوَّةِ، فإنَّه سبحانه خلقَكم، ووهبَكم هذه الأسبابَ، فهو مالِكُكم وإياها؛ وهو:

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعبادِه المؤمنين الطائعين، يفتحُ لهم أبوابَ العَفْوِ والمغفرةِ، لِيُنيبُوا إليه ويَرْجِعُوا، وإنَّ رحمتَه سَبَقَتْ غضبَه[2][3].

قلتُ:

وهو نفسُ المعنى في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الدخان: 42]؛ فإنه جاء تعقيبًا على إهلاكِ فرعونَ وغيرِه، ممن سَبَقَ مِنَ الأُممِ الذين كذَّبوا أنبياءَهم، وكفروا باللَّهِ العظيمِ[4].

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(1) [الشعراء: 9]، وقد تكررت (8) ثماني مرات في هذه السورة.
(2) **كما صحَّ بذلك الحديثُ.** أخرجه البخاريُّ، من حديث أبي هريرة - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنه.
(3) الساعة 9 ليلَ الإثنين 19/ 11/ 1424هـ، 12/ 1/ 2004م.
(4) الساعة 7.30 بعد عِشاء الأربعاء 28/ 11/ 1424هـ، 2/ 1/ 2004م.

2 - فــائدة

في
قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]

قلـتُ:

قديمٌ هو الاختلافُ في بيانِ معنى «رسولُ»، ولماذا الإفرادُ بينما جاءت التثنيةُ في آيةِ طه[2]؟

والجـوابُ:

أرى - واللَّهُ أعلمُ - أنَّ الإفرادَ هنا يُراد به أحدُ أوْجُهٍ ثلاثةٍ:

الوجهُ الأولُ: أنَّه قد يُراد به الجِنسُ، فتكون ﴿رَسُولٌ﴾ بدلاً من ﴿إِنَّا﴾.

الوجهُ الثاني: قد يكونُ الإفرادُ لأنَّ المخاطَبَ منَ اللَّهِ تعالى، والمأمورَ بالكلامِ مع اللَّعينِ فَرْدًا، وهو موسى - عليه الصلاةُ والسلامُ.

يؤيِّدُ ذلك أنَّ معظَمَ ما ذَكَرَه القرآنُ من رَدِّ اللَّعينِ إنما كان بصيغةِ الإفرادِ - أيضًا - مثلُ: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: 18]. ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء: 19] ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: 27]، ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: 29]،

---

(1) [الشعراء: 16].

(2) [طه: 46].

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: 31] ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ [الشعراء: 34، 35].

حتى جوابِ مَلَإِ اللَّعينِ، قدَّموا الإفرادَ؛ لإرادةِ موسى أولاً: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الشعراء: 36].

بلْ، حتى في سُورةِ طه؛ التي جاءت فيها ﴿رَسُولَآ﴾ [طه: 47]، حتى في هذه السورةِ كان كلامُ اللَّعينِ - في مُعْظَمِه - بالإفرادِ:

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾ [طه: 57، 58].

وكذلك جاء قولُ السَّحَرَةِ في السورةِ نفسِها: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: 65].

الوجهُ الثالثُ في الإفرادِ:

قد تكون ﴿رَسُولُ﴾ على إرادةِ موسى خاصةً - عليه الصلاةُ والسلامُ - إذْ هو الرسولُ حقيقةً، أو بالأصالةِ.

قلتُ:

ولا يُشكِلُ على هذا ما جاء بالتثنية في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: 47]، لأني أرى فيه مراعاةَ اللَّفظِ، وواقعِ الأمرِ. واللَّهُ أعلمُ[1][2].

---

(1) الساعة 5.45 فجر الخميس 19 من شوال 1425هـ ، 2/ 12/ 2004م.

(2) أدخلتُ فيها بعضَ التعديل، والزيادة في الساعة 3.50 قبل فجر الأربعاء 12 من القعدة 1431هـ، 20/ 10/ 2010م، عند النظرِ في الكتابِ لإعدادِه للطَّبع.

تنبيهــاتٌ

و

اســـتدراكاتٌ

التنبيهُ الأولُ:

قال الرازيُّ[1]: «وإذا ثَبَتَ أنَّ (الرسول»)[2] لا يُفيدُ إلَّا الماهيَّةُ[3]، وثَبَتَ أنَّ الماهيةَ محمولةٌ على الواحدِ، وعلى الاثنين ثَبَتَتْ صِحَّةُ قولِه: ﴿رَسُولٌ﴾».

قولُه: «ثَبَتَتْ صِحَّةُ قولِه ﴿رَسُولٌ﴾» لا يَصِحُّ بحالٍ، ولا يجوزُ شرعًا؛ لأنَّه منَ المعلومِ ضرورةً أنَّ كلامَ اللَّهِ تعالى لا يَحْكُمُ عليه عَقْلٌ - مهما بَلَغَ - ولا يتحكَّمُ فيه مَنطِقٌ؛ لأنَّ العقلَ مخلوقٌ، والمنطِقُ وَضَعَهُ المخلوقُ، فكيف يَحْكُمُ المخلوقُ على الخالقِ؟!

هيهاتَ، ثم هيهاتَ.

ولـذلـك، يـقـولُ الـفـرَّاءُ[4]: «والـكـتـابُ[5] أَعْـرَبُ[6] وأقـوى في

---

(1) «الرازي» (2/ 159).

(2) يعني اللفظَ.

(3) الجنسُ، والكيفيةُ.

(4) «معاني القرآن» (1/ 14).

(5) يعني القرآنَ.

(6) أصحُّ إعرابًا.

قلت: بل، هو الصوابُ.

الحُجَّةِ[1] منَ الشِّعرِ»[2].

التنبيهُ الثاني:

قال الرازيُّ[3]: وابنُ كثيرٍ[4]، والألوسيُّ[5]، وغيرُ واحدٍ من أهلِ التفسيرِ[6]:

«﴿أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أي؛ كلٌّ مِنّا رسولُ اللّهِ إليك».

قلتُ:

المعنى صحيحٌ؛ لِأَنهما مُرْسَلَانِ إلى اللَّعِينِ فِرعونَ.

لكنَّ في لَفظِهِم أمورًا:

1 - أنه تعبيرٌ ركيكٌ عن معنًى فصيحٍ. كذا أراه، واللّهُ أعلَمُ.

2 - أنه قد يُفهَمُ من لفظِهِم هذا أنَّ كلًّا من موسى وهارون - عليهِما السلامُ - مأمورٌ بالبلاغِ، ولو بمُفْرَدِهِ.

بلْ، قد صرَّح الألوسيُّ بهذا فقال: «وفائدتُه أنَّ كلًّا منهما مأمورٌ بتبليغِ ذلك ولو منفردًا».

---

(1) أقوى في الدّلالةِ على المُرادِ.

(2) لأنَّ الشِّعْرَ هو أساسُ الاستدلالِ عندَهم؛ إذْ إنَّ «الشِّعْرَ ديوانُ العربِ»، فيه كلامُهُم، وتاريخُهم.

(3) «الرازي» (12/ 109).

(4) «ابن كثير» (6/ 46).

(5) «الآلوسي» (10/ 67).

(6) نقل صاحب «النكت والعيون» عنِ ابن عيسى.

فقولُه: «ولو منفردًا»، لا أَعْرِفُ دليلًا عليه، كما لا أعرِفُ قائلًا به غيرَه.

التنبيهُ الثالثُ:

قال كثيرٌ من أهلِ التفسيرِ[1] وكذلكَ بعضُ أهلِ اللغةِ[2] أنَّ «رسولٌ» بمعنى «رسالة». فيَصِيرُ المعنى: «إنَّا ذَوو رسالةِ ربِّ العالمين».

واحتجَّ جميعُهم بقولِ كُثَيِّر عَزَّةَ[3]:

لَقَدْ كَذَبَ الواشُون ما بُحْتُ عندَهم

بِسُوءٍ ولا أَرْسَلْتُهم بِرَسُولِ[4]

قالوا: «رسولٌ بمعنى رسالةٍ».

قلتُ:

ولا أراه.

بلْ، أرى «برسول» مجازًا، علاقتُه السببيَّةُ؛ فإنَّ «الرسالة» لا تَصِلُ إلَّا بِوَاسِطَةٍ، وهذه الواسِطَةُ هي «الرسول»، الحاملُ، أوِ النَّاقِلُ[5] للرِّسالةِ.

---

(1) انظر: «الطبري»، «البغوي»، «الرازي» (12/ 109)، «القرطبي» (6/ 4809)، «الآلوسي» (10/ 67)، «اللباب» لابن عادل، «النسفي» (3/ 180)، و«دفع إيهام الاضطراب» (201) وغيرُهم.

(2) الزجّاجُ (4/ 85)، ونسَبَه القرطبي (6/ 4809) إلى أبي عُبيدةَ أيضًا.

(3) الشاعرُ الجاهليُّ المشهورُ.

(4) وفي روايات البيت بعضُ الاختلاف.

(5) قلتُ: «الناقلُ»؛ لأنَّ وسيلةَ نَقْلِ الرسائلِ تغيَّرتْ كثيرًا، لِتَغَيُّرِ الزَّمانِ، كما نرى في أيامِنا هذه.

و«رسولٌ»: «فَعُولٌ»، بمعنى «مفعولٌ»؛ لأنَّه مأمورٌ، ومُكَلَّفٌ بِمَهَمَّةٍ مُحَدَّدَةٍ من قِبَلِ مُرْسِلِه.

وإنما جاز إطلاقُ «رسول» مع إرادةِ «رسالة»[1] لأنَّ «الرسالة» هي المقصودَةُ من إرسالِ الرسولِ، وهي مَهَمَّتُه الوحيدةُ.

ولذلك قال الجَوْهَرِيُّ[2] - رحِمَه اللَّهُ تعالى: «... و(الرسول) - أيضًا - (الرسالة)؛ لأنها مُرْسَلَةٌ».

ولذلك - أيضًا - قال ابنُ فارسٍ - رحِمَه اللَّهُ تعالى -[3]: «(رسل): الراءُ والسينُ واللامُ أصلٌ واحدٌ، مُطَّرِدٌ، مُنقاسٌ[4]، يَدُلُّ على الانبعاثِ والامتدادِ».

ثم، قال: «و(الرسول) معروفٌ». ثم، لم يَزِدْ.

قلتُ:

إنما اكتفى بقولِه: «معروفٌ» لعدمِ الحاجةِ إلى مِثْلِ ما قالوا - رحِمَهُمُ اللَّهُ تعالى - أو لِرَفْضِه إياه. واللَّهُ أعلمُ.

ثم، والأهمُّ من كلِّ ذلك، ما جاء في «المعجم الوسيط»[5]: «و(الرسول)

---

(1) كما في قولِ كُثَيِّر عزَّةَ، الذي استدلَّ به أهلُ التفسيرِ، وأهل اللغة.

(2) «مختارُ الصِّحاح» (رَسَلَ).

(3) «مقاييسُ اللغةِ» (2/ 392).

(4) موافِقٌ للقياسِ.

(5) (1/ 357/ 1).

في الشَّرْعِ[1]: . . . مَن يَبْعَثُه اللَّهُ بشَرْعٍ يَعْمَلُ به، ويُبَلِّغُه».

التنبيهُ الرابعُ:

جاءَ في «لسان العرب»[2]: «. . .(الرَّسول) اسمٌ من «أرسلت» وكذلك (الرسالة)».

قلـتُ:

لا أدرِي كيف؟!! وإنما يُقالُ: أرْسَلْتُ، أُرْسِلُ، إرسالاً» أو الاسمُ: «الإرسالُ».

نَعَمْ، «الرسولُ» اسمٌ، و«الرسالةُ» اسمٌ، لكنهما ليسَا من «أرْسَلْتُ»، إنما كلٌّ منهما اسمٌ مفعولِ «أرسلت»، واللَّهُ أعلمُ.

التنبيهُ الخامسُ:

قال في «لسان العرب»[3] - أيضًا -: «وسُمِّي الرسولُ رسولاً لأنَّه ذو رسولٍ، أي: ذو رسالةٍ. وقال أبو إسحاق النحوي: (معناه: إنا رسالةُ ربِّ العالمين، أي: ذَوَا رسالةِ ربِّ العالمين)».

قولُه: «لأنه ذو رسولٍ، أي: ذو رسالةٍ»، وما نَقَلَه من قولِ أبي إسحاق: «إنا رسالةُ» أراه تحكُّمًا، أو هو حملٌ للصَّريح على المجازِ، ولا حاجةَ إليه، إنْ صحَّ.

---

(1) وهذا أَهَمُّ ما يَغْنِينا في تفسيرِ كلامِ اللَّهِ تعالى، فلا نَنظُرُ في غيرِه إلَّا إذا لم نَهْتَدِ إلى المرادِ.
(2) (1/1645/1).
(3) (1/1645/1).

ثم، كيف يكون «الرسولُ» هو «الرسالة»، بينما هما متغايران؛ إذ هو حامِلُها؟!!

كما أني لا أعرفُ قائلاً بأنه يكفي إرسالُ «رسول» من شخصٍ إلى شخصٍ دون أن يكون «الرسول» مُكَلَّفًا بإبلاغِ رسالةٍ، شَفَهِيَّةً كانت، أم مكتوبةً.

أو دون أنْ يكونَ «الرسولُ» مُكَلَّفًا بمَهَمَّةٍ ما يَقُومُ بها غيرَ إيصالِ رسالةٍ.

مَلْحَظٌ هامٌّ:

أَعلَمُ كَمْ هو غريبٌ أنْ قُلْتُ ما قُلْتُ، في هذه التنبيهاتِ. بلْ، كم هو خطيرٌ، خطيرٌ جدًّا.

لكنْ هذا ما رأيتُه بعد طولِ بحثٍ، وشِدَّةِ معاناة، استمرَّت شُهُورًا، اللّه أعلمُ بما كانَ فيها.

لكني - مع هذا، وقبلَه وبَعْدَه - أرجو أنْ تنالَ هذه المسألةُ، وهذه التنبيهاتُ اهتمامَ مَنْ يَقِفُ عليها.

وعَسَى أن أَجِدَ نَقدًا، أو تصحيحًا، أو توجيهًا.

واللّهُ يَهْدِينا سواءَ السَّبيلِ.

والحمدُ للّهِ ربِّ العالمين(1).

* * * * *

(1) الساعة1.50 قبل عصر الأحد 15 من الحجة 1431، 21/ 11/ 2010م.

سورةُ القَصَص

1 - فـــائدة

في

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾[1]

قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ﴾ «إذا» ظرفيَّةٌ شرطِيَّةٌ، يعني وقْتَما تخافين ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾، فهو إخبارٌ لِأُمِّ موسى أنها ستَخَافُ، وتَوجِيهٌ - أيضًا - لها بما يَجِبُ عليها إذا دَبَّ الخوفُ في قلبِها.

وبعدَها ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ لا خوفَ حقيقةً، إنما هو عَرَضٌ ضعيفٌ.. ولا خوفَ يستمرُّ، بلْ، يَزُولُ قريبًا، سريعًا؛ لأنَّه وَعْدُ اللَّهِ تعالى. ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ وعدٌ بإعادته - عليه الصلاةُ والسلامُ - إلى أمِّه، ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وعدٌ بالاصطفاءِ، والتكريمِ.

فهل مع كلِّ ذلك يكون خوفٌ؟!

* * * * *

---

(1) [القصص: 7].

2 - فــائدة

في

قــوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ من سورة القصص[1].

قال اللّهُ تعالى في الآيةِ الأولى: ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

أي: لا يشعرون بما سيكونُ. وهو ما سَبَقَ في علمِ اللّهِ أنه سيكونُ لهم ﴿عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾[2].

وذلك، بعدَ اصطفائِه، وإرسالِه، وإصرارِهم على الكفرِ.

وقال تعالى في الآية الثانية: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾. أي لا يُحِسُّون بها، أو لا يعرفون قَصْدَها إلى تتبُّعِ أخبارِه - عليه الصلاةُ والسلامُ[3].

وما ذلك إلَّا سببٌ أراده اللّهُ تعالى لتحقيقِ ما قدَّره في سابِقِ عِلْمِه.

وهذا لا يَمْنَعُ أنه مَعْلُومٌ ضرورةً أنَّه - سبحانه - يفعلُ بأسبابٍ، وبغيرِ أسبابٍ. بلْ، إنَّه - سبحانه - يفعَلُ بضدِّ الأسبابِ؛ لأنه خالقُ الأسبابِ.

---

(1) الآيتان (9، 11).

(2) [القصص: 8] ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾.

(3) «تفسير السعدي» (612).

3 - فـــائدة

في

قوله تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾(1)

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ تصويرٌ لحالِ موسى - عليه الصلاةُ والسلامُ - حين ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ أختُه، أي أنها حين رأتْه - عليه الصلاةُ والسلامُ - كان لا يَقبَلُ ثديَ امرأةٍ مِمَّن جيءَ بِهِنَّ لغَرَضِ إرضاعِه، ولكنه - عليه الصلاةُ والسلامُ - أَبَى الرَّضاعَ مَنْ أيِّ امرأةٍ من هؤلاءِ النِّسْوَة؛ لما سَبَقَ به وَعْدُ اللَّهِ لأمِّ موسى - عليه الصلاةُ والسلامُ - ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: 11، 12].

و﴿ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: 18].

و﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 111].

لكنه - سبحانه - أراد أن يَجْعَلَ لذلكَ سببًا، وما أراده اللَّهُ ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرعد: 11]. فحتى لو عَلِمُوا أنها أمُّه لم يكن لهم إلَّا أنْ يَقْبَلُوا هذا الأمرَ؛ حتى يكونَ أَمْرُ اللَّهِ، ولِأَنَّهُم انصاعوا لقولِ امرأةِ فرعون ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: 9].

* * * * *

(1) [القصص: 11 - 12].

4 - فــائدة

في

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾(1)

ذاك هو قارونُ، لمَّا ذكَّره قومُه قائلين: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَىٰكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: 77] وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: 78] لمَّا قال ذلك ردَّ اللَّهُ تعالى قولَه بما جاءَ في آيةِ هذه الفائدةِ.

وقولُ قارونَ إنما هو إنكارٌ لما جاء في تَذْكِرَةِ قومِه له: ﴿ءَاتَىٰكَ اللَّهُ﴾، و﴿أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾، فما مناسبةُ هذا الجوابِ لذاك القولِ من قارونَ، بينما المتبادِرُ إلى الذِّهنِ أنْ يكونَ الجوابُ تأكيدًا لنصيحةِ قومِه، ولو بوجهٍ آخر؟

والجـوابُ من وجهين:

الأولُ: أنَّ قولَه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ الْقُرُونِ﴾ إنما هو تأكيدٌ لما جاء في نصيحة قومِه له، ومَا هُو مستَقِرٌّ في العُقولِ السليمةِ، والفِطَرِ السَّوِيَّةِ: ﴿ءَاتَىٰكَ اللَّهُ﴾ و﴿أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾، ولكنْ، من وجهٍ آخرَ.

(1) [القصص: 78].

بمعنى أنه إذا كان اللَّهُ هو الذي خلقَكَ - وأنت لا تُنكِرُ ذلك، أو لا تستطيعُ إنكارَه - فكيف تَكُونُ قد حصَّلتَ هذه الكُنوزَ بعِلْمِك وتصرُّفِك، دون إقدارِ اللَّه لك؟!

فإنْ أصرَرْتَ على الإنكارِ فسِيَرُ السَّالفين تَكْفِيكَ واعظًا، وقد كانوا أشدَّ منك قوةً، ومالاً، وعَتادًا، ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾، بينما أنت فَردٌ.

الوجهُ الثاني: أنَّ المذكورَ في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ هو من بابِ التنزُّلِ مع الخَصْمِ - كما يُسمِّيهِ المناطِقَةُ[1]، ولِلَّهِ المَثَلُ الأعلى - في جِدالِ المُعانِدِ، والمكابِرِ، والمنكرِ لما هو ثابتٌ مقرَّرٌ ببدائِهِ العُقولِ.

والمعنى:

هَبْ أنك أُوتيتَ هذه الكُنوزَ على عِلْم عندَك، فهل تستطيعُ بما عندَك من عِلْم أنْ تَمنَعَ نُزُولَ عذابِ اللَّهِ بك، كما نَزَل بمَن سَبَقُوك مِمَّن كانوا أشدَّ قوةً ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾، ولم يؤمنوا باللَّهِ تعالى، ولم يُقرُّوا بأنَّه الرزَّاقُ، الذي يُعْطِي، ويَمْنَعُ؟

فإذا كنتَ لا تستطيعُ، ولا يُمْكِنُك أَنْ تَزعُمَ أنك تستطيعُ، وإذا كنتَ لا تستطيعُ مَنْعَ قدَرِ اللَّهِ فلابدَّ أنَّ اللَّهَ القادرَ على إهلاكِكَ، والذي أهلَكَ مِن قَبلِكَ مَن كانوا أشدَّ منك قوَّةً ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ لابد أنَّه تعالى الذي ﴿ءَاتَىٰكَ﴾ هذه الكُنوزَ. فاحذَرْ عاقِبةَ الإنكارِ، والإعراضِ، والعِنادِ، ولك فيمن سبقوك العظةُ، والعبرةُ.

(1) «آداب البحث والمناظرة» - مثلاً - للشيخ/ الشَّنقِيطيّ، رحِمَه اللَّهُ تعالى.

تنبيهٌ:

قال الشيخُ/ السعديُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - في هذا الموضعِ: «قال تعالى مبيِّنًا أنَّ عطاءَه ليس دليلًا على حُسنِ حالةِ المعطَى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾»[1].

قلـتُ:

قوله - رحِمَه اللَّهُ تعالى -: «ليس دليلًا على حُسنِ حالةِ المعطَى»، إنما جاء على تفسيرِ قولِ قارون ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ على أنَّ المرادَ به: لمكانتي، وفَضْلِي عند اللَّه.

قلـتُ:

وهذا مَردودٌ من وجهين:

الأولُ - أنَّ تفسيرَ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ بهذا المعنى - فيما أَذكُر - ليس معتَبَرًا عند أهلِ التفسيرِ.

بلْ، لم يَذْكُرِ الشيخُ/ السَّعدِيُّ نفسُه - رحِمَه اللَّهُ تعالى - أكثَرَ من قولِه السابقِ: «... أنَّ عطاءَه ليس دليلًا على حُسنِ حالةِ المعطَى»[2].

وليس في عبارةِ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ تصريحٌ بادعاءِ قارونَ أفضليتِه عند اللَّه تعالى.

نعم، قد يكونُ ذلك المعنى مفهومًا، أو مُحْتَمَلًا في عبارةِ الشيخِ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - لكني لا أرى هذا المفهومَ، أو ذاك الاحتمالَ كافيًا في مثلِ هذا الموطنِ.

---

(1) «تفسير السعدي» (574).

(2) «تفسير السعدي» (574).

الوجه الثاني[1] - أنَّ هذا التركيبَ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ ليس دليلاً على الأفضليةِ عندَ اللَّهِ بحالٍ.

حتى لو فسَّرنا قولَ قارونَ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ بمعنى: إنما آتانيَ اللَّهُ إياه.

ذلك؛ أنه لم يَصِحِ ادِّعاءُ أحدٍ منَ المؤمنين أنَّ اللَّهَ أعطاه مالاً، أو غيرَه لفضلِهِ هو، ولمكانتِه عند اللَّهِ. فمَن قال مثلَ ذلك بعد عِلْمِه أنَّ اللَّهَ ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ [سبا: 39] فلا يصِحُّ إيمانُه.

ثم، إنَّ كافرًا لا يقولُ: «آتانيَ اللَّهُ».

صحيحٌ، أنَّ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ تَدُلُّ على فضلٍ، لكنه فضلٌ منسوبٌ إلى الإنسانِ بما اكتسَبَه هو: بعلمِه، بجُهدِه، بمالِه، بحيلَتِه، وما أشبَهَ ذلك.

فليس ذاك فضلاً، أو مكانةً عند اللَّهِ تعالى، بأيِّ حالٍ من الأحوالِ.

ثم، إنَّ ﴿عِندِيٓ﴾ إنما تدلُّ على استعلاءٍ واستكبارٍ.

ثم، هل يصحُّ تفسيرُ ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ بمعنى: «آتاني اللَّه»، بينما قد جاءت قولاً لكافرٍ؛ إنكارًا لنصيحةِ قومِه ﴿ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ و﴿أَحْسَنَ ٱللَّهُ﴾؟!

لا يمكنُ أنْ يَصِحَّ هذا التفسيرُ بحالٍ. واللَّهُ أعلمُ[2].

* * * * *

(1) لبيان ردِّ قولِ الشيخِ/ السعديِّ - رحِمَه اللَّه تعالى - في معنى هذه الآية، ومناسبتها.
(2) الساعة 8.52 بعد عشاء الثلاثاء يوم الأضحى 1427هـ، 30/12/2006م.

سورة النمل

1 - فـــائدة

في

قـولِهِ تعالى على لسان سليمان - عليه الصلاةُ والسلامُ - لمَّا تفقَّد الطيرَ فلم يجد الهدهدَ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾[1]

سليمانُ - عليه الصلاةُ والسلامُ - وهو الذي سخَّرَ اللَّهُ له كلَّ شيءٍ، وآتاهُ مُلكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعدِه - كما طَلَبَ في دعائِه - غاضبٌ غضبًا شديدًا لتخلُّفِ الهدهدِ عنِ الموعدِ، الذي كانوا يَلقَونَ فيه سليمان - عليه السلام - ويجتمعون معه لعرضِ أمورِهم.

لكنَّ سليمان - عليه السلام - وهو في أَوْجِ مُلْكِه، وقمةِ غضبِه، لم يَنْسَ التماسَ العُذرِ للهدهدِ الضعيفِ: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، أي: بعُذرٍ بَيِّنٍ، وسببٍ واضحٍ لتأخُّرِهِ.

فإنْ لم يأتِ الهدهدُ بالبيانِ الواضحِ لسببِ تخلُّفِه عنِ الموعدِ استحقَّ العقابَ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾.

---

(1) [النمل: 21].

قلـتُ:

وهذا ما يوضِّحه لنا رسولُ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم في أمرِه بِكَظْمِ الغيظِ[1]، وكذلك في قوله صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم: «ليسَ الشديدُ بالصُّرَعةِ[2]، وإنَّما الشديدُ الذي يَمْلِكُ نفسَه عندَ الغضَبِ»[3].

واللَّهُ أعلمُ[4].

* * * * *

(1) وفيه أحاديثُ حِسانٌ تدلُّ على فضلِه، وعظيم مرتبتِه.

(2) بفتح الراء المهملة. وهو كثيرُ الغَلَبةِ لمن يصارعُه؛ لقوتِه.

(3) صحيح. البخاري، من حديث أبي هريرة، رضِيَ اللَّهُ تعالى عنه.

(4) الساعة 8.00 بعد عشاء الخميس 19 شوال 1425هـ ، 2/12/2004م.

2 - فـــائدة

في

وقولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1]

قبلَها مباشرةً: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: 58]؛ تصويرًا لما حلَّ بقومِ لوطٍ - عليه السلام.

وقبلَ قصةِ لوطٍ - عليه السلام - : ﴿دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: 51]؛ تصويرًا لما أنزله اللَّهُ تعالى بثمودَ - قومُ صالحٍ، عليه السلام - نتيجة تكذيبِهم، ومكرِهم بنبيِّ اللَّهِ.

وكان قد قال اللَّهُ تعالى في أوائلِ السورةِ:

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: 14]؛ فرعونَ، وقومِه؛ ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: 55] لـمَّا كذَّبوا موسى - عليه الصلاةُ والسلامُ - وأنكروا الآياتِ.

وبين ذلك، وفي أثنائه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: 15].

إلى آخرِ قصةِ داودَ وسليمانَ - عليهما السلامُ.

---

(1) [النمل: 59].

ثم جاءت: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، بعدَ كلِّ هذا القَصصِ.

وتلاها مباشرةً:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: 60] في عشرِ آياتٍ[1] فيها دلائلُ الوحدانيةِ، والإنكارُ على المشركين، في ضِمنِه تفنيدُ مزاعمِهم، وختامُها: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: 69]، لَعلَّكم تعتبرون بما حَلَّ بهم، فترتَدِعون عن غَيِّكم.

ثم، يتلو ذلك: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل: 70]، أولئك المجرمين، المشركين، الذين ﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [الأنعام: 20]، ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾؛ فإنَّ اللَّهَ تعالى ﴿خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: 54].

وهذا، خطابٌ للنبيِّ الكريم صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم، وتعليمٌ له؛ كيف يُقابِلُ إعراضَ أولئك المكذبين، واستكبارَهم.

يَتخلَّلُ هذا الخطابَ، وهذه التسليةَ بعضُ مشاهدِ القيامةِ، وما فيها من وعيدٍ للكافرين: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل: 85]. وحُسْنِ مآلِ المؤمنين ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: 89].

ثم تُختتَم السورةُ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: 93].

---

(1) إلى الآية (69).

في منتصفِ هذا السياقِ - تقريبًا - ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وأرى - واللَّهُ أعلمُ - فيها مناسبةً لما قبلَها وما بعدَها، وذلك من وُجُوهٍ:

الأولُ: ﴿قُلْ﴾. وهذا أمرٌ بقَولٍ، فما القولُ المأمورُ به؟ وما صيغتهُ؟ وما زمانُهُ، أو وقتُه؟ وما فائدتُه؟

أمَّا القولُ فهو ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾[1].

وفيه مسـائلُ:

المسألةُ الأولى - هل هو قولٌ واحدٌ من جزئين ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾؟ أم أنَّ هذه الأخيرةَ ليست داخلةً في القولِ؟

والأرجَحُ عِندي أنه قولٌ واحدٌ[2]، مأمورٌ به[3].

أمَّا بيانُ ذلك، فيأتي بعدُ.

المسألةُ الثانيةُ - هلِ الصيغةُ المذكورةُ في الآيةِ[4] داخلةٌ في الأمرِ بالقولِ؟

---

(1) الساعة 12.00 ليلة الإثنين 10 من المحرم 1428هـ، 29/ 1/ 2007م، لم أستطع مواصلة الكتابة.

(2) وقد نقل الإمامُ/ القاسِمِيُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - عنِ الزمخشريِّ ما يُفِيدُ ذلك.
وقال محققا الكتاب: «الكشاف3/ 375» وعبارته المنقولةُ: «أُمر رسولُ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم أن ... وأن يستفتح بتحميدِه والسلام على أنبيائه، والمصطفَين من عبادِه».

(3) وقد ذهب بعضُ أهلِ العلمِ - منَ المفسرين وغيرِهم - إلى أن: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ ليست داخلةً في القولِ المأمورِ به. بل، هي سلامٌ منَ اللَّهِ تعالى عليهِم.

(4) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾.

أم يتمُّ امتثالُ الأمرِ بكلِّ ما أدَّى معناها؟

والقولُ عِندي أنَّ التزامَ اللفظِ أَوْلَى[1]؛ لأنَّ فيه أمورًا:

1 - أنه امتثالٌ حقيقيٌّ، بلا أدنى تصرُّفٍ.

2 - أنه مَظِنَّةُ تحقيقِ المطلوب[2].

3 - أنَّ فيه تيمُّنًا باللَّفظِ، وتبرُّكًا به.

وهذا قولُ الإمامِ/ الزمخشريِّ، في المنقول عنه، قال: «وبَعْثُ على التيمُّنِ بالذِّكرين[3]، والتبرُّكِ بهما»[4][5].

هذا، وقد رأى كثيرٌ من أهلِ العلمِ جوازَ الدعاءِ بكلِّ لفظٍ يؤدِّي معنى المأثورِ.

---

(1) كما هو معلومٌ في مواطنِه من شُروحِ الحديثِ - مثلًا - وعليه كثيرٌ من أهلِ العلمِ.

(2) نقل الإمامُ/ القاسميُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - عن الإمامِ الزَّمَخْشَرِيِّ: «... والاستظهارُ بمكانِهما» ، يعني العبارتين الواردَتين في الآيةِ «على قَبولِ ما يُلْقَى إلى السامعين، وإصغائِهم إليه، وإنزالِه من قلوبِهم المنزلةَ التي يَبْغِيها المُسْمِعُ».

وقد ذَكَرَ الشيخُ/ الألبانيُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - نفسَ المعنى في كلامِه عن خُطبة الحاجة، وضرورةِ الاستفتاح بها.

وللشيخِ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - رسالةٌ خاصةٌ في خُطبة الحاجةِ، ذَكَرَ فيها ذلك، وأشارَ إلى الرسالةِ في «الأجوبةُ النافعةُ عن أسئلةِ لجنةِ الجامعةِ» (ص74).

قلتُ: لكنَّ تلك الرسالةَ الخاصةَ قد فُقِدَتْ من مكتبتي. ولِلَّهِ الأمرُ من قبلُ ومن بَعْدُ.

(3) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾.

(4) وهذا مِنَ الفوائدِ التي ذكرها في هذا الأمرِ.

(5) «تفسير القاسمي» (7/ 520).

قلتُ:

لكنْ، أراه واجبًا الدعاءَ بالمأثورِ، ما دامَ ممكنًا، ويعلَمُه الداعي.

وأمّا زمانُ هذا الدعاءِ، أو وقتُه، فالذي أراه منَ الآيةِ في سياقِها:

1 - في كلِّ وقتٍ؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى مُسْتَحِقٌّ الحمدَ على الدوامِ؛ لِذاتِه، وكمالِه، ولاتصالِ أفضالِه، ونعمائِه على خَلقِه.

2 - بعد رؤيةِ هلاكِ الكافرين، والظالمين[1] وبعد ذِكْرِ ما كان من أَمْرِ إهلاكِ اللَّه لهم.

3 - في افتتاح كلِّ أمرِ ذي بالٍ[2].

*** وأمّا فائدةُ هذا الدعاءِ، فهي:**

1 - تحصيلُ أمرِ الامتثالِ.

2 - ضرورةُ حمدِ اللَّهِ في كلِّ ما يتقلّب فيه العبدُ من أحوالٍ.

3 - العِرفانُ لكلِّ مَن سبَقَ على طريقِ الحقِّ، والدعوةِ إلى اللَّهِ تعالى،

---

(1) كما جاءتْ هذه الآيةُ بعد قصِّ ما كان من ذلك، في آياتٍ من أوّلِ السورةِ إلى الآيةِ التي قبلَ هذه الآيةِ مباشرةً.

(2) كما جاءت هذه الآيةُ قبلَ الحديثِ عن بعضِ أدلّةِ التوحيدِ، وكما صحَّ من مواظبةِ النبيِّ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم على ذلك في خُطَبِه، وكما في حديثِ: «كلُّ أمرِ ذي بالٍ لا يُبْدَأُ بحمدِ اللَّهِ فهو أقطعُ»، أو: «أبترُ». وقال الإمام الزمخشريُّ - في المنقولِ عنه هنا -: «فيه تعليمٌ حَسَنٌ، وتوقيفٌ على أدبٍ جميلٍ،... وقد توارث العلماءُ، والخطباء، والوُعّاظ، كابرًا عن كابرٍ هذا الأدبَ...».

وخصوصًا المرسَلين؛ لأنهم قد قاموا بالبلاغِ الذي أمرَهُمُ اللَّهُ تعالى به خيرَ قيامٍ.

4 - استحضار ضرورةِ التأسِّي بهؤلاءِ الأكابر ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: 47]؛ «لن يَصْلُحَ آخرُ هذه الأمةِ إلَّا بما صَلَحَ به أوَّلُها»[1].

5 - الاستعلاءُ بذلك على كلِّ مَن خالفَه.

أرى كلَّ ذلك ظاهرًا من مكانِ الآيةِ في سياقِ السورةِ.

ثم، يؤكِّد اللَّهُ تعالى هذا الاستعلاءَ، وضرورةَ مواجهةِ المخالفين؛ بقولِه في آخِرِ السورةِ، ختامًا لها: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل: 93].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لذاتِه وكمالِه.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على الخلقِ والأمرِ.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على نَعمائِه التي تَتْرَى.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ «على ما هدانا لهذا الدينِ، ومَنَّ علينا بصراطِه المستقيم»[2].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما أَنزَلَ بأعداءِ دينِه، ورُسُلِه، وأوليائِه.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: 35].

---

(1) صحيح. البخاري، عن ابن مسعودٍ - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنه.

(2) «تفسير القاسمي» (7/ 534).

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما أعدَّ لأوليائِه، وأصفيائِه.

﴿سَيُرِيكُمْ﴾ [النمل: 93] أيها المكذبون ، المعْرِضُون، المستَكْبِرون ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالَّةَ على وحدانيتِه، وقوتِه، وفِعلِه بأعدائِه.

﴿فَتَعْرِفُونَهَاۚ﴾ [النمل: 93] «معرفةً تَدُلُّكم على الحقِّ والباطلِ»(1) بلا خَفاءٍ؛ فلا تَبْقَى لكم شبهةٌ، ولا حجةٌ، فتكونوا شهداءَ على أنفسِكم؛ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: 165].

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: 93].

ف ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ [إبراهيم: 42].

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: 80].

ف﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: 1].

هذا ما ظَهَر لي، في مناسبةِ هذه الآيةِ في هذا السياقِ، وفي بعضِ فوائدِها، واللَّهُ أعلمُ بمُرادِه. والحمدُ للَّهِ على ما وفَّقَ وهدَى(2).

* * * * *

(1) «تفسير السعدي» (560).

(2) الساعة 9.07، بعد عشاء الإثنين 10 من المحرم 1428 هـ ، 29/ 1/ 2007م.

3 - فــائدة

في

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾(1)

يَقْضِي سبحانه - يومَ القيامةِ - بين المؤمنين والكافرين، وبين كلِّ مختلفَين ﴿بِحُكْمِهِۦۚ﴾ العَدْلِ، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُعجِزُه شيءٌ؛ لأنَّه الذي خَلَقَ وأعطى القوَّةَ والجبروتَ.

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي يَعلَمُ كلَّ شيءٍ، ولا يَغيبُ عنه من خفاياهم شيءٌ(2).

* * * * *

(1) [النمل: 78].

(2) الساعة 8.55 بعد عِشاءِ الإثنين 19/ 11/ 1424هـ، 12/ 1/ 2004م.

4 - فــائدة

في

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾(1)

تَقَعُ هذه الآيةُ متوسطةً مَقْطعًا من سورةِ النَّمل، يتكون من اثنتَي عشرةَ آيةً، تدورُ(2) حولَ بعضِ مشاهدِ القيامةِ، ومواقفِها.

وهذا، هو ما دعا كثرةً كاثرةً منَ المفسرين إلى القولِ بأنها من ضِمنِ مشاهدِ يومِ القيامةِ(3).

وخالفَهم في ذلك علماء الفَلَكِ. بلْ، استدلَّ بعضُهم(4) على عدمِ صحَّةِ

---

(1) [النمل: 88].

(2) أو معظمُها.

(3) قال الإمام/ القاسميُّ - رحِمَه اللّهُ تعالى - بعد أنْ فسَّرها بهذا، قال: «ما ذكرناه في تفسيرِ هذه الآيةِ هو ما ذهب إليه كثيرٌ. قالوا: المرادُ بهذه الآيةِ تسييرُ الجبالِ الذي يحصُل يومَ القيامةِ، حينما يُبيدُ اللّهُ تعالى العوالم؛ كما قال: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: 2]، وكما قال: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: 10]. وقال: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: 5].

«تفسير القاسمي» (7/ 530).

وهو نفسُ ما فسَّرَها به الإمامُ/ السعديُّ - رحِمَه اللّهُ تعالى - (560).

(4) «تفسير القاسمي» (7/ 530) وذَكَرَ - أيضًا - في هذه المخالَفةِ كلامًا للعلامة/ المرجانيِّ في كتابه «وَفِيَّةُ الأسلافِ وتَحِيَّةُ الأخلافِ».

ذلك من أربعةِ أوجُهٍ، من نفسِ الآيةِ، ومن أسلوبِ القرآنِ الكريمِ.

قلـتُ:

وأنا، وإنْ كنتُ أَمِيلُ إلى قولِ أهلِ الفَلَكِ، لكني أرى - أيضًا - أنَّ الجمعَ بين الرأيين ممكنٌ، وفي غايةِ اليُسرِ، وبدونِ أدنى تعسُّفٍ.

وذلك، من نفسِ ألفاظِ الآيةِ، وفيه مسائلُ، لا يَمنعُها السِّياقُ أيضًا.

المسألةُ الأُولى:

﴿وَتَرَى﴾ والخطاب للنبيّ محمدٍ صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم، وكلّ إنسان راءٍ، أي: ذي بَصَرٍ، وعقلٍ.

وهي[1] - بنفسِها - لا تُحدِّد زمانًا، ولا تدلُّ عليه. بلْ، تَحتملُ الأمرَين معًا؛ حالَ الحياةِ الدُّنيا، وحالَ الحياةِ الآخرةِ، يومَ القيامةِ.

المسألةُ الثانيةُ:

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ لا تكونُ إلّا في الدنيا؛ إذ في القيامةِ لا تَبْقَى الجبالُ جبالاً، ولا أعرِفُ قائلًا بأنها تَبْقَى على هيئتِها، فإذا رآها الناسُ في المَحْشَرِ ﴿نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: 10] بأمرِ ربِّها، بعدَ أنْ رآها الناسُ على هيئتِها.

المسألةُ الثالثةُ: ﴿تَحْسَبُهَا﴾ أي: على خلافِ الحقيقةِ.

وهذا لا يكونُ إلّا في الدُّنيا، لأنَّ القيامةَ ليس فيها إلّا اليقينُ ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ

(1) ﴿وَتَرَى﴾.

﴿غِطَآءَكَ﴾ [ق: 22] «الذي غطّى قلبَك»[1] فمَنَعَك معرفةَ الحقائقِ، ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: 22] « يَنظرُ ما يُزعِجُه ويُروِّعُه»[2] على حقيقتِه، كما هو في نفسِ الأمرِ، لا يُحجَزُ أحدٌ عن معرفتِه.

فـ ﴿تَحْسَبُهَا﴾ لا تكونُ إلّا في الدنيا.

المسألة الرابعة: ﴿جَامِدَةً﴾، وتحتمل معنيين:

1 - لا حياةَ فيها، ولا حركةَ؛ لأنَّ (الجامدُ) ضدُّ (الحيُّ)، سواءٌ كانتِ الحركةُ ذاتيةً، مخلوقةً في الشيءِ، أو كانت طارئةً.

2 - باقيةً على حالِها، من قولِهم: «جَمَدَ الماءُ: قام»[3] أي في مكانه؛ لأنه إذا جَمَدَ بَقِيَ في مكانه لا يتحرَّكُ منهُ.

فـ ﴿جَامِدَةً﴾ لا تكونُ إلّا في الدُّنيا؛ لأنَّ الأمرَ يومَ القيامةِ بخلافِ ذلك؛ إذ يومَها: ﴿تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: 48]، فإذا بُدِّلت فأين الجبالُ؟!

لا جبالَ يومئذٍ؛ لأنها ﴿نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: 10] فصارت ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: 5].

المسألةُ الخامسةُ:

﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ أي: كما يَمرُّ السحابُ، ولا تَكادُونَ تُدرِكون مُرورَه، أو تُحِسُّونَه.

---

(1) «تفسير السعدي» (749).

(2) «تفسير السعدي» (749).

(3) «مختار الصحاح» (جَمَدَ).

فالجبالُ كذلك، تتحرَّكُ، لكنكم لا تُحِسُّونَ حركتَها.

وهذا لا يكونُ إلَّا في الدنيا؛ إذ لا سَحابَ في الآخرةِ.

المسألةُ السادسةُ:

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ اللّهُ خَلَقَها، وهو سبحانه جَعَلَها ﴿تَمُرُّ﴾ ﴿مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ أي: مرًّا لطيفًا، لا تشعرون به، كما لا تشعرون بِمَرِّ السَّحابِ.

فذِكرُ الجبالِ - في هذا الموطنِ - مَسُوقٌ مَساقَ الآياتِ، ولا تكونُ الآياتُ إلَّا في الدُّنيا؛ دِلالةً، وبُرهانًا، وحُجَّةً.

المسألةُ السابعةُ:

﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ والخبيرُ: هو العليمُ بالأُمورِ على ما هي في نفسِ الأمرِ.

والمعنى: إنَّ الذي خَلَقَ الجبالَ على هذه الصورةِ البديعةِ، المَهِيبةِ ﴿خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ في الدنيا، ويُحاسبُكم به، ويُجازيكم عليه يومَ القيامةِ، عن علمٍ بحقيقةِ ما كنتم تفعلون.

فهذا تقريرٌ، وإعلامٌ بما يكونُ في الدنيا، وما يترتبُ عليه في القيامةِ، وكيفيةِ ترتُّبِهِ.

﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾، فاحذَروه.

فآخرُ الآيةِ مرادٌ به يومُ القيامةِ، بالأساسِ.

فهذه سبعُ مسائلَ، أُولاها تحتملُ الدُّنيا، والآخرةَ. وأُخراها مرادٌ بها

الآخرةُ بالأساسِ، وخمسٌ ما بينهما لا تكونُ إلّا في الدنيا.

ومن هذا أقولُ:

إنها - ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ - آيةٌ، ككلِّ آياتِ اللّهِ الكونيةِ، يَلْفِتُ رَبُّنا إليها أنظارَنا، وإلى ما جَعَلَه فيها من بديعِ صُنعِه - سبحانه -، ويجعَلُ هذه الآيَةَ، وما فيها، تحذيرًا لنا مما ينتظِرُنا يومَ نَلْقَاهُ.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: 30].

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾.

﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: 88].

فإذا كان ذلك كذلك فلا يَنْفِي أحدُ الأمرينِ الآخَرَ، كما لا يصحُّ قصرُ الآيةِ على أحدِ الأمرين.

وبهذا، أرى - واللّهُ أعلَمُ - أنه أمكَنَ الجمعُ بين المعنَيين، بلا أدْنَى تعسُّفٍ، أو تأويلٍ. بل، بغايةِ السُّهولةِ واليُسْرِ.

والحمدُ للّهِ على ما هدى ووفَّق.

وثمّة فائدةٌ أُخرى، نأخذُها من ألفاظِ الآيةِ؛ ألا وهي قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، والإتقانُ: فِعْلُ الشيءِ بإحكامٍ[1]، أي: جَعْلُه محكمًا، على

(1) «مختار الصحاح» (تقن).

أكملِ صورةٍ، وأحسنِ صفةٍ.

فيكونُ:

﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ من تمامِ الإتقانِ، واللَّهُ أعلمُ[1].

* * * * *

(1) الساعة 12.04 ليلة الثلاثاء 11 من المحرم 1428هـ 30/ 1/ 2007م.

سورة العنكبوت

1 - فـــائدة

في

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]

الآية: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾، فما مناسبةُ هذا الختامِ لها؟

والجـوابُ:

قال الشيخُ/ السعديُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى -: «إلّا أنَّه (آمن له بدعوته)[2] لـوط... ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم، حين رأى أنَّ دعوةَ قومِهِ لا تُفيدُ شيئًا: ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ أي: هاجِرٌ أرضَ السُّوءِ، ومهاجِرٌ إلى الأرضِ المباركةِ - وهي الشامُ.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي له القوةُ، وهو يَقْدِرُ على هدايتِكم، أو إلحاقِ العذاب بكم. ولكنه ﴿حَكِيمٌ﴾[3] ما[4] اقتضت حكمته ذلك»[5].

---

(1) [العنكبوت: 26].

(2) لَعَلَّ الصوابَ: «آمن له، وبدعوته» انظر: «التنبيهات في التصحيفات - تصحيفات كُتُبِ التفسيرِ».

(3) كذا في النسخةِ؛ على أنه لفظُ الآيةِ، وهو تصحيفٌ، لا أدري ممن؛ وقد يكون منَ الناسخِ. والصواب: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، كما هو لفظُ الآيةِ. أو: «حكيم»؛ على أنه شرحٌ.

(4) أي: لم تَقْتَضِ حكمتُه هدايتَكم.

(5) «تفسير السعدي» (579).

قلـتُ:

هذا كلامٌ جيدٌ جدًّا، يتناولُ معنًى خاصًّا لهذين الاسمَينِ، يتعلَّقُ بسياقِ الآيةِ، على خلافِ عادةِ الشيخِ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - في تناوُلِ الأسماءِ الحُسنى، التي تأتي أواخرَ الآياتِ.

ورغمَ ما في هذا الكلامِ من وجهِ مناسبةٍ للآيةِ إلَّا أني أراه غيرَ وافٍ.

ولذلك، أقولُ، وباللَّهِ التوفيقُ:

لمَّا لم يؤمِنْ لإبراهيم إلَّا لوطٌ - عليهِما السلامُ - قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾، وتارِكُكم وكفرِكم[1]؛ لما قد يترتبُ على كفرِكم من نُزُولِ عذابِ اللَّه بِكم[2]. ثم، إنه واجبٌ عليَّ[3] هَجْرُ الكفرِ وأهلِهِ، والسعيُ بالدعوةِ إلى قومٍ آخرين، عساهم يؤمنون[4].

ف ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ له القوةُ كلُّها ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [فاطر: 44]، فهو سبحانه قادرٌ على إهلاكِكم إذ كَفَرْتُم، وأعرضْتُم. كما أنه سبحانه قادرٌ على هدايتِكم.

لكنه سبحانه ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ الذي لا يَخْلُو فِعلُه من حكمةٍ، علِمَها من علِمَها،

---

(1) أي: على حالكم منَ الكفرِ. ويصح: «وكفرَكم» بالنصبِ. أي: وتاركٌ كفرَكم لكم.

(2) ولا يعني ذلك أني أقولُ أنه نزلَ بهِم عذابٌ ما، وقد نبَّه الشيخُ/ السعديُّ - رحمه اللَّه تعالى - على أنه قد وَرَدَ في الإسرائيليات تحديدُ ما نَزَلَ بقومِ إبراهيمَ، عليه الصلاةُ والسلامُ.

(3) إبراهيمُ عليه الصلاةُ والسلامُ.

(4) وهذا من أمرِ اللَّهِ تعالى، لا باختيارِ الرُّسُلِ؛ فليس لرسولٍ أنْ يُهاجِرَ من أرضِ دعوتِه إلى غيرِها إلَّا بأمرِ اللَّهِ تعالى له.

أو لم يَعْلَمْها الناسُ أجمعون.

وقد اقتضتْ حكمتُه سبحانه إرسالي إليكم، وألّا تؤمنوا، كما قد سبَقَ بذلك عِلْمُه، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ.

فليس معنى كونِكم لم تؤمنوا أنكم فعلتُم ما يخالفُ سابقَ علمِه فيكم.

وليس معنى كونِه لم يُنزِل عليكم عذابًا حالًا، أو مؤخَّرًا أنكم أَعْجَزْتُموه سبحانه، حاشاه من عزيزٍ.

وليس معنى هِجْرَتي أنه غيرُ قادرٍ على تأييدِي ونَصْرِي، أو سَوقِ قلوبِكم إلى ما جئتُكم به.

ليس شيءٌ من كلِّ ذلك، أو غيرِه - إن ظننتُموه - ليس شيءٌ من كلِّ ذلك بصحيحٍ، كيف ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ [فاطر: 44]؟!

كيف يصحُّ من ذلك شيءٌ و﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؟!!

هذا، واللّهُ أعلمُ(1).

* * * * *

(1) الساعة 7.42 بعد عشاء الأحد 26 من القعدة 1427 هـ ، 17/12/2006م.

2 - فائدة

في
قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[1]

لمَّا قال - جَلَّ في عُلاه -: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ [الأنعام: 38].

ولمَّا قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء: 44][2].

ناسَبَ أن يقول - سبحانه - في آية «العنكبوت»: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأصواتِها، ولُغاتِها، بما فيها من تَسبيحٍ، ودعاءٍ؛ تطلبُ بهِ رزقَها، ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما يحتاجه كلٌّ منها، فيُعْطِيَه ما يَلزَمُه مما فيه صلاحُه، وَفْقَ ما يَعلَمُه - سبحانه.

أمَّا قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ﴾، فكأنَّه كقولِه تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ [الإسراء: 31][3]، وكأنَّه - سبحانه - قَدَّرَ رِزقَ هذه الدوابِّ

---

(1) [العنكبوت: 60].
(2) وفي فائدة ﴿حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ هنا، انظر: «مختصر النبراس» (207).
(3) في النهي عن قَتْلِ الأولاد خَشيةَ الفقرِ.

العَجْماءِ قبلَ رِزقِنا[1]؛ إذْ إنه سبحانه قدَّم ذِكرَها قبلَ ذِكْرِ البَشَرِ.

ثم، إنَّ هذا التقديم قد يُفيدُ - أيضًا - نفيَ تَوَهُّمِ ضمانِ اللَّهِ تعالى لرزقِ هذه الأنعامِ، وسَبْقِ تقديرِه له.

وهذا التَّوَهُّمُ قد يَطرأُ على الإنسانِ بسببِ تفضيلِ اللَّهِ تعالى له، وتكريمِه بالعقلِ؛ فيَظُنُّ أنَّ له شيئًا، وتدبيرًا في طَلَبِ الرِّزق وتحصيلِه، بخلاف الأنعامِ.

واللَّهُ أعلمُ[2].

* * * * *

(1) الساعة 9.45 ليل الثلاثاء 6/ 11/ 1424هـ، 30/ 12/ 2003م.

(2) رمضان 1431هـ 2010م.

سورة لقمان

1 - فائدة

في
قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(1)

كان الحديثُ قبلَها - من أوّلِ السورةِ - عن ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [لقمان: 2]، وموقفِ الناسِ منه، وأنهم فريقانِ، فمنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [لقمان: 4، 5].

ومنهم: ﴿مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: 6، 7].

ثم أكّد سبحانه ثوابَ المؤمنين بخمسةِ مؤكّداتٍ، رغمَ عدمِ حاجتِه سبحانه إلى التأكيدِ؛ لأنه اللّهُ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: 87].

الأولُ - حرفُ التوكيدِ «إنَّ».

الثاني - تكْرارُ الحديثِ عن ثوابِهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ [لقمان: 8].

---

(1) [لقمان: 9].

الثالثُ - قولُه تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾ [لقمان: 9].

الرابعُ - قولُه تعالى: ﴿حَقّٗاۚ﴾.

الخامسُ - قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [القلم: 35]، فاقتضت حكمتُه سبحانه التمييزَ بينَ الفريقين.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يُعجزه شيءٌ، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر: 44].

فهو سبحانه: ﴿يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: 18]، وهو ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: 16]، فكان مناسبًا الختامُ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

أمّا لماذا قدّم ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ قبل ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في هذا الموضعِ، فلأَمْرَينِ:

الأولُ - أنَّ الغالبَ[1] تقديمُ اسمِ «العزيز» إذا اجتمع مع غيرِه.

الثاني - أنه قد ذُكِرَ في الآيتين من إعراضِهم وأفعالِهم ما ظنوا أنهم به غالبون، فناسَبَ ذلك تقديمُ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾. واللّهُ أعلمُ[2].

* * * * *

---

(1) في أسلوبِ القرآنِ.

(2) الساعة 4.40 - توقيت عادي - قبل فجر الجمعة 4 شعبان 1426هـ ، 5/ 9/ 2005م.

2 - فـــائدة

في

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾(1)

قال صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم: «إنَّ اللّهَ جميلٌ يُحبُّ الجَمالَ»(2). لذلك، بَثَّ سبحانه الجمالَ في الكونِ، وجعَلَه آيةً دالَّةً عليه، وطَلَبَ من عبادِه التَّحَلِّي به، فقال: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: 31].

كما طَلَبَ منهم إظهارَه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 11]، «إن اللّه يحبُّ أنْ يَرَى أَثَرَ نِعمتِهِ على عبدِه»(3).

نرى هذا الجمال في كلِّ ما يُحيط بنا، نسْمَعُه، أو نراه. فمن ذلك:

1 - اللّهُ ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 102] جمالٌ؛ فيه كمالُ القدرةِ، وجلالُ الكمالِ.

2 - ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: 88] جمالٌ؛ لأنه سبحانه ﴿أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فالإتقانُ مع التفرُّدِ كمالٌ، والكمالُ جمالٌ.

3 - وكَوْنُ الخَلْقِ خَلْقَه جمالٌ؛ لأنَّ فيه فضلاً، وإنعامًا.

---

(1) [لقمان: 19].

(2) صحيح. مسلم، من حديثِ عبدِ اللّهِ بنِ مسعودٍ - رضِيَ اللّهُ تعالى عنه.

(3) حَسَنٌ. أحمد، من حديث عِمرانَ بنِ حُصَينٍ.

4 - ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: 8] جمالٌ؛ لأنّه الحكيمُ، والحِكمةُ جمالٌ، ومطابَقَةُ الحكمةِ جمالٌ، وإقرارُ المسلمِ بذلك جمالٌ؛ لأنه يُقرُّ بالعجزِ والافتقارِ، وهذا منه جمالٌ.

5 - ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: 4] جمالٌ؛ لأنَّ الاتساعَ فيه رَحابةٌ، وانطلاقٌ.

6 - ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ [النور: 45] جمالٌ؛ لأنَّ التنوُّعَ دليلُ قدرةٍ واقتدارٍ، والقدرةُ عظَمَةٌ وجمالٌ.

7 - وكذلك التشابُهُ جمالٌ؛ لأنه دليلُ تفرُّدٍ، وفي التفرُّدِ كمالٌ، واستغناءٌ.

8 - ألم تر أن اللّه أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ❁ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك﴾ [فاطر: 27، 28] جمالٌ، لأنَّ في اختلافِ الألوانِ بَهْجَةً للنفسِ، وموافقةً لمختلفِ الطِّباعِ.

9 - ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: 13] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج: 65].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [النحل: 12].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: 14].

جمالٌ؛ لأنَّ التسخيرَ رأفةٌ، ورحمةٌ بنا.

10 - ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: 32] جمالٌ؛ لأنَّ به تستقيمُ الحياةُ.

11 - ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: 78] جمالٌ، ففي الطُّفولةِ حُسْنُ الصورةِ، ولَطَافةُ الحركةِ، وسذاجةُ المنطقِ، وصفاءُ الرُّوحِ، وحلاوةُ الصوتِ(1).

هذه بعضُ صُوَرِ الجمالِ في الكَوْنِ.

فإذا كان الجمالُ ظاهرًا في كلِّ أجزاءِ الكَوْنِ فكيف يُوصَفُ بعضُ هذه الأجزاءِ بأنه ﴿أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾؟!

والجـوابُ:

الجمالُ حقيقةٌ مطلقةٌ، وهو في واقعِ الناسِ ونَظَرِهم نسبيٌّ. بلْ، إنَّ بعضَهم قد لا يراه أصلاً.

ثم، إنَّ اللَّهَ تعالى قد فضَّلَ بعضَ المخلوقاتِ على بعضٍ، فيلزَمُ ألَّا يكونَ نصيبُها منَ الجمالِ واحدًا. يرى ذلك التفاوتَ مَن يراه، ويَعْمَى عنه مَن يَعْمَى.

---

(1) ترى كلَّ ذلك - ما عدا المنطق - في كلِّ الكائنات الحيَّةِ بلا استثناءٍ، وفي النبات أيضًا؛ فكلُّ صغيرٍ - المولودُ والنَّبْتةُ - جميلٌ، حتى صغارِ الحَمير، والجَرْوِ - الكلبُ المولودُ أوِ الصغيرُ - جميل أيضًا، ولا أستبعد الجمالَ في صِغارِ الخنازيرِ، وإنْ كنتُ لم أرَ خنزيرًا مولودًا.

ففي الأصواتِ..

أنصِتْ إلى صوتِ البُلبُلِ.. أَصْغِ إلى صوتِ الغُلامِ في رابعِ أشهُرِه[1].. ثم في سابعِهِ[2]..

استمِع نقيقَ الضِّفدِعِ.. ونباحَ الكلابِ.. والغُرابِ.. قارِنْ بنَهيقِ الحِمارِ[3] تجده ﴿أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾..

نعم.. ﴿أَنكَرَ﴾... لكنها درجاتٌ.

لكنْ.. لا بد أنَّ في كلٍّ منها جمالاً يخصُّه!! ألا ترى تَنبيهَ نَهيقِ الحِمارِ[4] لك بوجودِ شيطانٍ؟!.. «فإنَّهم[5] يَرَوْنَ ما لا تَرَوْنَ[6]»[7].

ألا ترى ذلك جمالاً؟!.. رغم ما فيه من إزعاجٍ.

ثم، إنَّ «أنكر» يكون قبلَها «مُنكَرٌ».. فانتبِه إلى هذه الدرجاتِ، ولا يَهُولنَّك ذلك عنِ الجمالِ. واللَّهُ أعلمُ[8].

* * * * *

---

(1) مثلاً.

(2) أو بعدَه بقليلٍ؛ عندما يبدأُ في نطقِ بعضِ الأحرفِ.

(3) و«نُهاق»، بضمِّ النون - أيضًا. انظر: «مختار الصِّحاح» (نهق).

(4) ونباحِ الكلبِ، المذكورِ معه في الحديثِ.

(5) الحمارُ حين ينهِقُ أو ينهُق - بكسر الهاء وضمها - والكلبُ حينَ يَنبحُ.

(6) يَرَوْنَ مِنَ الشياطِينِ ما لا تَرَوْنَ أنتم. لذلك ورَدَ في الحديثِ: «فتَعَوَّذُوا باللَّهِ مِنَ الشَّيطانِ».

(7) في إسناده ضعف. أخرجه أبو يعلى في «مسنده» من حديث أبي هريرة - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنه.

(8) الساعة 4.15 (توقيت عادي) قُبيلَ فجر السبتِ 6 شعبان 1426هـ، 10/ 8/ 2005م.

3 - فائدة

في

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]

تتميَّزُ السورةُ بلَفتِ النَّظرِ إلى ظُهورِ آياتِ اللَّهِ المبثوثةِ في الكونِ، ودلائلِ قدرتِهِ، وتفرُّدِه سبحانه بالخلقِ: ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ [لقمان: 11] ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [لقمان: 20] ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [لقمان: 29]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ [لقمان: 31].

ثم، إنه مركوزٌ في الفِطَرِ أنَّ اللَّه تعالى وحده الخالقُ.

لذا قال تعالى في هذه السورةِ[2]: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: 25].

ثم، أمَرَنا اللَّهُ تعالى بعدَها: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

الحمدُ للَّهِ أنَّه خَلَقَ[3]..

---

(1) [لقمان: 25].

(2) وتكرر مثلُه في غيرِ ما سورةٍ منَ القرآنِ.

(3) فالخَلْقُ نعمةٌ؛ لأنَّه سبحانه خلقَهم ليعبدوه.

الحمدُ للَّهِ على ما خَلَقَ[1]..

الحمدُ للَّهِ على ظهورِ حجَّتِهِ[2]..

الحمدُ للَّهِ «إذ قامت عليكم الحجةُ باعترافِكم[3]»[4]..

الحمدُ للَّهِ على إنزالِهِ الكتابَ، وإرسالِهِ الرسلَ[5].

الحمدُ للَّهِ على عدلِه في خلقِه ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: 35].

فـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. واللَّهُ أعلمُ[6].

* * * * *

(1) لأنه سبحانه ﴿أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: 88].
(2) بدلائلها المبثوثةِ في الكونِ، والمتلوَّةِ.
(3) اعترافكم أنَّ اللَّه تعالى وحْدَه الخالقُ.
(4) «ابن كثير»، تفسير هذه الآية.
(5) زيادةً في إقامةِ الحجة.
(6) الساعة 3.55 قبيل فجر الإثنين 29 شعبان 1426هـ، 3/10/2005م.

سورة الأحزاب

1 - فــائدة

في

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(1)

﴿عَلِيمًا﴾ بِسَرَائرِ النُّفوسِ؛ لأنَّه ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: 98] فهو - سبحانه - يَعْلَمُ ما يكيده الكافرون، وما يُبطِنُه ويُخفِيهِ المنافِقُون، فإنه ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: 19].

كما يعلَمُ أنهم لن يُؤمِنوا ف ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 6].

﴿حَكِيمًا﴾ فيما يأمرُ ويَنْهى، وفي فعلِهِ كُلِّه.

لذلك قال بعدَها: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: 3](2).

* * * * *

(1) [الأحزاب: 1].

(2) الساعة 6.30 صباح الإثنين 8/ 2/ 1425هـ، 29/ 3/ 2004م.

2 - فـائدة
في
قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾(1)

جاءت هذه الآيةُ بعدَ قولِه تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 4].

وفيها قضيّتـان:

1 - قضية الظِّهارِ.

2 - وقضيةُ ادِّعاءِ الأولادِ أوِ التَّبَنِّي.

فلماذا خصَّ قضيةَ الأدعِياء بالذِّكرِ هنا، بينما لم يتعرَّض لأمرِ الظِّهارِ، لا في هذه الآيةِ ولا بعدَها، إلى آخرِ السورةِ؟

والجـوابُ:

أرى - واللّهُ أعلمُ - أنَّ عَدَمَ ذِكر «الظِّهارِ» في غيرِ هذا الموضِعِ مِنَ السورةِ، بينما نصَّتِ الآيةُ التاليةُ على حُكمِ «الأدعياء»، وأحوالِه، كما قد ذُكِرَ شيءٌ مما يخصُّه - أيضًا - في قولِه تعالى: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى

---

(1) [الأحزاب: 5].

﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ﴾ [الأحزاب: 37]، أرى أنَّ ذلك إنما كان لأسبابٍ، يجبُ أنْ يُنتَبَهَ إليها.

ويُمكنُني أن أعُدَّ من هذه الأسبابِ ثلاثةً:

السببُ الأولُ: خصوصيةُ أمرِ الظِّهارِ.

السببُ الثاني: تعدِّي أمرِ الادعاءِ.

السببُ الثالثُ: تخصيصُ الظِّهارِ بالذِّكرِ في سورة المجادِلة[1]، التي سُمِّيت باسمِ أولِ - أو أشهرِ - مَن ظاهَرَ منها زوجُها، أو باسمِ مراجَعَتِها لرسولِ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم في هذا الشأنِ «المجادَلة».

أمَّا خصوصيةُ أمرِ الظِّهارِ: فلأنه يتعلَّق بالزوجين لا يتعداهما إلى غيرِهما، وشأنه شأنُ الطلاقِ.

إلَّا أنَّ في الظِّهارِ كفارةً؛ ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ [المجادلة: 3] ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ﴾ [المجادلة: 4].

﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ﴾[2] [المجادلة: 4].

هذا، ولو قال قائلٌ: بل، إنَّ الظِّهارَ يتعدَّى إلى الأولادِ.

---

(1) بكسر الدال، على إرادةِ الصحابيةِ التي وقعت منها المجادَلة - بفتح الدال.

(2) ويرى بعض أهل العلم عدمَ اشتراط ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ في الإطعام، إذ لم يذكره اللَّهُ تعالى معه.

قلت: لكني أرى اشتراطه، وليس هذا محلَّ بسطِه.

قلتُ: وكذلك الطلاقُ.

ومع هذا، أحلَّ اللّهُ الطلاقَ بأسبابِهِ المعتَبرةِ شرعًا، وحرَّمَ الظِّهارَ، وشَدَّدَ في أمرِهِ، وتوعَّدَ فاعِلَه.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: 2].

تشنيعٌ لأمرِهم، وتقبيحٌ له.

﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ [المجادلة: 3] تذكيرٌ وتعليمٌ.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 3] تحذيرٌ، كالتهديدِ.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: 4] إعلامٌ، وفي ضمنِه وعيدٌ.

فتبقى للظهار خصوصيتُه بالزوجين، لا يتعداهما.

السببُ الثاني: تعدِّي أمر الادعاءِ.

نعم، هو متَعَدٍّ إلى غيرِ الأبِ المدَّعِي، بكسرِ العَين المهملةِ، والابنِ المدَّعَى، بفتح العَين. أيْ: الذي زَعَمَ نسبتَه إلى غيرِ أبيهِ.

ذلك أنَّ فيه:

1 - اختلاطُ أنسابٍ؛ إذ إنَّ هذا الدَّعِيَّ ليس صَميمَ نَسَبِ الأبِ الذي ادَّعاه، أو ادَّعى هو نسبتَه إليه.

ولمَّا كان أمرُ الأنسابِ مَصُونًا شرعًا، مأمورًا بحِفْظِه كان حُكمُ اللَّهِ - تبارَكَ وتعالى -: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ [الأحزاب: 4] أي: مجرَّدُ قولٍ، وهو باطلٌ لا حقيقةَ له.

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾.

ولـمَّا كان الدَّعِيُّ مُدَّعيًا ما ليس له زُورًا، وبُهتانًا توعَّده رسـولُ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم بقولِه: «لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلَّا كَفَرَ وَمَنِ ادَّعَى قَوْمًا لَيْسَ لَهُ فِيهِمْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(1).

2 - استباحةُ ما لم يُبَحْ من أمرِ النساءِ.

ذلك، أنَّ الدَّعِيَّ يدخُلُ على كلِّ نساءِ المُدَّعِي: زوجتُه، أمُّه، أخواتُه، بناتُه، عمَّاته، خالاته، بلا استثناءٍ، ولا قيدٍ أو شرطٍ.

فيستبيحُ بذلك من أمرِ هؤلاءِ النسوةِ ما حرَّمه اللَّهُ على مثلِه؛ إذ هُنَّ أجنبيَّاتٌ، لا يجوزُ له الدخولُ عليهنَّ، أو الخَلْوَةُ بهنَّ.

3 - توريثُ مَن لا ميراثَ له.

فالدَّعيُّ يصيرُ ابنًا، له كلُّ ما للابنِ الصُّلبِ من حقٍّ في أبويه، وأصولِهما، وفروعِهما، فيرثُ الدَّعِيُّ كابنِ صُلبٍ - وليس هو بذاك - وهذا غيرُ جائزٍ شرعًا. ثم، إنَّ توريثَه يُقلِّلُ أنصبَةِ باقي الورثَةِ.

وهذا غيرُ جائزٍ أيضًا.

من هذه الثلاثِ يَستبينُ تَعَدِّي الادعاءِ إلى ما سوى المدَّعِي والمدَّعَى.

وبها - أيضًا - يَظهر اختلافُه عن أمرِ الظِّهارِ(2).

---

(1) صحيح. البخاري، من حديث أبي ذرٍّ - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنه.

(2) أمَّا السببُ الثالث، فلَعَلَّه يكفي ما ذكرتُه في (ص244).

لذا كان ذِكرُ الادعاءِ في الآيةِ الأُولى[1] موطنَ حاجةٍ إلى البيانِ، فأدركَنا سبحانه، وهو اللطيفُ الخبيرُ ببيانٍ شافٍ في الآيةِ التي تليها مباشرةً[2].

ولو قيل: كما قد جاء ذِكرُ الظِّهارِ في أربعِ آياتٍ من أولِ سورة المجادِلة، فكذلك قد جاء ذِكرُ الادِّعاءِ - ولو بطريقٍ ما في آياتٍ أُخَر، كما في:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: 37].

وكما في:

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء: 23] محرَّماتٌ عليكم، فيكونُ المرادُ أنَّ حلائلَ الأدعياءِ غيرُ داخلاتٍ في المحرَّماتِ.

وكما في:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: 40]، فلماذا فصَّلَ هنا[3] أمرَ الادِّعاءِ، واقتصر على ذِكر الظِّهارِ دون بيانٍ؟

قلتُ:

الظِّهارُ قد أُشيرَ إليه هنا[4] وفُصِّلَتْ أحكامُه هُناك[5].

---

(1) [الأحزاب: 4].

(2) [الأحزاب: 5].

(3) [الأحزاب: 5].

(4) [الأحزاب: 4].

(5) [المجادلة: 1 - 4].

والادِّعاء قد فُصِّلتْ أحكامُه هنا، وأُشيرَ إليه هناك[1]؛ فإنَّ ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ [النساء: 23] إشارةٌ إلى ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ﴾ [الأحزاب: 37][2] و﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ [الأحزاب: 40] تأكيدٌ لنفْي الادعاءِ، وحُرمَتِهِ.

و﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: 40] تطبيقٌ عمليٌّ.

فليس في هذه الثلاثِ حُكمٌ جديدٌ، أو تفصيلٌ لمُجْمَلٍ.

فالظِّهارُ، إشارةٌ هنا، وتفصيلٌ هناك.

والادِّعاءُ، تفصيلٌ هنا، وإشارةٌ هناك.

مقصودٌ واحدٌ، ونَهجٌ واحدٌ. واللَّهُ أعلمُ.

والحمدُ للَّهِ ربِّ العالمين[3].

* * * * *

(1) [الأحزاب: 37، 40] و[النساء: 23].

(2) عطفًا على «فإن».

(3) الساعة 10.03 بعد عشاء الأربعاء 12 من المحرم 1428هـ ، 31/ 1/ 2007م.

تذييـــلٌ

جاء في أول الآيةِ التي ذُكِرَ فيها الظِّهارُ والادعاءُ - معًا - قال اللَّهُ تعالى :

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الحاأحاحزاب: 4].

وجَعَلَ ذلك كالتوطئةِ، والتمهيدِ للمرادِ منَ الآيةِ، وهو بيانُ أنَّ الظِّهارَ، والادِّعاءَ، كلاهما باطلٌ، منافٍ للحقيقةِ في نفسِ الأمرِ.

كما أنَّه تترتَّبُ على كلٍّ منهما مفاسدُ(1).

ولمَّا كان القلبُ موطِنَ المشاعرِ والإراداتِ كان ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ توطئةً لطيفةً؛ لأنه لو جُعِلَ قلبانِ في جوفٍ معًا فإمَّا أنْ يكون الثاني فضلةً لا حاجةَ له، أو يكونُ معاكِسًا للأوَّلِ في المشاعرِ والإراداتِ، وليس ذلك في شيءٍ من خَلْقِ اللَّهِ تعالى.

وكذلك، ليست الزوجةُ أمًّا، ولا الدَّعِيُّ ابنًا حقيقةً.

بلْ، إنَّ ذلك لَمِنَ التَّعاكُسِ، والتضادِّ، الذي تأباهُ حكمةُ الحكيمِ؛ سبحانه.

وقد نَقَلَ الإمامُ/ القاسميُّ(2) - رحِمَه اللَّهُ تعالى - عن الإمام/ الزمخشريِّ

---

(1) قد بيَّنتُ بعضَها في الفائدة.

(2) «تفسير القاسمي» (7/ 632، 633)، وقال المحققان: «الكشاف» (3/ 520).

- في هذا الموطِنِ - كلامًا جيِّدًا جدًا، نفيسًا، أنقلُ هنا بعضَه؛ لنفاسَتِه[1].

(قال الإمامُ/ الزمخشريُّ:

«﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ أي: ما جَمَعَ اللَّه قلبين في جَوفٍ، ولا زوجيةً وأُمومةً في امرأةٍ[2]، ولا بُنُوَّةً ودَعْوةً[3] في رَجُلٍ).

والمعنى: إنَّ اللَّهَ سبحانه كما لم يَرَ في حكمتِه أنْ يجعَلَ للإنسانِ قلبين؛ لأنه لا يَخلُو[4] إمَّا أن يَفْعَلَ[5] بأحدِهما مثلَ ما يفعلُ بالآخرِ من أفعالِ القُلوبِ، فأحدُهما[6] فضلةٌ، غيرُ مُحتاجٍ إليها[7].

وإمَّا أن يَفعلَ بهذا[8] غيرَ ما يَفعَلُ بذاك، فذاك[9] يؤدي[10] إلى اتِّصافِ الجُملةِ[11] بكونِه مُريدًا كارهًا، عالمًا ظانًّا، موقِنًا شاكًّا، في حالةٍ واحدةٍ[12].

---

(1) وأنا لا أنقُلُ عن ناقلٍ إلَّا اضطرارًا، ولستُ بواجدٍ «الكشَّاف» ههنا، في السجن.

(2) أي: بالنسبة لرجلٍ واحدٍ.

(3) أي: ادعاءُ نَسَبٍ.

(4) هذا الحالُ.

(5) هذا الإنسانُ، ذو القلبين، لو كان.

(6) أي: أحد القلبين.

(7) كذا، بضمير المؤنث، باعتبار «فضلة»، ويصح «إليه» باعتبار «أحدهما».

(8) أي: بأحد القلبين.

(9) أي: فذاك الأمرُ، لو كان. فهي غيرُ «ذاك» التي قبلَها.

(10) كذا، والمراد «يُؤَدِّي»، ولو صح بغير الهمزة فإنه يكون «يُوَدِّي» بفتح الواو - حركة الهمزة - لا لينة «يُودي»؛ لأنه بمعنى: يُهلِك، من «أودى»، لا من «أدَّى». هذا، إن لم تكن الهمزةُ قد سقطت.

(11) يعني صاحبَ القلبين، الذي فَعَلَ الفعلينِ المتعاكِسَينِ، لو كان.

(12) وهذا محالٌ.

لم يَرَ[1] - أيضًا - أنْ تكونَ المرأةُ الواحدةُ أمًّا لرجلٍ، زوجًا له؛ لأنَّ الأمَّ مخدومةٌ، مخفوضٌ لها جَناحُ الذُّلِّ[2]، والزوجةُ مستخدَمةٌ، متصرَّفٌ فيها، بالاستِفراشِ[3] وغيرِه، كالمملوكة[4] وهما حالتان متنافيتان[5].

وأن يكونَ[6] الرجلُ الواحدُ دَعِيًّا لرجلٍ، وابنًا له؛ لأنَّ البُنُوَّةَ أصالةٌ في النَّسَبِ، وعراقةٌ فيه. والدعوةُ، إلصاقٌ عارِضٌ، بالتسميةِ لا غير[7].

ولا يجتمعُ في الشيءِ الواحدِ أنْ يكون أصيلاً غيرَ أصيلٍ».

انتهى موطنُ الشاهدِ.

ومَن أرادَ المزيد فليُراجعْه في موضِعِهِ المذكورِ في «الكشاف»، أو «تفسير القاسمي»؛ فإنَّه نفيسٌ[8].

* * * * *

(1) متعلق بأولِ الكلام «كما لم يرَ».
(2) كما أمرَ اللَّهُ - تبارك وتعالى - في قرآنه، لا لأنَّ ذلك حَسَنٌ عقلاً، كما يرى الزمخشريُّ.
(3) أي: الجماع.
(4) أي: كما يُتصرَّفُ في المملوكةِ، بغيرِ إرادتِها. وكذلك الزوجةُ؛ يُسافَرُ بها، أو تُطلَّقُ - مثلاً - بغير إرادتِها.
(5) أي: متضادتان، متعاكستان.
(6) أي: «ولم يَرَ - أيضًا - أن يكون» عطفًا على ما قبله بأربعة أسطرٍ من قولِه: «لم يرَ».
(7) أي: بمجرَّدِ أنْ ينسبه إلى اسمِه، أو ينتسبَ هو إليه.
(8) الساعة 9.18 بعد عشاء الخميس 13 من المحرم 1428 هـ ، 1/2/2007م.

3 - فـــائدة

في

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1]

قال اللَّهُ تعالى في هذه الآيةِ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾، فهذه رحمةٌ.

فالخطأُ ضعفٌ، والرحمةُ تُناسبُ الضعفَ.

﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

هذا مَناطُ العِقابِ..

وبالرَّغْمِ من ذلك.. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾؛ لمَن تابَ، وأنابَ إلى خالقِه.

«إنما الإثمُ على مَن تعمَّدَ الباطلَ[2]»[3].

ومن رحمتِه سبحانه أنه: «لم يُعاقِبْكم بما سَلَفَ»[4].

ومن رحمتِه سبحانه أنْ: «بيَّن لكم أحكامَه»[5]؛ فلا يؤاخِذُكم بما تَجْهلُون حُكْمَه.

---

(1) [الأحزاب: 5].

(2) ولم يَتُب.

(3) «ابن كثير» - تفسير الآية.

(4) «تفسير السعدي» (606).

(5) «تفسير السعدي» (606).

ولكنْ . .

ما الفارق بين هذه وبين ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[1]؟

﴿حَلِيمًا﴾ أمْهَلَ عبادَه العاصِين، والمقصِّرين، بلْ والكافرين، فلَم يُعجِّلْ لهمُ العقوبةَ؛ عسى أن يتوبوا[2].

قلتُ:

وفي الحِلْمِ رحمةٌ، وليس العكسُ. فـ﴿حَلِيمًا﴾ تتضمَّنُ ﴿رَّحِيمًا﴾[3].

* * * * *

(1) [الإسراء: 44]، [فاطر: 41]، وحيث كانت.

(2) «تفسير السعدي» (638).

(3) الساعة 4.30 فجر الإثنين 29 شعبان 1426هـ ، 3/10/2005م.

4 - فائدة

في

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(1)

و

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(2)

أمّا المَوْضِعُ الأولُ فهو: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

وأما الموضعُ الأخيرُ(3) فهو:

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

جاء الأولُ تعقيبًا على بعضِ مواقفِ المنافقين، وبالأخصِّ ما كان منهم في غزوةِ الخندقِ:

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12].

﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب: 13].

---

(1) [الأحزاب: 24].

(2) [الأحزاب/ 50، 59، 73].

(3) حسبَ ترتيبِ آياتِ السورةِ. وهو الثاني؛ حسبَ ترتيب كلامي هنا.

﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: 18].

وفي المقابِلِ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23].

لذلك، جاء التعقيبُ:

﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾. وقدَّمَهُم لعظيمِ فضلِهِم، وحُسنِ صَنيعِهِم ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 261].

ثم، ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بسُوءِ فِعَالِهِم، وتخليطِ نياتِهِم، وتلبيسِ أُمورِهِم، ﴿إِن شَآءَ﴾، ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إنْ شاء - أيضًا - فـ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: 41] فيوفِّقَهم - عند ذاك - إلى التوبةِ، ويَهْدِيهم سواءَ السَّبيلِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾، يَسْتُرُ الذُّنوبَ أو يمحُوها، أو هما معًا، مهما كثُرَتْ، أو عظُمَتْ، كما في الحديثِ القُدُسِيِّ:

«لو أَتَيْتَني بِقُرابِ[1] الأرض خطايا لأتيتُك بقُرابِها مغفرةً»[2].

﴿رَّحِيمًا﴾ ولازِمُ الرَّحمةِ: العَفو، والسَّتْرُ، ومَحْو الذُّنوبِ، وعدَمُ العقابِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أمّا المَوْضِعُ الثاني:

فقد جاء ختامًا للسُّورةِ؛ بعدَما مرَّ في أولِها ما ذُكِرَ هنا من مواقفِ المنافقين، وبعدما ذُكِر - أيضًا - في أثنائِها من مواقِفِهم البَغيضةِ الخسيسةِ

---

(1) «ما يقارب مِلأَها». «النهاية في غريب الحديث والأثر» (727).

(2) صحيح. البخاري.

﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب: 57] باعتراضهم على شَرْعِ اللَّهِ، وتعرُّضِهم لرسولِهِ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم، واتِّهامِهم له بالباطلِ، واستهزائِهم به ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب: 60].

فجاء التعقيبُ:

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ بدونِ ذِكرِ المشيئةِ؛ إذْ لم يَنتَهُوا ولم يتوبوا.

﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ يَسْتُرُ عليهم، ويَغْفِرُ الهنَّاتِ، وما يكونُ من تقصيرٍ. بلْ، يغفرُ لهم كلَّ ما كان منهم، مهما كان، بالتوبةِ، أو بالأعمالِ الصالحةِ الأخرى.

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: 114].

وإنما هذا لأنه سبحانه كان بِهِم ﴿رَّحِيمًا﴾، ومن رحمتِه: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ﴾ [الأحزاب: 25][1].

أما الموضعُ الثالثُ[2]:

فقد جاء ختامًا لآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾ [الأحزاب: 50] إلى آخرِ مَن أَحَلَّ اللَّهُ مِنَ النساءِ لنبيِّه صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم.

---

(1) الساعة 11.42 ليلة الجمعة 14 من المحرم 1428هـ، 2/2/2007م.

(2) وهو هكذا الثالثُ - حَسَبَ ترتيبِ العرضِ. أمَّا حَسَبَ ترتيبِ الآياتِ فهو الثاني.

وفيهنَّ ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ فليس لامرأةٍ أَنْ تَهَبَ نَفْسَهَا لرجُلٍ - كائنًا مَن كان - غيرِ النبيِّ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم.

وهذا البيانُ ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ﴾ في مواجهةِ الناسِ بما خصَّك اللَّهُ به دونهم، أو «ضِيقٌ»[1] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا﴾، «يغفرُ ما يَعْسُرُ التحرُّزُ منه»[1]؛ مما قد يقعُ في النُّفوسِ من تمنِّي امرأةٍ أرادَها النبيُّ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم - مثلاً - أو تمنِّي أنْ لو كانتْ أُحِلَّتِ الموهوبةُ لسائرِ الأمَّةِ، أو غيرِ ذلك، ممَّا قد يقعُ في بعضِ النُّفوسِ.

﴿رَّحِيمٗا﴾ «يَرْحَمُ فيما[2] يوسِّعُ في مواقِعِ الحرج»[3]؛ فإن «الرحيم» إنما هو الذي يجعَلُ للضعيف مخرجًا، ويفتحُ له بابَ التيسير عليه.

أمَّا الموقعُ الرابعُ[4]:

فهو في آيةِ الحِجابِ ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا﴾؛ «لما سَلَفَ منهنَّ منَ التفريط[5]»[6].

---

(1) «تفسير القاسمي» (7/ 682).

(2) كذا، أي: إنَّ الرحمةَ كلَّ الرحمةِ لَتَكْمُنُ، أو تتمثَّلُ فيما شَرَعَه اللَّهُ تعالى رفعًا للحرجِ. بلْ، في كلِّ التشريعِ.

(3) «تفسير القاسمي» (7/ 682).

(4) [الآية: 59]. وهو الثالثُ حسبَ ترتيبِ آياتِ السورةِ.

(5) كذا قال - رحِمَه اللَّهُ تعالى - قلت: ولا تفريطَ قبلَ الشرعِ.
لكنْ، هذا الذي كان قبلَ الشرعِ - عدمُ إدناءِ الجلابيبِ - ترتب عليه آثامٌ، فاللَّه يغفرُها.

(6) «تفسير القاسمي» (7/ 700).

﴿رَحِيمًا﴾ «بعبادِه، حيث يُراعِي مصالحَهم[1]، حتى الجزئياتِ منها»[2]، فشَرَعَ لكم الحجابَ؛ سدًّا لبابِ الفتنةِ على الرجالِ، والنساءِ - معًا - وصَوْنًا للأعراض؛ ودفعًا للأذى عن نساءِ المؤمنين ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

هذا. واللَّهُ أعلمُ.

والحمدُ للَّهِ على ما وفَّق وهَدَى[3].

* * * * *

(1) وهو الغنيُّ عنهم.
ولو قال: «حيث يَشْرَعُ ما فيه صلاحُهم» لكان أَوْلَى.

(2) وقريبٌ منه قولُ الشيخِ/ السعديِّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - (ص619).

(3) الساعة 2.04 بعد عشاء الجمعة 14 من المحرم 1428هـ ، 2/2/2008م.

سورة سبأ

1 - فـــائدة

في

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾[1]

أولُ الآيةِ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾.

فهذا عِلمٌ محيطٌ بكلِّ شيءٍ ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: 3].

وهذا يقتضي ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ﴾ [الحديد: 4].

وكَوْنُه سبحانه كذلك يَسْتلزِمُ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فـ ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ إذ بيَّنَ لكم ما تتَّقون به عِقابَه، وهو ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ يَقْبَلُ مَن تابَ من عبادِهِ.

تنبيهٌ:

قولُه تعالى في آيةِ الحديدِ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تأكيدٌ للعِلْمِ المُحِيطِ، والاطِّلاعِ التامِّ على أفعالِ عبادِهِ، فهو ﴿بَصِيرٌ﴾؛ لأنَّ مُطْلَقَ

---

(1) [سبأ: 2].

العِلْمِ لا يَسْتَلْزِمُ، بلْ لا يتضمنُ كونَه سبحانه بصيرًا. أمَّا كمالُ العِلْمِ فإنه يقتضي كونَه بصيرًا[1].

* * * * *

(1) الساعة 7.52 صباح الإثنين 29 شعبان 1426هـ ، 3/10/2005م.

2 - فــائدة

في

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[1]

هي أربعةُ مواضعَ، في أربعِ آياتٍ، في أربعِ سُوَرٍ من سُوَرِ القرآنِ الكريمِ.

ولو تأمّلنا هذه المواضعَ لوجدنا أنَّ كلَّ آيتينِ من هذه الأربعِ تتحدان في موضعِهما.

فآيةُ إبراهيم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾.

وآيةُ سبأ: ﴿فَقَالُوا۟[2] رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

والجامعُ بينهما:

دعوةٌ وتكذيبٌ، وعقابٌ.

أما فِرعونُ ومَلَؤه، فـ ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: 55].

---

(1) [سبأ: 19] ثم [الشورى: 33]. وقبلهما [لقمان: 31] و[إبراهيم: 5].
وليس هذا اضطرابًا مني في الترتيبِ، إنما كانت آيةُ سبأ هي التي استوقفتني أولاً. فلما كان ذلك جمعتُ إليها أخواتِها.

(2) أهل سبأ.

وأما أهلُ سَبَأ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: 19].

وآيةُ لقمانَ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ في البحرِ، ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: 12].

وفي[1] نفسِ الفُلكِ، التي هي ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ [الشورى: 32] أي: كالجبالِ، وفي ضخامتِها هذه تسيرُ على وجهِ الماءِ ﴿بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾؛ «بإحسانهِ في تهيئةِ أسبابه[2]»[3]، بتعليمِكم صناعتَها، وقوانينَ جَرَيانِها في البحرِ.

ثم، بتهيئةِ الرِّيحِ؛ فإنه ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ[4] رَوَاكِدَ[5] عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾[6].

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ[7] بِمَا كَسَبُوا﴾ [الشورى: 34]. أي الناس ﴿وَيَعْفُ﴾ «يحلُم

---

(1) عطفًا على قولي: «في البحر».

(2) يعني أسبابَ جريان السُّفُنِ في البحرِ.

(3) «تفسير القاسمي» (7/ 620).

(4) السُّفن.

(5) ثابتةً، لا يمكنُكم تحريكُها. وهذا صحيحٌ، حتى في شأنِ السُّفُنِ الحديثةِ، التي تتحركُ بماكيناتٍ ضخمةٍ؛ فإنَّ لحركةِ الرِّيحِ - شدَّةً واعتدالاً - تأثيرًا شديدًا وأساسيًّا في حركةِ هذه السفنِ أيضًا، ولابد من دراستِها، واعتبارِها في وقتِ تسييرِ هذه السُّفنِ، وتحديدِ مسارِها في البحرِ.

قال الشيخُ/ السعديُّ - رحِمَه اللهُ تعالى- : «ولا يُنتقضُ هذا بالمراكبِ البُخاريةِ؛ فإنَّ من شرطِ مَشْيها وُجودَ الرِّيحِ» (705).

وقوله: «البخارية»، أي: التي تسير بالآلات، أو الماكينات.

(6) وهذه آية الشورى (33)، وهي الرابعةُ في هذه الفائدةِ.

(7) السفن.

ويعفو»[1] ﴿عَن كَثِيرٍ﴾؛ مما عَصَوْا به ربَّهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور في هذه الآيات الأربعِ ﴿لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[2].

والصبَّارُ: هو دائمُ الصبرِ أو كثيرُه.

والشَّكُورُ: دائمُ الشُّكرِ أو كثيرُه، في كلِّ أحوالِه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ «أي لكل مؤمنٍ»[3]، «شأنه الصبرُ عنِ الشهواتِ والهوى والآثامِ، والشكرُ على النِّعَمِ»[4].

فهؤلاء همُ «المنتَفِعون بالآياتِ»[5].

هذا صوابٌ، جيدٌ ومتينٌ، بلْ نفيسٌ.

ولكنْ، لماذا خَصَّ هذين الوصفين ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؟

وما علاقتُهما بآياتِ اللّهِ في إنزالِ العذابِ بالمكذِّبين؟

وما علاقتُهما - كذلك - بآياتِ اللّه في البحر ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: 12]؟

---

(1) «تفسير السعدي» (705).
(2) الساعة 12.15 ليلة السبت 15 من المحرم 1428هـ ، 3/ 2/ 2007م.
(3) «تفسير القاسمي» (8/ 260).
(4) «تفسير القاسمي» (8/ 18).
(5) «تفسير السعدي» (600).

والجوابُ:

لمَّا كان الصبَّارُ هو «كثيرُ الصبرِ»[1] «على الضرَّاءِ... [و][2] على طاعةِ اللَّهِ، وعن معصيتِه، وعلى أقدارِه»[3].

ولـمَّـا كـان ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ هـو «الـشَّـكـورُ لـلَّه عـلى نِـعَـمِـه الـديـنـيـةِ[4]، والدنيوية[5]»[6]، يعترفُ بنعمةِ ربِّه، ويخضعُ له»[7] «بالقيام بحقِّها»[8] فـ «يُصرِّفُها في مَرْضاتِه»[9].

لما كان هذا حالَ كلِّ ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ كان هو وحده «الذي ينتفعُ بآياتِ الـلَّهِ»[10] الـكـونـيـةِ، والـديـنـيـةِ، وكـان مـن أهـل ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: 5][11]؛ لأنه قدِ استكمَلَ الإيمانَ؛ فـ «الإيمانُ نصفان، نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شُكرٌ»[12].

---

(1) «تفسير السعدي» (705).
(2) زيادة اقتضاها حَذْفي لبعضِ ألفاظِ عبارةِ الشيخِ - رحِمَه اللَّهُ تعالى.
(3) «تفسير السعدي» (600).
(4) الهدايةُ، والدينُ القَويمُ، وأحكامُه، والاصطفاءُ.
(5) تسخيرُ الكونِ بأجمعِه، وبَسْطُ الرزقِ أو قَبْضُه، ونعمةُ البَدَن والصحةِ، مثلاً.
(6) «تفسير السعدي» (705).
(7) «تفسير السعدي» (705).
(8) «تفسير القاسمي» (7/ 620) سورة لقمان.
(9) «تفسير السعدي» (705).
(10) التي هي شَرْعُ اللَّهِ، وأحكامُه.
(11) وهي إحدى الآياتِ الأربعِ موضوعِ هذه الفائدةِ.
(12) «شعب الإيمان» للبيهقي (9715).

ومنِ استَكْمَلَ الإيمانَ فإنَّه يَتعبَّدُ للَّهِ بالتفكُّرِ في آياتِه الكونيةِ، الدَّالةِ على وحدانيتِه سبحانه وعلى عَظَمَتِه.

ومنِ استكملَ الإيمانَ فإنه يتعبَّدُ للَّهِ بالنظرِ في مصائرِ السابقين، والاعتبارِ بِهِم.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: 111]؛ لأنه موقِنٌ بالسَّاعةِ، كما قال ربُّنا جلَّ في عُلاه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: 18].

فإذا اعتَبَرُوا شكروا؛ أنْ قد عُوفُوا ورُحِمُوا.

وإذا اعتَبَرُوا صَبَرُوا على الطاعةِ، وجاهدوا النفس في امتثالِ أمرِ اللَّهِ، وصبَرُوا عنِ المعصيةِ، وأكرَهُوا النفسَ على تَرْكِها. وصَبَرُوا على ما يَلْقَوْن في سبيلِ ذلك من عَنَتٍ، واستهزاءِ المعرضين، والمعاندين؛ فإنهم قد عَرَفُوا، وأيقنوا ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: 5]. وتحققوا من موعود اللَّه تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: 51].

ومنِ استَكْمَلَ الإيمانَ فهو يَتعَبَّدُ إلى اللَّهِ بِشُكرِ نِعَمِه عليه. ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: 34]، و[النحل: 18]، فيُوَفِّيهَا حقَّها منَ الشُّكرِ، ويُصرِّفُها في بابِها.

وإنْ مُنِعَ نعمةً رضِيَ، وصبَرَ؛ لأنه قدِ استَكْمَلَ الإيمانَ، فهو موصوفٌ بـ﴿صَبَّارٍ﴾.

وإنَّ من نِعَم اللَّهِ تعالى أنه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا

مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النحل: 14].

هذه نِعمةُ البحرِ، وما فيه.

والشمسُ، والقمرُ، والليلُ، والنهارُ، ﴿مُسَخَّرَٰتٍ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [النحل: 12]، و[الأعراف: 54] وغيرُها منَ النِّعَمِ كثيرٌ كثيرٌ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: 18].

ليس مطلوبًا منكُم الإحصاءُ، ولا هو بإمكانِكم؛ لأنها لا تُحصَى.

إنما ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

فليس غيرُهما معتبرًا بذلك، ولا متعبِّدًا به، ولا مستطيعًا له.

فإنَّ الذي لا صَبْرَ عنده، ولا شُكْرَ له عند نِعَمِ اللَّهِ فإنه يُعرِضُ أو يُعاندُ، فلا ينتفعُ بالآياتِ»[1].

هذا، واللَّهُ أعلمُ.

والحمدُ للَّه على ما وفَّق وهدى[2][3].

---

(1) «تفسير السعدي» (705).

(2) كانت قد راودتني هذه الفائدةُ منذ سنواتٍ طويلةٍ، وبعد أنْ جَمعتُ مواطنَها الأربعَ ضللتُ المرادَ، ثم رجعتُ إليها مرَّاتٍ خلال فترة الاعتقال هذه فلم أهتدِ لشيءٍ، حتى كان توفيقُ اللَّهِ، وتيسيرُه، في هذين اليومين.

(3) الساعة 1.15 ليلة الإثنين 17 من المحرم 1428هـ، 5/2/2007م، وقد استطال وقتُ كتابتِها؛ لأسبابٍ صحيةٍ، ولانقطاعِ التيارِ الكهربي لفتراتٍ طويلةٍ أمس، واليوم.

3 - فــائدة

في

قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[1]

الآية ﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ﴾.

﴿قُلۡ﴾ «لهم[2] يا أيها الرسولُ، ومَن ناب منابَك»[3]: ﴿أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾؛ حتى أَنظُرَ إليهِم، عساني أعرِفُ بأيِّ شيءٍ صاروا شركاءَ للّه، أو: أَعْلِموني، بأيِّ صفةٍ كانوا شركاءَ.

«وفيه مزيدُ تبكيتٍ لهم، بعد إلزامِ الحجةِ عليهم»[4].

﴿ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾.

﴿أَلۡحَقۡتُم﴾ بفعلِكم، وقولِكمُ الباطِلِ، الذي لا حقيقةَ له.

﴿كَلَّاۚ﴾، ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ﴾ [يونس: 66] حقيقةً، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الذي لا حقيقةَ له، فلا برهانَ عليه ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾.

---

(1) [سبأ: 27].

(2) يعني المشركين.

(3) «تفسير السعدي» (626).

(4) «تفسير القاسمي» (8/ 24)، نقلاً عن أبي السعود، وقال المحققان: (7/ 133).

«فإنَّ عالِمَ الغيب والشهادةِ قد أخبَرَنا أنَّه ليس له في الوجودِ شريكٌ».

﴿بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ﴾، «الذي قَهَرَ كلَّ شيءٍ».

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [فاطر: 44]، بينما ﴿ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ﴾ أنتم خلقتموهم من «خشبٍ وحجرٍ»[1] لا يستطيعونَ لكم نصرا. بلْ ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: 192]، ناهِيكم عن أنْ تكونَ لهم عقولٌ، يُدْرِكون بها بعضَ حالِ أنفسِهِم، وكيف، وهم «خَشَبٌ وحَجَرٌ»[2].

إنما اللَّهُ ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾، «الذي أَتْقَنَ ما خَلَقَه، وأحسَنَ ما شرَعَهُ»[3] وأَحْكَمَه، الذي ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

ولَعَلَّه بهذا قد ظهرتِ المناسبةُ. واللَّهُ أعلمُ[4].

* * * * *

(1) «تفسير القاسمي» (8/ 24).

(2) «تفسير القاسمي» (8/ 24).

(3) «تفسير السعدي» (626).

(4) الساعة 10.20 بعد عشاء الإثنين 17 من المحرم 1428 هـ ، 5/ 2/ 2007م.

4 - فــائدة

في

قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾(1)

الآيةُ: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمدُ ﴿إِن ضَلَلْتُ﴾ الحقَّ، والصراطَ المستقيمَ ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِيۖ﴾، فهو بسبب نفسِي وجهلِها، مع كَوْنِه مطابقًا لقَدَرِ اللَّهِ تعالى.

ثم، إنَّ عاقبةَ الضلالِ، ووبالَه إنما تعودُ على ذاتِ النفسِ.

﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾؛ بإرادتِه، وتوفيقِه، وتيسيرِهِ سبحانه، لا بفضلٍ مني.

قال الإمامُ ابنُ القيِّم - رحِمَه اللَّهُ تعالى - في هذه الآية:

«هذا نصٌّ صريحٌ في أنَّ هُدَى الرسولِ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم إنما يَحْصُلُ بالوحي، فيا عَجَبًا، كيف يحصُلُ الهُدَى لغيرِه من الآراء، والعُقولِ المختلِفةِ، والأقوالِ المضطربةِ(2)؟»(3).

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لتضرُّعِ طالبِ الهدايةِ، الساعي لتحصِيلِها.

---

(1) [سبأ: 50].

(2) يعني عمومَ البَشَرِ.

(3) «الضوء المنير على التفسير» (5/ 89).

﴿قَـرِيبٌ﴾ من عبادِه، يُذْرِكُهُم، ويُسعِفُهم بما يحتاجونه من رحمتِه، بالإجابةِ، والتوفيقِ.

واللَّهُ أعلمُ[1].

*****

(1) الساعة 9.15 بعد عشاء الأحد 23 من المحرم 1428 هـ ، 11/2/2007م.

سورة فاطــر

1 - فــائدة

في

قـوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(1)

الآيــة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ(2) مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أَخرجَ الثمراتِ ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: 27] وكما أنَّ الجبالَ ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ أي: إنما يخشاه العلماءُ حقَّ الخَشيةِ. دون مَن هُمْ دونهم في العِلْمِ؛ لأنَّ العلماءَ أعرفُ باللَّهِ، بأسمائِه الحُسنى، وصفاتِه العُلى.

وقد زادت خشيتُهم لمَّا عَرفُوا أنَّه ﴿عَزِيزٌ﴾ في ذاته، ﴿عَزِيزٌ﴾ في خَلْقِه. لم يُلجِئْه إلى خَلْقِ الخلقِ أَحَدٌ، بل لم تُلجِئْه حاجةٌ.

﴿عَزِيزٌ﴾ في فِعلِهِ بهم.

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: 23].

﴿عَزِيزٌ﴾ إذا أمهَلَ الكافرين والعاصين.

---

(1) [فاطر: 28].

(2) وهي مِنَ الدوابِّ أيضًا، فهو تخصيصٌ بعد تعميمٍ؛ لشدةِ العلاقة بينها وبين الإنسانِ، ولِعِظَمِ نفعِها له.

﴿عَزِيزٌ﴾؛ إن شاء أَهْلَكَهُم.

﴿غَفُورٌ﴾ كثيرُ المغفرةِ، بل دائمُ المغفرةِ.

فالـ﴿غَفُورٌ﴾ اسمُه، والمغفرةُ فِعلُهُ على الدوامِ، لا يَرُدُّ تائبًا، ولا يُقنِّطُ أحدًا من رحمتِه ومغفرتِه، مهما كانت ذنوبه. كما قد قال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53].

لذلك، لمَّا ذَكَرَ سبحانه ما ذَكَرَ من آياتِه في الخَلْقِ[1]، الدالةِ على قدرتهِ، وعظمتهِ، وحكمتِهِ، وتَفرُّدِه، ولما بيَّنَ أنه لا يقومُ بحقِّ هذه الآياتِ إلَّا العلماءُ، وقال بعدَها: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، فدَلَّ هذا على أنَّ مَن عَدَاهُم منَ الناسِ سيقعُ منهمُ التقصيرُ، فأَوْعَدَ بـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾، وأطمَعَ بـ﴿غَفُورٌ﴾.

فسبحانَ اللّهِ الـ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾، والحمدُ للّه الـ﴿ٱلْغَفُورُ﴾.

والحمدُ للّه على ما وفَّق وهدى.

تنبيهٌ:

قد جاء في «تفسير السعدي»[2]، في تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: «كاملُ العِزة، ومن عزته خَلْقُ هذه المخلوقاتِ المتضادات».

---

(1) في آيةِ هذه الفائدة، من أولِ السورةِ.

(2) (ص635).

قوله: «المتضادات» كذا جاء.

ولست أراه - بهذا اللفظِ - صوابًا؛ وذلك لأمورٍ:

الأولُ - أنَّ إطلاقَ التضادِّ يُفيدُ الحربَ بينها، أو الخصومةَ وعَدَمِ الاتفاقِ، وليس ذلك صحيحًا؛ لأنَّ:

1 - الكونُ كلُّه مُسَخَّرٌ للإنسانِ فهو يَستأنسُ الحيواناتِ، ويستفيدُ منها، ومنَ الجماداتِ.

2 - أنَّ الجماداتِ - كالجبالِ[1] مثلاً - لا يُمكِنُها حربٌ أو خُصومَةٌ.

الثاني - أنَّ اختلافَ الألوانِ بين أفرادِ النوعِ، أوِ الجنسِ[2] ليس تضادًّا حقيقيًّا[3]؛ فإنَّ التضادَّ الحقيقيَّ إنما هو عَدَمُ إمكانِ اجتماعِ الضِّدينِ في نفسِ الشيءِ، في وقتٍ واحدٍ[4]. فإنَّ الليلَ لا يكونُ أسوَدَ أبيضَ، ولا يكونُ بعضُه أسوَدَ وبعضُه أبيضَ.

لكنَّ كلَّ الكائناتِ المذكورةِ في هاتَين الآيتين يُمكِنُ أنْ يجتمع في كلِّ فردٍ منها ضِدَّان منَ الألوانِ؛ كالأبيضِ والأَسْودِ.

الثالثُ - أنه ليس ثَمَّةَ دليلٌ على أنَّ التضادَّ الحقيقيَّ مُرادٌ منَ الآيةِ، ولا أَعرِفُ قائلاً بذلك.

---

(1) وهي في الآية (27)، السابقةِ على هذه الآيةِ مباشرةً.

(2) وهو المذكورُ في الآيتين، في الثمارِ والجبالِ، والناسِ، والدوابِّ.

(3) وإنْ كان قد يُسمى بعضُه تضادًّا لغةً؛ باعتبارِ ظاهرِ المخالفةِ.

(4) واشتراطُ اتحاد الوقتِ ليس لازمًا؛ فإنَّ الليلَ - أيضًا - أسوَدُ أبدًا.

بلْ، لا أرى الشيخَ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - أراد ذلك.

لذلك أرى صوابَ العبارةِ: «ومِن عِزَّتِه خَلْقُ هذه المخلوقاتِ المتضاداتِ الأشكالِ، والألوانِ أحيانًا»[1].

هذا، إذا أردنا الحفاظَ على كلمة «المتضادات».

وأنا لا أرى لذلك أيَّ ضرورةٍ.

ولذا أرى الصوابَ:

«... هذه المخلوقاتِ المختلفةِ الألوانِ[2]».

وسبحانَ من له الكمالُ[3].

* * * * *

(1) ولابدَّ من قيد «أحيانًا»؛ لأن التضادَّ ليس أصلًا بين هذه المخلوقاتِ المذكورةِ في الآيتين، كما أنَّ التضادَّ ليس دائمًا بينَ الألوانِ.

(2) لأنَّ الألوانَ هي المذكورةُ في الآيتين.
ولو قيل: إنما الألوانُ الأشكالُ، والأنواعُ.
قلتُ: لو صحَّ ذلك - أو احتُمِل - في ﴿ثَمَرَٰتٍ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ﴾ فلا يصحُّ - ولو احتمالًا - في ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾.
ثم إني أرى ذِكرَ هذه الألوانِ بين الثمراتِ، والناسِ، والدوابِّ، أرى ذلك تقييدًا للمرادِ بالألوانِ المذكورةِ في الآيتين، ويؤيده ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾ [الروم: 22]. واللَّه أعلم.

(3) الساعة11.28 ليلة 29 من المحرم 1428هـ ، 17/2/2007م.

2 - فــائدة

في

قـوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾(1)

الآية: ﴿وَهُمْ﴾ الذين كفروا(2) ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾ يَصرخُون، ويستغيثون ﴿فِيهَآ﴾ أي: في النارِ. يقولون ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ منَ النارِ، وأَعِدْنا إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ كما أمرتَ، ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ منَ المعاصي، والذُّنوبِ، والكُفرِ، والعِنادِ، والإعراضِ، ذاكَ الذي أدخَلَنا النارَ(3).

فيأتيهِمُ الجوابُ:

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ أي: أَوَ لَم نُبقِيكُم في الدنيا ﴿مَّا﴾ أي: عُمُرًا يكفي لأنْ ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ﴾ أي في ذلك العُمُرِ، مهما كانت مدتُه، طويلًا، أم قصيرًا.

﴿مَن تَذَكَّرَ﴾ من أراد أن يتذكَّرَ؟

بلى، وربِّنا.

---

(1) [فاطر: 37].

(2) المذكورون في الآية (36).

(3) وهذا كما في سورةِ المؤمنون (99، 100) ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ وذلك حين يأتِيهِ الموتُ.

وتلك حكمةُ الحكيمِ - سبحانه - جَعَلَ لكلِّ إنسانٍ أجلاً، هو ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: 2] وهذا الأجلُ - مهما كانت مُدَّتُه - كافٍ للتدبُّرِ، والهدايةِ، والعملِ وَفْقَ الآياتِ التي بثَّها اللَّهُ تعالى في الكونِ، دالَّةً على أُلوهِيَّتِه، وقُدرتِه، وعَظَمتِه، وإحاطَتِه، وحكمتِه، وبالأسبابِ التي جَعَلَها سبحانه طريقًا للإيمانِ.

﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾، حُجَّةً، ومُبيِّنًا، وبشيرًا.

فأيُّ عذرٍ لكم؟!

وفي ذلك تبكيتٌ لهم. أعاذنا اللَّهُ تعالى.

وفي هذا المعنى نَقَلَ الإمامُ/ القاسميُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - عن قتادةَ[1]: «اعْلَمُوا أنَّ طولَ العُمُرِ حجَّةٌ. نعوذ باللَّهِ أنْ نغترَّ بطولِ العُمُرِ. قد نزلت هذه الآيةُ وإنَّ فِيهم لابنُ ثماني عَشْرَةَ سنةً»[2]. أي: وإنَّ فيهم مَن لَم يُعَمَّرْ.

واللَّهُ أعلَمُ[3].

* * * * *

(1) وقال المحققان: «ابن كثير 3/ 576».

(2) «تفسير القاسمي» (8/ 48).

(3) الساعة 10.00 بعد عشاء السبت 29 من المحرم 1428هـ، 17/ 2/ 2007م.

سورة (ص)

1 - فـــائدة

في

قـوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾[1]

الآية: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾؛ تفنيدٌ لقولِهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ﴾ [ص: 8]، فالإنكارُ عليهِم بيِّنٌ واضحٌ.

وهذا من جنسِ قولِه تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ﴾ [الزخرف: 32]؛ عـنـدمـا قـالـوا: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31].

فما المناسبةُ هنا؟

فالجـوابُ:

معلومٌ أنَّ اللَّهَ ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: 22]، وأنَّ رحمَته ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍۚ﴾ [الأعراف: 156] «من العالَم العُلْوِيِّ والسُّفْلِيِّ، و[2]البرِّ والفاجِرِ، المؤمنِ والكافرِ»[3].

---

(1) [ص: 9].

(2) كذا في «تفسير السعدي»، وهي زيادة.

(3) «تفسير السعدي» (268).

ولذلك، فهي[1] كثيرةُ الأعدادِ، متنوعةُ الأشكالِ؛ فـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هو ﴿ٱلۡوَهَّابِ﴾، دائمُ الرَّحَماتِ، متَّصلُ العَطَيَاتِ، والهِبَاتِ.

و«إنَّ يمينَ اللَّهِ مَلأَى لا يَغيضُها نَفَقَةٌ، سحَّاءُ الليلَ والنَّهارِ»[2].

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [فاطر: 2].

فلا يَمْنَعُهُ شيءٌ من إيصالِ رحمتِه إلى عبادِه، ولا يملِكُ أحدٌ إلى ذلك سبيلًا؛ لأنَّه ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ﴾. واللَّهُ أعلمُ[3].

* * * * *

(1) رحمةُ اللَّهِ تعالى.

(2) صحيح. البخاري، من حديث أبي هريرة - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنه.

(3) الساعة 11.12 ليلَ الجمعة 23 من الحجة 1427هـ، 12/1/2007م.

سورة الزمر

فــائدة

في

قوله تعالى: ﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾[1]

الآيةُ تقولُ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ﴾.

هذه آياتٌ كونيةٌ يُنَبِّهُنا اللّهُ تعالى أنه خالقُها بقَدَرٍ معلومٍ، ولحكمةٍ أرادَها.

فما مناسبةُ خَتمِها بقولِهِ تعالى: ﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾؟

أو: ما مناسبةُ ذِكرِ العزَّة والمغفرةِ هاهنا؟

والجـوابُ من وجهين:

الأولُ - بالنظرِ إلى الآيةِ منفردةً.

الثاني - بالنظرِ إلى الآيةِ في سياقها.

أمَّا بالنظرِ إلى الآيةِ منفردةً، فذِكرُ العزَّة مناسبٌ لذِكرِ الآياتِ الكونيةِ؛ لأنَّ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ قادرٌ على كلِّ شيءٍ؛ ولا يُعجِزُه شيءٌ، ولا يمنَعُه شيءٌ ممَّا أرادَ.

لكنَّ العبادَ يُقصِّرون، ويَعصُون، رغمَ وُضوحِ الآياتِ، وكثرتِها، فهم عنها

---

(1) [الزمر: 5].

منشغلون. لكنْ، إن تابوا وأنابوا فهو ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾، يغفرُ لهم، ويَقبلُهم، لا يضطَّره إلى ذلك شيءٌ؛ لأنه ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾.

وأمَّا بالنظر إلى الآية في سياقِها، فقد جاءت بعدَ قولِ المشركين عن آلهتِهِمُ الباطلةِ:

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3].

فَرَدَّ اللَّهُ - سبحانه - كذِبَهم وافتراءَهم:

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: 4].

﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ لا شريكَ له، ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ يقهَرُ عبادَه بقوتِه التي لا شبيهَ لها، وهو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُعجزُه شيءٌ أرادَه، ولا يَفُوتُه شيءٌ من خَلْقِه، فلو أرادَ أن يُهلِكَ هؤلاء المشركين ما امتنعُوا منه، وهو ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ لمن تاب وأنابَ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ [طه: 82]. واللَّهُ أعلمُ[1].

ثم، وجدتُ لأهلِ التفسيرِ - رحِمَهُمُ اللَّهُ تعالى - كلامًا فيه ما ذهبتُ إليه، أو قريبًا منه، مع متانةِ عبارةٍ، ونفاسةِ معنًى، وإنْ كان الأمرُ لا يَخْلُو من هنَّاتٍ قليلةٍ.

لكلِّ ذلك فأنا ناقِلٌ بعضَه؛ لتحصيلِ ما فيه من عظيمِ فائدةٍ، وللتنبيهِ على ما أراه فيه من هَنَّاتٍ.

---

(1) الساعة 9.00 ليل الخميس 19 شوال 1425، 2/ 12/ 2004م.

1 - فهذا البقاعيُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - يقولُ:

«﴿أَلَا هُوَ﴾ وحدَه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾.

ولما كان ربما قال مُتعَنِّتٌ: فما له[1] لا يأخُذُ[2] مَن يُخالِفُه؟!

وكانت[3] صفةُ القَهرِ[4] والعزَّةِ ربما أقنَطَتِ العصاةَ فأخَّرَتْهُم عن الاتصالِ، قال[5][6] مُبيِّنًا لسببِ التأخيرِ، مُسْتَعْطِفًا[7]: ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾، أي: الذي له صفةُ السَّترِ على الذُّنوبِ مُتكرِّرَةً[8]، فيَمْحُو ذنوبَ مَن يشاءُ - عينًا وأثرًا - بمغفرتِه، ويأخُذُ مَن يشاءُ بعزَّتِه» ا.هـ.

تنبيهٌ:

قولُه - رحِمَه اللَّهُ تعالى - : «ومُستَعْطِفًا»، أراه لا يجوزُ في حقِّ اللَّهِ تعالى، بلْ هي زَلَّةٌ، تُغفَرُ إنْ شاء اللَّهُ تعالى في بحرِ علمِه الواسعِ.

---

(1) وهو العزيز.

(2) لا يُهلِكُ، أو لا ينتقِمُ.

(3) عطفًا على «كان»، أولَ الكلام.

(4) في الآية (4): ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

(5) تحتاج إلى تكريرِ: «لما كان ذلك»؛ لطول الفصلِ، كما في القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ [النحل: 110]، و﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ [النحل: 119]، وانظر: «التنبيهاتُ في التصحيفاتِ والتحريفاتِ» للمؤلفِ.

(6) سبحانه.

(7) تحتاج إلى تكرارِ «قال»؛ لطولِ الفصلِ، كما في (8) في الصفحة السابقةِ.

(8) صفةٌ لـ «صفة السَّترِ».

والاستعطافُ هو طلبُ العَطْفِ، ولا يكون إلَّا من ضعيفٍ، وحاشاه سبحانه.

فلو قال - مثلًا -: «وفاتحًا بابَ الأملِ لعبادِه»، أو ما يُشبِهُ ذلك لكان صوابًا. واللَّهُ أعلمُ.

2 - وهذا الرازيُّ[1] يقولُ:

«إنَّ خَلْقَ هذه الأجرامِ العظيمةِ، وإنْ دَلَّ على كونِه عزيزًا إلَّا أنَّه غفارٌ، عظيمُ الرحمةِ والفضلِ، والإحسانِ؛ فإنه لما كان الإخبارُ عن كونِه عظيمَ القدرةِ يُوجِبُ الخوفَ والرهبةَ، فكونُه غفارًا يُوجِبُ كثرةَ الرَّحمةِ، وكثرةُ الرحمةِ تُوجِبُ الرجاءَ والرغبةَ».

تنبيهٌ:

قوله: «فكونه غفَّارًا يوجب كثرة الرحمةِ»، يحتملُ كونَ كثرةِ الرحمةِ واجبةً على اللَّهِ تعالى، وهذا شنيعٌ؛ إذْ لا يجوزُ بحالٍ إيجابُ شيءٍ على اللَّهِ تعالى.

والصوابُ عبارةُ «تفسير اللباب»: «فكَوْنُه غفارًا كثيرُ الرحمةِ يوجب...». ولعلَّ هذا أصلُ العبارةِ.

3 - وهذا ابنُ عاشورٍ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - يقولُ:

«استئنافٌ ابتدائيٌّ[2] في معنى الوعيدِ والوعدِ؛ فإنَّ وصْفَ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ كنايةٌ

---

(1) «الرازي» (13/ 386).

(2) يعني قوله تعالى: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾.

عن أنه يَفعَلُ ما يشاءُ، ولا غالبَ له، فلا تُجْدِي المشركين عبادةُ أوليائِهِم.
ووصْفُ ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ مُؤْذِنٌ باستدعائِهِم إلى التوبةِ باتِّباعِ الإسلامِ.

وفي وَصْفِ ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ مناسبةٌ لذِكْرِ الأَجَلِ[1]؛ لأنَّ المغفرةَ يَظهرُ أثرُها بعدَ البَعْثِ، الذي يكونُ بعدَ الموتِ وانتهاءِ الأجلِ، تحريضًا على البدارِ بالتوبةِ قبلَ الموتِ، حين يَفُوتُ التدارُكُ.

وافتتاحُ الجملةِ بحرفِ التنبيهِ[2] إيذانٌ بأهميةِ مدلولِها الصريحِ والكِنائي»[3]. اهـ.

تنبيهٌ:

قولُه: «في معنى الوعيد والوَعْدِ» ثقيلٌ على اللسانِ، بسببِ تقديمِ «الوعيد».

والمشهورُ تقديمُ الوعدِ.

وقولُه: «كنايةٌ»، لا يصحُّ بحالٍ؛ فإنَّ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ هو الذي يفعلُ ما يشاءُ كيف شاء، ولا غالبَ له.

وكنتُ ظَنَنْتُه لا يَقْصِدُ المعنى الاصطلاحيَّ لـ «الكناية»، بل قَصَدَ بـ «الكناية عن» معنى «التعبيرِ عن».

---

(1) يعني ما في الآيةِ نفسِها من قولِه تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ فكلٌّ لفظٌ عامٌّ، يشملُ كلَّ شيءٍ في هذا الكونِ.

(2) يعني: «ألَا».

(3) «التحرير والتنوير».

لكني وجدتُه يختِمُ كلامَه بقولِه: «إيذانٌ بأهميةِ مَدلولِها الصريحِ والكِنائيِّ».

فهذا تأكيدٌ أنه قَصَدَ المعنى الاصطلاحيَّ لـ «الكناية»، وعَمَدَ إليه.

وهذا خطأٌ فاحِشٌ.

والحمدُ للَّهِ على ما وَفَّقَ وهَدَى[1].

* * * * *

(1) الساعة 9.23 ليلَ الأربعاء 4 من الحجة 1431، 10/ 11/ 2010.

2 - فــائدة

في

قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ﴾.

ما هو؟ وما صلتُه بما قبلَه وما بعدَه؟ وكيف يكون معنى الآيةِ؟

والجوابُ:

قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾، ليس مرادًا به الموتُ وحْدَه، إنما هو مطلَقُ الأَخْذِ، والاستيفاءِ.

قالوا: «(استوفى) حقَّه، و(توفَّاه) بمعنًى[2]»[3]. و: «استوفى فلانٌ حقَّه: أَخَذَه وافيًا تامًّا»[4].

---

(1) [الزمر: 42].
(2) أي: هما سواء.
(3) انظر «مختار الصحاح» (وفى).
(4) انظر «المعجم الوسيط» (2/ 1090/ 1).

ومنه: «توفَّاه اللَّه، أي: قَبَضَ رُوحَه[1] »[2].

ولا شك في ظُهورِ هذا المعنى في (الموتِ). لكنْ، كيف هو في (النوم)؟

يظهرُ المعنى، ويتضحُ بتصوُّرِ النائم كالميتِ[3] باعتبارِ عدمِ استطاعته التصرُّفَ في شأنِ نفسِه. بلْ، هو[4] لا يملكُ من أَمْرِ نفسِه شيئًا، ولا يَدْرِي عمَّا حولَه شيئًا. بلْ، قد لا يَدْرِي عمَّا يُفعَلُ به حالَ نومِه[5].

وبهذا تظهرُ صلةُ ﴿وَٱلَّتِى لَمۡ تَمُتۡ﴾ بما قبلَها.

أي: أنَّ اللَّهَ تعالى يتوفَّى الأنفسَ التي لم يَحِنْ أجلُها كما ﴿يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾، وذلك ﴿فِى مَنَامِهَا﴾[6]؛ حين لا يُمكِنُها أنْ تَدَّعِيَ لنفسِها اختيارًا، أو تصرُّفًا في ذاتِ نفسِها[7]، فلا يُمْكِنُها منازَعةُ قَدَرِ اللَّهِ بأسبابٍ؛ لأنها ﴿فِى مَنَامِهَا﴾ لا تملكُ أسبابًا، ولا حتى بادِّعاءٍ.

فإذا فُهِمَ بذلك اتصالُ ﴿وَٱلَّتِى لَمۡ تَمُتۡ﴾ بما قبلها من الآية ظَهَرَ به - أيضًا -

---

(1) لأنَّ اللَّهَ تعالى خالقُ العبدِ ورُوحِه، فلما أماتَه فقدِ (استوفاه)، أي: أَخَذَ ما أَعطى؛ فقد كان عاريَّةً عند أهلِه وذَويه، كما كانتِ الرُّوحُ عند العبدِ عاريَّةً، لكنْ، بها قِوامُه وحياتُه.

(2) انظر: «مختار الصحاح» و«المعجم الوسيط» نفسَ الموضعِ.

(3) وقد اشتهر في كلامِ أهلِ العلمِ أنَّ النومَ هو الموتةُ الصُّغرى.

(4) النائمُ.

(5) وهذا مشهورٌ في كثيرٍ منَ البشرِ.

(6) وهذا قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ [الأنعام: 60].

(7) لأنَّ بعضَ الناسِ يظنُّ أنَّ له - في حال يقظتِه - تصرُّفًا، أو أنه يستطيعُ بما أُوتيَ أنْ يمنعَ شيئًا يَحِلُّ به. يَظنُّ بعضُ الناسِ ذلك جهلاً، أو نسيانًا.

اتصالُها بما بعدَها ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾، أي التي حلَّ أجلُها[1] في منامِها، وَفْقَ ما سَبَق في عِلْمِ اللّهِ تعالى.

﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾، التي لم يَحِنْ أجلُها، فيستيقظُ صاحبُها من نَومِه، ويَسْعَى في الحياةِ إلى حينِ الأجلِ المعلومِ[2] في سابِقِ عِلْمِ اللّهِ تعالى. واللّهُ أعلمُ.

تنبيهٌ:

قال الشيخُ/ السعديُّ - رحِمَه اللّهُ تعالى: «﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ وهذه هي الموتةُ الصُّغرى، أي: ويُمسِك النَّفسَ التي لم تَمُتْ في منامِها ﴿فَيُمْسِكُ﴾ من هاتَين النَّفسَين ﴿ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾، وهي نَفْسُ مَن كان ماتَ، أو قُضِيَ أنْ يموتَ في منامِه. و﴿يُرْسِلُ﴾ النَّفسَ ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى استكمال رزقِها وأجلِها»[3].

قلتُ:

لا يتضِحُ في هذا الكلامِ المرادُ منَ الآيةِ. مع ما في تركيبِ عبارتِه - رحِمَه اللّهُ تعالى - من غُموضٍ، وإبهامٍ.

انظر قولَه: «﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ وهذه هي...» علامَ يعودُ قوله: «هي»؟

(1) كما سَبَقَ في عِلمِ اللّهِ تعالى.
(2) وهو قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: 60].
(3) «تفسير السعدي» (671).

وانظر قولَه: «ويمسك . . . ﴿فَيُمْسِكُ﴾ من هاتين النفسَين».

ماذا أفاد قوله: «ويمسك. . . ﴿فَيُمْسِكُ﴾»؟!

وما المراد بـ «هاتين النفسَين»؟![1].

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(1) الساعة 1.50 ليل الثلاثاء غرة رمضان 1426هـ ، 4/ 10/ 2005م.

سورة غافر

فــائدة

في

قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1]

ما مناسبتُها لأولِ الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾؟

والجوابُ:

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ لأنه اللّهُ ربُّ العالمين؛ فشأنه سبحانه أنْ يَقْضِيَ بين عبادِه، وقضاؤه إنما هو بالحقِّ؛ لأنَّه اللّهُ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46].

ومن أسبابِ قضائِه سبحانه بالحقِّ أنه ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾، الذي أحاط سَمْعُه بكلِّ شيءٍ، مع أنه يُمهِلُ عبدَه حتى يتكلَّمَ بحُجَّتِه ومعذرتِه، حتى «يضعَ عليه كنَفَهُ، فيُقَرِّرَه بذنوبِه..»[2]، رغمَ علمِه سبحانه بها في حينِها.

ومن أسبابِ ذلكَ القضاءِ الحقِّ أيضًا أنه ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾، الذي لا يخفى عليه شيءٌ؛ ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: 3].

فكان قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تأكيدًا، وبيانًا لأولِ الآيةِ.

---

(1) [غافر: 20].

(2) جزءٌ من حديثٍ قدسيٍّ صحيحٍ، أخرجه البخاري وغيرُه.

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾.

والحمدُ للَّهِ ربِّ العالمين[1].

ثم، وجدتُ الزمخشريَّ يقولُ:

«﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: والذي هذه صفاته وأحواله[2] لا يقضي إلَّا بالحقِّ والعدلِ؛ لاستغنائه عنِ الظلمِ.. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تقريرٌ لقولِه ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ ووعيدٌ لهم بأنه يسمَعُ ما يقولون، ويُبصِرُ ما يعملون، وأنه يُعاقبُهُم عليه، وتعريضٌ بما يَدْعُون من دونِ اللَّهِ بأنها لا تَسمَعُ ولا تُبصرُ»[3].

* * * * *

(1) الساعة 1.30 ليل الأحد 22 شوال 1425، 5/12/2004م.

(2) المذكورةُ في الآياتِ قبلَها.

(3) «الكشاف» (3/421)، وقد نَقَلَه «البيضاوي» (2/337)، و«أبو السعود» (3/72)، بمعظمِ حروفِه.

تنبيهـــاتٌ

التنبيهُ الأولُ: قولُه: «لاستغنائه عنِ الظُّلم» لا أراه؛

1 - لأنَّ مُطلَقَ النفي ليس تنزيهًا.

2 - لأنَّ الظُّلم لا يُحتاج إليه، بل هو منهِيٌّ عنه بكلِّ حالٍ.

والصوابُ: «لتَنَزُّهِهِ عنِ الظُّلم»؛ لأنه سبحانه له الكمالُ المُطلَقُ، والظلمُ نقصٌ، لا يليقُ بجلالِه سبحانه.

التنبيهُ الثاني:

جاء في «البيضاوي»: «﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾ لأنه المالِكُ، والحاكمُ على الإطلاقِ، فلا يقضي بشيءٍ إلَّا وهو حَقُّه».

قوله: «حَقُّه»، تحريفٌ، والصوابُ: «حَقٌّ».

وقد جاء على الصوابِ في «الكشاف»، و«تفسير أبي السعود».

والحمدُ للَّهِ على ما وفَّق وهدى[1].

* * * * *

(1) الساعة 12.00 ظهر الثلاثاء 3 من الحجة 1431، 9/11/2010م.

سورة فصلت

فـــائدة

في

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾(1)

لما قال تعالى في الآيةِ قبلَها: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ دلَّ على أنه لا يَفهَمُ هذا القرآنَ إلَّا ذو عقلٍ سليمٍ، وفَهْمٍ قويمٍ.

ولمَّا أعرَضَ أكثرُ مُشركي قريشٍ عن تدبُّرِ هذا القرآن، بعدَ إذْ جاءهم به النبيُّ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ دلَّ على أنَّ عُقولَهم مريضةٌ، فهم لا يعلمون الحقَّ، ولا يُقِرُّون به، بل أعرضوا عنه.

ولمَّا كان السَّمْعُ أداةَ فَهْمِ الكلامِ(2)، وهم لم يفهموا، دلَّ على أنهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ «سماعَ قبولٍ وإجابةٍ، وإنْ كانوا قد سمِعوه سماعًا تقوم عليهِم به الحجةُ الشرعيَّةُ»(3).

* * * * *

---

(1) [فصلت: 4].

(2) أو هو أهم وأشهرُ أدواتِه.

(3) «تفسير السعدي» (691).

سورة الشورى

1 - فـــائدة

في

قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾(1)

قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾(2)، أي: يستعجلونها، أو يطلبون منَ النبيِّ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم أنْ يأتِيَهم بها؛ برهانًا على صدقِه، وتعجيزًا له(3) صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم ، بزَعْمِهِم.

ولذلك قال صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم لهم: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 57]. وقال: ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: 58].

وقولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أي: يُكَذِّبونَ، ولا يُصَدِّقُون بوقوعِها. فَهُم لتكذيبهم واستكبارِهم يجهَلُون ما فيها من أهوالٍ، ولذلك يستعجلونها، فقالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: 29].

---

(1) [الشورى: 18].

(2) يعني: الساعة، أي: القيامة.

(3) «تعجيزًا لربهم»؛ لأنه صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم قد قال لهم: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: 110]، ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: 138].
تنبيهٌ: وقع في «تفسير السعدي»: «وتعجيزًا لربِّهم». ولا يصحُّ، ولَعَلَّهُ تصحيفٌ.

ولذلك أتبعه اللّهُ تعالى في نفسِ الآيةِ قولَه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾؛ لأنهم صَدَّقُوا بها، وعَلِمُوا ما فِيها من أهوالٍ، وهم لا يعلمون ماذا تَقَبَّلَ اللّهُ من أعمالِهم[1].

* * * * *

(1) الساعة 8.30 بعد عِشاء الإثنين 19/ 11/ 1424هـ ، 12/ 1/ 2004م.

2 - فـــائدة

في

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾[1]

يَسبقُها في الآيةِ مقطعان: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾.

فما مناسبةُ «القوةُ» و«العزةُ» لبسطِ الرزقِ أو مَنْعِهِ؟ وما مُوائَمَةُ ذلك مع كونِه سبحانه ﴿لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾؟

الجوابُ:

أما استهلالُ الآيةِ بـ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ فإنَّه ممَّا تنشرحُ له الصُّدورُ، وتَطْمَئِنُّ له النفوس[2]؛ فإنَّ «اللطيف» هو «الذي يُوصِّلُ عبادَه - وخصوصًا المؤمنين - إلى ما فيه الخيرُ لهم من حيث لا يَعلمون، ولا يحتسبون»[3].

ومن لُطْفِهِ أنه سبحانه ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ «حَسْبَ اقتضاءِ حكمتِه[4]».

(1) [الشورى: 19].

(2) وهذا ما يُسمِّيه علماءُ البلاغةِ: «بَرَاعَةُ الاستهلالِ».

تنبيهٌ:

لم أَقُلْ بذلك في أثناءِ الكلامِ؛ لأني لا أستجِيزُ وصفَ تَكَلُّم اللّهِ تعالى بذلك، بل، أرى فيه انتقاصًا، إنْ لم يكن سوءَ أدبٍ. واللّهُ أعلمُ.

(3) «تفسير السعدي» (702).

(4) السابق.

وهو ﴿ٱلْقَوِىُّ﴾، «الذي له القوة كلُّها، فلا حولَ ولا قوةَ لأحدٍ من المخلوقين إلَّا به»(1)، فهو الذي لا يقهرُه أحدٌ.

وهو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُعجِزُه شيءٌ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: 44].

فعَلَى العبادِ أن يستحضروا ذلك في سَعْيِهم - الذي أُمِرُوا به(2) - لتحصيلِ الرزقِ؛ فإنَّ اللَّهَ تعالى متى أراد أنْ يرزق فإنه ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾، لا رادَّ لأمرِه، و﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: 41].

وإنه ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: 2]؛ لأنه ﴿ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾، ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: 16].

وهو مع ذلك ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: 2].

الذي يفعلُ بحكمةٍ، وإنْ جَهِلها الخلقُ أجمعونَ. واللَّهُ أعلمُ(3).

* * * * *

(1) السابق «تفسير السعدي» (702).
(2) وَفْقَ ضَوابطِ الشَّرعِ.
(3) الساعة 11.30 قبل ظهر السبت 26 من شوال 1427هـ ، 2006/11/18م.

3 - فـــائدة

في

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾(1)

الآية: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: 49، 50] فما مناسبة ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ لما في الآيتين؟

والجوابُ:

سورةُ الشُّورى تُسْتَفْتَحُ بعدَ الحروفِ المقطَّعةِ بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فالسورةُ كلُّها حَوْلَ قضيةِ الوحي تَدُورُ، مَصْدَرُه، وموقفُ الناسِ منه، وبعضُ صُورِ الوحي إلى المرسَلين عليهِم الصلاةُ والسلامُ.

يتخلَّلُ ذلك التنبيهُ على أنَّ اللَّه - جلَّ في عُلاه -: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [الشورى: 4] ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [الشورى: 12] ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الشورى: 49].

ثم تُخْتَتَمُ بقولِه تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: 53].

(1) [الشورى: 50].

فإذا كان - سبحانه - له ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأنه ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: 11]، فهو سبحانه - يصطفي من خلقِه مَن يشاء، ويَبْسُطُ الرزقَ لمن يَشاءُ من عبادِه، ويمنَعُه عمَّن يشاءُ منهم.

وإنَّ الأولادَ لَمِنْ رِزْقِ اللَّهِ لعبادِهِ، وتصرُّفِه في مِلْكِه، لذلك فهو - سبحانه -: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: 49، 50].

﴿عَلِيمٌ﴾ بما يُصلِحُ عبادَه؛ لأنه خالقُهم، ﴿قَدِيرٌ﴾ على ما يشاء.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: 44].

وهو نفسُ القولِ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: 70].

وكذلك: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: 54].

ثم، إنَّ العِلْمَ لم يجتمع مع القُدرة في القرآنِ إلَّا في هذه الآياتِ الأربع، مع آخرِ سورةِ الطلاقِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾.

وكان في آية (فاطر: 44) بيانُ أنه لا يُعجِزُه شيءٌ، وهو المراد.

قلـتُ:

ولستُ أرى قولَ الشيخِ/ السعديِّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - في «تفسيره»:

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾ بكلِّ شيءٍ، ﴿قَدِيرٌ﴾ على كل شيءٍ»[1].

نعم، هو كلامٌ صحيحٌ، لا غُبارَ عليه. ولكني لستُ أراه كافيًا في هذا الموضِعِ؛ لأنَّه عامٌّ، وأرى الكلامَ في الآيةِ التي معنا يُرادُ به أخصُّ مما ذَكَر - رحِمَه اللَّهُ تعالى - ولابدَّ من بيانِ هذا المعنى الخاصِّ[2].

* * * * *

(1) «تفسير السعدي» (707).

(2) هذه الفائدة كنتُ أقولُ بها منذ زمانٍ بعيدٍ، ولكني لم أكن قد سجَّلتُها، ثم إني لم أكن قد ربطتُها بالسورةِ إلَّا حين كتبتُها. الساعة 9.00 ليل الثلاثاء 6/ 11/ 1424هـ، 30/ 12/ 2003م.

سورة الزخرف

1 - فــائدة

في

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾(1)

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُعجِزُه شيءٌ، فـ ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: 35].

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: 98].

فالخَلْقُ بعزَّةٍ وعلمٍ لا يكون إلَّا مُحكَمًا، وفيه كلُّ ما أراده لمنفعةِ عبادِه، وَفقَ مَا أرادَ سُبحانه.

كذلك قال بعدَها: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [الزخرف: 10].

﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ [الزخرف: 11]، ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ [الزخرف: 12](2).

* * * * *

---

(1) [الزخرف: 9].

(2) الساعة 5.55 قُبيل مغرب الثلاثاء 25/ 1/ 1425هـ، 16/ 3/ 2004م.

2 - فــائدة

في

قــوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾[1]

كانوا - كفارُ قريش - جميعًا متفقين، مُقِرِّين أنَّ اللَّهَ هو الخالقُ، ولا خـالِقَ سِـواه ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [الزمر: 38].

فهو خالقُ البنين والبناتِ.

والمعروفُ عند العقلاءِ أنَّ مالِكَ الشيءِ يَخُصُّ نفسَه بأحسَنِه.

وكانت العربُ يُفضِّلون البنينَ على البناتِ، حتى كانوا يَئِدونَ البناتِ.

فإذا تقرَّرَ، وثبتَ في أذهانِهم أنَّه خالقُ كلِّ شيءٍ، وكان البنونَ - برعمِهم - أفضلَ منَ البناتِ، فكيف يتَّخِذُ سبحانه البناتِ - لو كان مُتَّخِذًا، وحاشاه - ويصطفي خلقَه بالبنين؟!

فذلك قولُه تعالى: ﴿مِمَّا يَخۡلُقُ﴾، خاطَبهم بما أَقرُّوا به، فحُجُّوا.

تنبيهٌ أوَّلُ:

---

(1) [الزخرف: 16].

قال الشيخُ/ السعديُّ رحِمَه اَللَّهُ تعالى -: «ومِنَ المعلومِ أنَّ البناتِ أدْوَنُ[1] الصِّنفَين»[2].

قلـتُ:

ليس الأمرُ كما قال الشيخُ - رحِمَه اللَّهُ تعالى - وليست قَوَامةُ الرجلِ تعني التفضيلَ المطلق.

بلْ، منَ المُقرَّرِ شرعًا أنَّ لكلٍّ منَ الرِّجالِ والنِّساءِ جوانبَ تفضيليةً خصَّه اللَّهُ تعالى بها[3].

* * * * *

(1) أي: أقلُّ في التفضيلِ.
(2) «تفسير السعدي» (ص759).
(3) «جوانب تفضيلية للمرأة في الشريعة الإسلامية» مجلة «الأحمدية» (العدد 16 ص 143) محرم 1425هـ - «دارُ البُحوث والدراساتِ الإسلاميةِ وإحياءِ التراثِ» - دُبَي.

سورة الذاريات

فـــائدة

في

قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾[1]

ليس الكلامُ هنا عنِ «المناسبةِ»، إنما الكلامُ هنا عنِ المعنى، أو التفسيرِ والتأويلِ المُرادِ.

وإنما أفعَلُ ذلك لـ«دفعُ إيهامِ الاضطرابِ»[2]، أوِ التعارُضِ، الذي قد يُتوهَّمُ بين آياتِ القرآنِ الكريمِ، الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾؛ ذلك أنه قد يَتوهَّمُ مُتوهِّمٌ، أو يقولَ قائلٌ: «كيف وصفها اللّهُ - جلَّ في عُلَاه - بأنها ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ﴾ [الذاريات: 41]، وآيةُ الأحقافِ تقولُ: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: 25] فها هي المساكنُ لم تُدمَّرْ؟!

والجـوابُ:

هذا لا يعني أنها دَمَّرَتْ كلَّ شيءٍ في تلك القريةِ الظالمِ أهلُها، حتى لو احتجَّ مُحْتجٌّ بقولِه تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: 25]؛ لأنَّا نقول: إنَّ قولَه تعالى في هذه الآية: ﴿أَتَتْ عَلَيْهِ﴾، وكذلك قولُه تعالى في آيةِ «الأحقاف»: ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ لا بدَّ له من معنًى، وفائدةٍ.

---

(1) [الذاريات: 42].

(2) وهذا اسمُ كتابٍ هامٍّ للشيخِ/ الشّنقِيطِيّ - رحِمَه اللّهُ تعالى - في ذاتِ الموضُوعِ.

ونستطيع أنْ نعرِفَ معنى وفائدةَ هذا القَيْدِ، إذا نظرنا إلى قولِه تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: 41] لنرى أنَّ هذه الريحَ مُرسَلَةٌ، أي: مأمورةٌ بأمرِ ربِّها[1]؛ عذابًا لأولئك المكذبين.

يؤيدُ هذا قولُ النبيِّ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم: «لا تَلْعَنْهَا[2] فإنَّها مأمورةٌ...»[3]. وكذلك قولُه صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم: «... وخيرَ ما أُرسِلَت به، ... وشرِّ ما أرسِلَتْ به»[4].

فإذا كانت مأمورةً فليست هَوْجاءَ. بلْ، مُوَجَّهَةٌ بعنايةٍ، واقتدارٍ تُدَمِّرُ باختيارٍ، وانتقاءٍ، كما أُمِرَتْ.

فهذه الريحُ إنما هي كما قال الإمامُ/ الشافعيُّ - رحِمَه اللَّهُ تعالى -: «خَلْقٌ للَّهِ مُطِيعٌ»[5].

فإذا كان كذلك فلا معارَضَةَ بقولِه تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: 25]، على القولِ بأنَّ مساكِنَهُم بقِيَت عبرةً لم تُدَمَّرْ. واللَّهُ أعلمُ.

* * * * *

---

(1) ككلِّ شيءٍ في هذا الكونِ.

(2) يعني الريح.

(3) حسن. الترمذي، وأبو داود، من حديث ابن عباسٍ - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنهما. وانظر: «مختصر النبراس» للمؤلف (ص60).

(4) صحيح. مسلم، من حديث أمِّ المؤمنين عائشةَ - رضِيَ اللَّهُ تعالى عنها. وانظر: «مختصر النبراس» - للمؤلف - (ص60).

(5) انظر «مختصر النبراس» (61).

سورة الرحمن

فـــائدة

في

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾(1)

لماذا قدَّم - سبحانه - ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ ثم قال: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾، مع أنَّ مَن تعلَّمَ البيانَ يُمْكِنُه تعلُّمُ القرآنِ وغيرِهِ؟

قلتُ:

إنما كان ذلك لأسبابٍ.

فضلُ القرآنِ وشَرَفُه كان سببًا في تقديمِه وتخصيصِه(2)(3).

* * * * *

(1) [الرحمن: 1 - 4].

(2) وكان هذا جوابي عن نفسِ السؤالِ منذ أكثرَ من عشرِ سنواتٍ.

(3) وسقطت باقي الأسبابُ مع السنين؛ إذ لم أكن دونتُها في حينِها، ثم سَقَطَتْ مع أوراقٍ فُقِدَتْ مع ظُروفِ السجنِ.

سورة التغابن

فـــائدة

في

قوله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[1]

قال الشيخُ/ السعديُّ - رحِمَه اللّهُ تعالى:

«﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ عنهم، فلا يُبالي بِهِم، ولا يَضُرُّه ضلالُهم شيئًا»[2].

قلـتُ:

استغنَى أي: (غَنِيَ) و(اغتَنَى). و(استغنَى) عن الشيءِ: لم يحتَج إليه[3].

ولذلك قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾، أي لا يحتاج إلى أحدٍ؛ لأنه خالقُ الخلقِ فـ «ليس بعدَ خَلْقِ الخَلْقِ استفادَ اسمَ الخالقِ، ولا بإحداثِه البَرِيَّةَ استفاد اسمَ الباري»[4].

فهو سبحانه مستغنٍ عن خلقِه قبلَ أن يخلُقَهم، ولا يحتاجُ إليهِم بعد خَلْقِهم، فلا يضرُّه كفرُهم، ولا ينفعُهُ إيمانُهم.

---

(1) [التغابن: 6].

(2) «تفسير السعدي» (803).

(3) «مختار الصحاح» (غني)، و«المعجم الوسيط» (2/ 689/ 1).

(4) انظر: «الطحاوية» (137 - 142).

وهذا قولُ اللَّهِ: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: 131].

كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر: 7].

ولكنْ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: 7][1].

* * * * *

(1) الساعة 10.10 ليل الأربعاء 26/ 1/ 1425هـ، 17/ 3/ 2004م.

سورة الصف

فـــائدة

في

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(1)

ما مناسبةُ ذِكرِ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مع التسبيحِ؟

والجـوابُ:

لمَّا كان اللَّهُ تعالى قادرًا على أنْ يجعَلَ الكائناتِ تُسبِّحُ له كُرْهًا، ورغمًا عنها(2) ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: 44]؛ لأنه سبحانه ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 102]، فهو مالِكه، فكيف يُعْجِزُه؟!

ومع ذلك، قال سبحانه للسمواتِ وللأرضِ: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: 11].

فالمِلكُ عزَّةٌ، والقدرةُ عزَّةٌ، فهو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾.

ولذلك جاء في سورة الجمعة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: 1].

---

(1) [الصف: 1]، [الحشر: 1]. و[الحديد: 1]. ولكنْ، فيها: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

(2) لو أرادَ.

وجاء ذِكْرُ المُلكِ في الحديد: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: 2].

وفي التغابُنِ - أيضًا - في نفسِ آيةِ التسبيحِ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: 1].

أمَّا في الحَشْرِ، فقد ذَكَرَ - سبحانه - بعد آيةِ التسبيحِ في أوَّلِها ذَكَرَ شيئًا من قُدرتِه على الخَلقِ، وأنهم لا يُعجزُونه:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ [الحشر: 2].

فهو سبحانه ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. واللّهُ أعلمُ[1].

* * * * *

(1) الساعة 4.22 قُبيلَ فجر الأربعاء 2 رمضان 1426هـ ، 2005/10/5م.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مختارات للتذكير والتنبيه	4
مقدمة	13
تنبيهات	21

سورة البقرة

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [129]	26
تذييل في (البقرة 260) و(غافر/ 7-9)	27
﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [137]	28
﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [148]	30
﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [153]	33
﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [219، 242]	36
تذييلٌ	38
﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [245]	39
﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ [263]	42
استدراكٌ أو تذييلٌ في الآية السابقة مع [المائدة / 101]	45
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [278]...	50

سورة آل عمران

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [7]	52
﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [29]	54

سورة النساء

[وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ] [12] 56
[وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ] [12] 57
[وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا] [32] 59
[إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا] [43] 65
تذييلٌ في [مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ... الآية] [المائدة/ 6] 70
[إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا] [58] 71
[وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا] [73] 73
[إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا] [76] 74
[كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ] [94] 76
تنبيهات على بعضِ كلام بعض أهل التفسير في هذه الآية 80
[إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ] [104] 84
[وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا] [126] 86
[وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا] [147] 90
[إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا] [149]... 93
[أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا] [152] 95
[وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا] [158] 97

سورة المائدة

[قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ] [76] 101

[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ] [101] 103

سورة الأنعام

[وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ] [13] 105

تذييل في استقراء مادة «سكن» في القرآن 110

[وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ] [18] 114

[وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ] [37] 116

[وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ] [74] 121

تنبيهات على بعض الأقوال في هذه الآية 133

سورة الأعراف

[وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ] [60] 147

[إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ] [194] 149

[أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ] [195] 154

[إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ] [196] 158

سورة الأنفال

[وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ ...] [44] 161

سورة التوبة

[فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ] [35] 163

[إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] [71] 165

[وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ] [97] [وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ] [98] و[إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] [99] 168

سورة يونس

[قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ] [15] 170
[بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ] [39] 175
[أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ] [42] 179
[قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّٗا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ] [49] 181
[كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ] [103] 184

سورة هود

[فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٖ] [6] 186

سورة يوسف

[وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٖ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ] [17] 189
[وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ] [24] و[وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ
تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـٔٗا قَلِيلًا] [الإسراء/ 74] 191
تذييل في [فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدْبِرٗا وَلَمْ يُعَقِّبْ] [القصص/ 31] 195
[قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ] [50] 196
[قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرٗا فَصَبْرٞ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ
جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ] [83] 198

سورة الحجر

[كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ] [12] 199

سورة النحل

[إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ] [7، 47] 202
[لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ
] [23] 204

[وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ] [37]............................... 206

[إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ] [70]............................... 208

تذييلٌ في [وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا] [طه/ 110] و[وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ] [البقرة/ 255]............................... 209

سورة الحج

[إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ] [17]...... 211

[إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ] [60]............................... 213

سورة المؤمنون

[وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ] [118]............................... 215

سورة النور

[وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ] [6-9]............................... 217

[وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ] [60]............................... 219

سورة الفرقان

[وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا] [20]... 223

سورة الشعراء

[وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ] [9]............................... 224

[إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ] [16]............................... 225

تنبيهات واستدراكات على بعضٍ أقوال بعض أهل التفسير في هذه الآية...... 227

سورة القصص

[فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ] [7]............................... 233

[وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ] [9، 11]............................... 234

[فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن

قبل] [11، 12] 235
[أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا] [78] 236

سورة النمل

[لأعذبنه عذابا شديدا أو لأاذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين] [21] 240
[قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ءالله خير أما يشركون] [59] .. 242
[إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم] [78] 249
[وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون] [88] 250

سورة العنكبوت

[إنه هو العزيز الحكيم] [26] 256
[وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم] [60] 259

سورة لقمان

[وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم] [9] 261
[إن أنكر الأصوات لصوت الحمير] [19] 263
[ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون] [25] 267

سورة الأحزاب

[يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما] [1] 269
[ادعوهم لآبائهم] [5] 270
تذييل في [ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه] [4] وعلاقتها بما بعدها .. 276

[وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا] [5]........................ 279
[إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا] [24]، [وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا] [5، 50، 59، 73]........................ 281

سورة سبأ

[وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ] [2]........................ 286
[إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ] [19]........................ 288
[بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ] [27]........................ 294
[وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ] [50]........................ 296

سورة فاطر

[إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ] [28]........................ 298
[أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ] [37]........................ 302

سورة ص

[ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ] [9]........................ 304

سورة الزمر

[أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ] [5]........................ 306
[ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] [42]........................ 312

سورة غافر

[إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ] [20]........................ 316
تنبيهات على بعض أقوال أهل التفسير في هذه الآية

سورة فصلت

[فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ] [4]........................ 319

سورة الشورى

[يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا] [18]........................ 320
[وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ] [19]........................ 322
[إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ] [50]........................ 324

سورة الزخرف

[وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ] [9].. 327
[أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ] [16]........................ 328

سورة الذاريات

[مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ] [42]........................ 330

سورة الرحمن

[الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ] [1-4]........................ 332

سورة التغابن

[فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ] [6]........................ 333

سورة الصف

[سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] [1]........................ 335
الفهرس........................ 337